المستنقع
اريج مناضل

المستنقع

اريج مناضل

الفصل الاول

انه الاول من أيار , يا للتعاسة!
همست روحه بوجل , بشفاه وهمية وكلمات مخفية. وهو يكتم منبه الهاتف , ويتمتم جملا صامتة سرعان ما يبتلعها الوقت في فوهته .
ويطالع اميال الساعة مشمئزا , وهي تدور وتدور دون هوادة , مصدرة صوت تكتكة خفيف , يخترق صمت الغرفة , ويطرد الخيالات من ذهنه الخجول.

ثم سرعان ما يتلاشى الصوت الاثيري , تاركا فسحة جوفاء للبحث في ذهنه , عن شيء من خيوط الحقيقة المخبأة .حقيقة الاشياء الجامدة .مذهولا من قبح الاشياء الميتة والباردة , وهو يطالع الجدار والسقف والمروحة , والصورة المعتمة بإطارها الزجاجي , وقد بدت له كلطخة سوداء لامعه في منتصف الجدار الجانبي , وهي تعكس اول خيوط النور المنسل من النافذة . وهكذا راح يتأمل الاشياء المألوفة لعينيه .

وكان قد استيقظ قبل ان تشقشق أضواء الصباح . منذ ان كانت الغرفة غارقة في بحرا من ظلام لجي . ورغم ذألك الظلام السائد , كانت لديه قدرة هائلة على ابصار كل جزء من الغرفة , وكأنه يشاهدها في مرأى الضوء الواضح . فطالع الجدار المتأكل بلونه الحليبي , اللون الذي يبدو انه ابيض متسخ تم طلائه منذ ابد الدهر , ولم يكن ليحزر أي كائن عاقل ان احمق ما , قادر على طلاء غرفة مهاده بكذا لون بالغ الحيرة .
والسقف الابيض تتدلى منه مروحة بيضاء بريش رفيعة , تدور ببطء مصدرة أزيز خافت , يعطي للغرفة استقلالها الصوتي الذي يحجب الاصوات الباقية . والساعة المعلقة امام ناظريه من البلاستك الرديء بلون خشبي زائف . وخزانة خشبية من خمسة ابواب , مصنوعة محليا من الواح خشبية رفيعة , مرصوصة مع بعضها البعض ومقواه بالنشارة والغراء , كي تبدو كأنها الواح سميكة من خشب الصاج الاصلي, رتبت فوقها بطانيات ووسائد وافرشة قطنية لم تستخدم قط .

ونافذة صغيرة بعرض متر واحد وبذات الارتفاع , فوقها ستار مخرم من قماش خفيف . تمتد الستارة من اعلى نقطة من السقف , حتى تلامس البلاط المربع الصغير بلونه الاصفر الباهت . والسرير متوسط الحجم , منخفض الارتفاع , تلامس فرشته الحمراء مربعات البلاط , وهو بلاط بمربعات صغيرة بلون أصفر , مصنوع من حصى مختلفة الاحجام وكسرات من الرخام , مصبوبة داخل قالب اسمنتي صغير ومصقولة لعدة مرات , ليكسب البلاط مظهر الرخام .

و كان من المستحيل ان يتسنى له امكانية رؤية أي شيء في اول استيقاظه . وان كل ما رسمته له عيناه من صور قد القى عليه بصورة متتابعة من الذاكرة .ولم يكن حقا ليبصر أي منها حتى في وجود الضوء فقد عبر تلك المرحلة واصبح يتحرك بشكل لا ارادي , حافظا كل شيء حتى ملمس الاشياء . فكان بأماكنه ان يشرد في موجة تفكير حالم , ويقوم بذات الوقت بفتح باب الخزانة وتناول قطعة ثياب وارتدائها .احيانا يحاول معرفة الوقت فيطالع الساعة دون ان يطالعها فعلا , أي ان ذهنه يجول بعيدا عن بصره . يضطره الامر الى تكرار فعله ثلاث مرات على الاقل , وان المرة الاخيرة وحدها هي التي يكون فيها ناظرا بعينيه مستحضرا عقله , مدققا في الميل الاصغر والاكبر ثم عليه تحديد أي نصف من اليوم هو ذا . وكذا عليه ان يحفظ نفسه من شرود آخذ بيده في الثواني طوال الوقت .

احيانا كثيرة يجد انه يقف في ذهول وكأن ضمور قد اصاب عقله , او حالة من تلبد مؤقت , وعندما يفيق من تلك النوبات , فأنه يستغرق عدة ثوان لامساك وعيه ثم اعادة تشكيله داخل الجسم الذي يحتويه مدركا العالم مجددا بعد الافاقة . وان السبب الذي يجعله فيما هو فيه , هو كونه لايزال في مرحلة تطلع نحو العالم , مثل طفل يحاول اكتشاف الاشياء الظاهرة حوله .وان مكمن الاختلاف هو انغماسه في بواطن الامور عوضا عن سطحها . انه يترك نفسه منهاله في جل الاشياء , دون غنى عن اصغرها ولو كان متمثلا في نملة تسير مترنحة تحت تأثير الثقل الذي تحمله .وكذا مجمل الاشياء البسيطة .

انه يأخذ وقته , انه يأخذ كل الوقت , بل ان كل الوقت في حياته انما وجد لمثل هذه التوقفات الذهنية .كأنه يسقط عنوة في فجوات زمنية تتيح له الانغماس اكثر فاكثر, والتي تجعله يطرح العديد من التساؤلات , والتي غالبا ما سيكون جوابها الخيبة , وكأنها انما طرحت لتبقى بلا اجوبة , ولو ان احدهم قد اجابها , لفقدت ذألك البهاء الذي يطوف حولها والذي تستمده من طاقة الغموض .

ولكنه في غمرة استغراقه المفرط يكاد ينصب بذاته في شتى الموجودات , عدا الافراد المحيطين به فهو ينأى بنفسه عنهم , منفصلا تماما , يقوم بما يقوم به آنيا , ومهما بذل من مجهود في سبيل ان يكون حاضرا , فأن ذهنه سرعان ما يعاود الشرود , فهو يعقد اتصال فوري من خلال رابطة جسور ممتدة بين الاشياء , وانها اجمع تثير دهشته . فمثلا لطالما نظر نحو السماء بعين الرسام الذي يمعن التحديق في الالوان السماوية المنثورة , حتى ليكأد ان يتوحد معها , ويحلل درجاتها اللونية وامواجها الطولية كمنشور, ولايزال ذألك التركيب الطبيعي للغلاف الجوي وترشيحه للترددات المختلفة حتى وصولها الى تلك الصورة التي يترجمها عقله , قادرا على ترك اثره النفيس في روحه .

و منذ اول وهلة لاستيقاظه حاول معاودة النوم . فاسبل جفنيه , واحس بالسواد وهو يملئهما , والبؤبؤ وهو يتحرك تحت الجفن الجلدي مفترسا الظلام الذي يجسد خواطره المكبوتة , باحثا عن ممر من ممرات النور المرتعشة .واذنيه وهما تنصتان لكل صوت وهمسة , حتى الصمت آنذاك كان يضم في داخله ثورة من اصوات متداخلة . استسلم في النهاية لهروب النعاس , حضر تركيزه كله وحواسه مستيقظة , كتلة الجسد الدافئ وهو مستلقي فوق السرير , وامواج المشاعر العاتية وهي تجتاحه مرة واحدة مثل قذيفة مدفع قديم . احس بالعظام الصلبة وهي ترتبط ببعضها البعض وكأنها تتشكل اول مرة , واللحم الطري وهو يكسوها مشكلا هيئة الكائن البشري بكل اختلاجاته . ومنذ البداية كان قادرا على التقاط رائحة الرطوبة التي تنبعث في الجو قبل المطر , وميزت اذنيه زفيف الريح المحملة بذرات ناعمة من الغبار وهي تتحضر .

وقبل ان يرن المنبه الرنة الاولى , كان يدرك وقع اليوم وثقله في الهواء وهو يتأرجح متراخيا , ما بين الامس والغد . والساعات وهي تتبدد بين الدقائق واجزائها , كم ستبدو كئيبة , اكثر كربا من الغبار الذي سيرتفع مغلفا الاجواء كآبة وقتية , سرعان ما تنجلي مع نزول اول ستائر الليل السوداء الخافتة . وهي كأبة قد اكتسبها صاحبنا وهو يبحث عن فلسفة الايام , يومه بالذات يوم الولادة , بدأ اشدها وطئا عليه , وهو يحاول التأقلم مع الحياة , منازعا جذور الرغبات الخاوية , رغبة التحرر من طوعية الانسياق , والبحث عن احساس حي نابض , عن رعشة متقدة بعيدا عن شجرة الحياة المحملة ببراعم الخيبات .

ورغبة اخرى من رغبات الكون الحتمية , تروضه كشخص عادي , وماذا يمكن لرجل عادي مثله ان يقدم لهذا العالم المتغير والمتجدد , سوى المسير باستقامة وخنوع كشخص خاضع , والتمسك بكل ما هو واضح معروف , وهذا شيء واضح جلي للعيان , فها هو اليوم سيبلغ الثلاثون من عمره , متزوج زواج تقليدي وله ثلاث اطفال . وها هي الحياة تبدو تافهة فارغة , دون اي معنى للوجود , والايام رتيبة قاحلة تشده للذبول وهو موظف بسيط براتب قليل لم يكد يصل نصف الشهر حتى يفرغ جيبه من النقود , الا ان والدته واخته اللتان تسكنان معه تحملان عبء النصف الاخر من الشهر .

وهو يسكن بيت صغير تركه له والده في بقعه من بقاع الارض الشاسعة بعد انتقاله من الريف الى المدينة , وكان ذألك بعد زواجه بخمس سنوات , وذألك بعد ان حضي بعمل حكومي بسيط , كحارس ليلي في احد المدارس الابتدائية . وكان عليه ان يبيع جزء من ارضه الزراعية التي اورثها اياه والده , بغية شراء دار سكني في المدينة . انتظر الزوجان بضع سنين اخرى قبل ان يرزقا بمولودهما البكر , الذي اطلق عليه أيار تيما بأفضل اصدقاءه , وهو استاذ في التاريخ , في ذات المدرسة التي يعمل فيها .

وبالطبع لن نقول أي مدينة , ممكن ان تكتنف هذا الانسان العادي , الا انها مدينة بإيقاع بطيء , اكثر بطء من سلحفاة معمرة , تسير برفق فوق رمال الشاطئ . حيث بقي كل شيء على وضعه بعد تغيير النظام . البنايات الحكومية القديمة لازالت محتفظة بشكلها التقليدي . والموظفون بليدون لا رغبة لهم في أي عمل يذكر, حتى تحريك الاجساد يبدو عمل مضني بالنسبة لهم .حيث الاخلاق هشة , والكتب دخيلة , والعقول تحتضر في عالم تسوده التفاهة , وان انسان هذه المدينة هو انسان خاوي و منقاد , تسيره سلسلة مترابطة من العادات , دون ان يزل منها قيد انملة , وان نسبة انجازه اذا ما قيس بأجيال سابقة فهو مستوى منخفض شديد الانحدار , انتكاسة حقيقية للكائن المتطور المولود من ارحام الصراعات . اهدار حقيقي للهواء الذي يستنشق , والارض التي يدنسها ببلاهته وهو يقطع الخطى فارغ الراس , وهو يعتقد ان ما من شيء على الارض يستحق التفكير فيه .وان جل اهتماماتهم منصب على عيش الحياة اليومية وتبديد الوقت , وان من يملك الجرأة على الخروج عن الاعراف السائدة , سيحتفظ بجراته عميقا دون ان يجعلها ظاهرة للعلن مخافة ان ينبذ.

وهو يعيش بالتحديد في بقعة من هذه المدينة , في حي صغير من احياءها الكثيرة والمتداخلة بحيث لا يفصل بينها سوى شوارع متصلة ببعضها البعض . منطقة خربة كل يوم يمر عليها , يسهب في خراب إضافي . وهو يعرف السكان بكل الوانهم واشكالهم الكالحة واطوالهم المختلفة . وللحي رائحة عفنة تشبه رائحة نمو الفطريات في مكان مظلم ورطب او كقيح عفن . الفطريات البشرية تنمو وتتكاثر وتموت في مثل هذه البقاع دون ان تترك أي اثر .

ورغم السماء العالية والهواء المتجدد الا ان الرائحة ذاتها تضم المكان , مثل رائحة الغازات المنبعثة من بالوعة الصرف الصحي .

وللتوضيح اكثر فأن هذه البقعة قد حافظت على نفسها , سماتها ورائحتها الغريبة , كهيئة ثابتة منذ ثمانينات القرن الماضي .

وفي الحقيقة لم تكن تلك المرة الاولى التي يرن فيها المنبه الجهوري , بل كتمه مرتان قبل ان يرن للمرة الثالثة , الا ان الثالثة حتمية كما كان يردد والده :

الثالثة ثابتة بلا شك .

ولم يكن يخرسه لشيء سوى لإحساس التعب الكاذب الذي تلبسه . وهو احساس وهمي يخلو من كل صور الحقيقة المجردة .فلم يكن يشكو من أي تعب بدني من أي مجهود يذكر, بل الحياة برمتها قد اضجرته , لكونه كائن صغير يبحث عابثا عن معاني الكلمات والاشياء خلسة , دون ان يبدو مثيرا للريب في نظر أي احد . وهو يعتقد ان حياته التعيسة من منظوره الشخصي ستحافظ على شكلها الثابت حتى هلاكه. فلو افترضنا انه بذل جهده من اجل ان يبقى سليم الجسد وافر الصحة , وبلغ متوسط عمر الانسان الحالي , فانه سيعيش حتى الخامسة والسبعين , مع انه ينحدر من عائلة يتوفى معظم رجالها قبل بلوغهم الخامسة والستين , وهكذا ثبت لديه حسابه الذهني , ان تلك الهيئة التي تبدو بها الحياة ستبقى على حالها , بل على الارجح ان بؤسه سيزداد ,حتى يصبح عجوزا ممقوتا لا يجرؤ على محادثته أي احد .

طالعها بنهم , العقارب السوداء وهي تدور, وتخبره انها لن تكف عن الدوران . اميال حية تزدري وجوده , تبصق هزأة على جموده . وتحسب ان فيها من الحياة ما يفوقه . ويزداد شعورها بالتعالي استنادا الى حقيقة , ان البطاريات الرديئة التي تسيرها لو نفذت , وتوقفت الاميال عن التبختر متفاخرة بقدرتها على العد , فأن الزمن مستمر دون توقف او

انقطاع , والساعات والثواني وانصافها معدودات , في ساعات الزمن القائم دون اسس ثابتة , او تفسيرات واضحة تبسط الوجود او تعلله . كلها من عمره محسوبة .

والزمن باق كما هو قبل ان يكون الماضي السحيق , منذ ان انفجرت السماء بدخانها العظيم , وكونت اولى جزيئاتها , البذور الاولى لكل ما كان وسيكون . وقبل ان تدح الارض المكورة ترقبا لكائنها الصغير. وقبل ان تخرج من بطنها الخرساء صلصالها المفخور بهيئته الادمية , الانسان الاثم منذ لحظة الخلق والانشاء وعصيان الخالق حتى زوال البشرية . ولو ان ايار امتلك شجاعة من نوع ما او جرأة , لحمل مطرقة حديدية وانهال فوقها ضربا الى ان تصبح حطاما منثور. وربما آنذاك شيء من الرضا الزائف سيملئه .

وهنا ندرك انه يتسم بضعف الجيل الجديد , الذي يفضل بقاء الاشياء كما هي دون تغيير , كدستور الهي يحافظ على دورية الاشياء وتزامنها . ومع فشله في معاودة النوم بقي مشغول الذهن واهي الجسد , وهو ينتظر الرنة الاخيرة , وهو يدرك ان لكل يوم هناك رنة اخيرة . وعندما اضيئت الغرفة بضياء الفجر المتسربل من النافذة , مخترقا قماش الستار الشفيف , حدق في زوجته وهي تغط في نوم عميق اشبه بسبات دب قطبي , وهو يدرك انها قد آوت الى الفراش قبل انفلاق خيوط الغبش الاولى , وانها لن تستيقظ قبل ان تدق التاسعة .

كان عليه مغادرة المنزل قبل الثامنة .وكان قد اعتاد الخروج دون تناول الفطور, تجنبا لغثيان فجائي ناجم عن داء في المعدة , او كعادة اكتسبها مع الايام . ولكي نصف ذألك اليوم فسنقول انه يوم متطرف , متوسط الحرارة , لا يخلو من التقلبات بين موجات الغبار المتصاعدة , والامطار الموسمية النازلة .ببساطة يوم يحمل كل المواسم في جعبته . وعندما خطت قدماه عتبة الباب الداخلي نحو الباحة الصغيرة , ابصر

صفرة السماء العالية , وتماه الالوان وشحوبها , الذي ينذر بعاصفة ترابية هوجاء , وربما زخات من مطر خفيف , خاتمة مثالية ليوم ترابي كئيب.

توارت الشمس خلف غيوم رمادية شاحبة . وظهر النهار بلونه الاصفر كأنه قد انقضى , وحل المغيب على عجل , وتلونت السماء بقتامة مسائية . شيء ليس من السهولة تكراره , ان تجتمع كل تلك العناصر منشاءه هذا التطرف الساحر.

سار ايار في الزقاق الضيق ذو الصفان من المنازل المتقابلة والمتشابهة . وكان يفضي الى ساحة واسعة خالية .اكوام مكدسة من التلال الترابية , ركام وانقاض المنازل التي تم اعادة بنائها طوال اعوام , مكبات النفايات , اكياس بلاستيكية ملونة وممزقة , حفاظات نسائية مدماة , كلينكس مليء بالبصاق المختلف , حفاضات الغائط البشري من مختلف الاعمار والالوان , رتل كامل من ذباب عملاق يحوم حول احشاء سمك ودجاج , وجيفة قطة مدعوسة اجتمع حولها عدد من الكلاب السوداء المسعورة , العاب مكسورة , اقمشة بالية , وكل شيء اخر قد يتبادر الى الذهن , واشياء اخرى لا يمكن ان نتخيلها ربما , وبرك من المياه الاسنة تحيط بها حشائش يابسة , واخرى لازال امامها اسابيع قبل ان تموت , مكونة ما يشبه المستنقع .

جال بصره نحو مجموعة من الطيور الجميلة , تسير برفق بقوائمها الطويلة بين حشائش المستنقع , او تطير برفق نحو السماء . وكانت بريش ناصع البياض ,عدا مقدمة الرأس التي يكسوها ريش مخطط بين السواد والبياض , وكلما حلقت عاليا مخترقتا السماء الصفراء , عاودت النزول بثبات نحو المستنقع . في ظروف مشابهة لشخص اخر في ذات الحي , غالبا كان سيغادر دون استغراق مفرط في التفكير , دون ان ينتبه الى تفاهة الاشياء وبساطتها , الى سرعة انقضاء الاعوام وانجرافها , دون

احساس الصخرة التي تسكنه , دون امعان التحديق في طائر الزقزاق الذي يألف المستنقع وكائناته , يسير باللامبالاة نحو اليوم ومعطياته .

توقف بمحاذاة الشارع الرئيس . السيارات مختلفة الاحجام تنطلق في اتجاهات متعاكسة ومن ممرات فرعية ضيقة . المشاة يتوزعون في الطريق , اشياء صغيرة تافهة , بنية ورمادية وسوداء .بعض السيارات تنطلق مسرعة عبر الطريق السريع الذي يربط المدن , سيارات أبطئ تعبر خلفها .تخطف السيارات المسرعة قربه وتخل توازنه , وتجبره على التقهقر قليلا الى الوراء , لا يريد ان يدعس تحت اطاراتها الساخنة ويختلط دمه مع دماء الحيوانات التي سحقت طوال الطريق , وعلقت قطع صغيرة من اجزائها بين بلاستك الاطارات . رؤوس متطفلة تخرج من زجاج النوافذ المسرعة . اصوات عالية تتردد له مثل ذبذبات .

احيانا ترتفع صفارات الاسعاف , بل للحقيقة ان موقع وقوفه هو مكان مثالي للحوادث اليومية , وما يحدث هو انحراف السيارات عن الطريق عند بقعة ترابية منحدرة , باتجاه المستنقع , ومع ذألك فأن احد لا يقع فيه , فقط بالقرب منه تقع الحوادث دائما , ويصبح المكان نقطة تجمع مثالي للمتطفلين . وضوضاء سيارات المرور وسيارات الاسعاف التي غالبا ما تكون آخر من يصل الى الموقع . وضجيج المارة الذين يجتمعون للاستمتاع بالمنظر, الذي يوقظ فيهم احساس عميق بالمأساة , فتراهم يربت أحدهم فوق كتف الأخر كعلامة للمؤازرة , وينعقون بأعلى بأصواتهم كدليل قاطع على تأثرهم الكلي , وكأن الحادث قد هز كل ذرة في ذواتهم , مع انهم افراد فارغون لا يكاد يسكنهم سوى الخواء.

في ذات الشارع الرئيسي تتراصف الاعمدة الكهربائية في ثلاث صفوف متتالية , طويل قصيرة ثم اقصر , دون مصابيح اضاءة ليلية كانت تتواجد في الاعوام السابقة , كما ان الاعمدة لم تكن بهذا العدد بل صف واحد فقط لا غيره . الان ازدادت الصفوف وبرزت اعناقها المدببة واسلاكها الغليظة , واضافة قباحة اخرى للمنظر. صخب مرئي دون جدوى .وبعد مضي عدة دقائق من الانتظار والعطاس وصل الباص . جلس ايار في المقعد الوحيد الخالي .

سار الباص مخترقا شوارع المدينة المعبدة وغير المعبدة .المتربة والمليئة بالحفر . اعتاد والده ان يقول ان المدينة ليست سوى شوارع مقفرة , وساحات ترابية فارغة . كلما ركب الباص , تذكر تلك الملاحظة الحاذقة .انطلقت من فم حكيم ميت . لا تزال حقيقة ظاهرة لا يعلوها غبار , ولا يشكك في حلم قائلها . يتذكر كلماته وهو الراحل قبل عشرة اعوام . لاتزال تلك الخربة الجرداء على ذات الحال , رغم تكاثر السكان مثل تكاثر الدجاج في الاقنان . وكان الباص يتوقف كل حين لأنزال راكب وحمل اخر من ابناء الطبقة المتوسط والفقيرة ممن تحول النقود بينهم وبين امتلاك سيارة خاصة , وهم يحملون ذات الرائحة والنظرة البلهاء .

هو ينتمي الى تلك الفئة من البشر الذين يألفون ايقاع المدينة البطيء , ويعرفون بنائها . لهم ذات الميول . مواطنين محدودي الافق . جماعة مترابطة لا شعوريا , لهم صفات كثيرة مشتركة يجهلونها , ليس فقط تفاصيل ظاهرية من سمات البنية والبشرة السمراء والقمحية , بل اخرى اعمق . مجمل ما يؤمنون به , ما وجدوا ابائهم قبلهم يصدقونه . اين يفر المرء من نفسه واعتياده على الاشياء ! لأي جماعة سينتمي اذا انفصل عن قطيعه المألوف ! حريا به أذن ان يبقى كما هو, الى ان يموت .

نفخ السائق بلحيته الكثة سحب الدخان الكثيف غير أبه بركابه , انه شديد الا مبالاة . انه ينتمي الى اسوء فئة من اصنافه , فئة تستطيع ان تفعل ما تشاء اينما تشاء , ترجمة الوقاحة الى جراءة هنا شيء معتاد . ثم سعل العجوز الذي يجلس بقربه واخرج منديله الرصاصي , ليبصق مخاطه الاخضر اللزج الذي يوحي بأحد امراض الرئة المزمنة التي تكون طبيعية بالنسبة لعمره ولأجواء مدينته , غير مبال هو الاخر بمنظر منديله شديد القرف ومخاطه المقزز, وانفه المفلطح الذي يشغل اكبر حيزا من وجهه الطولي . انه يؤمن انه قد بلغ حد من الكهالة يتيح له ان يفعل ما يريد دون احكام او ملاحظات من احد . وفي تلك اللحظة بالذات , خاضت معدة ايار تقلصاتها , وارتبكت عصاراتها الهضمية , واحس بطعم المرارة في فمه , نتيجة ارتجاع حمضي من المعدة و المريء , وحمد الرب لعدم تناوله الفطور, والا لشرع في موجة قيء عارمة .مجرى من القيء الاخضر يغرق الباص ويخنق راكبيه . وكان عليه ايضا كتم عطاسه حتى احمر انفه , كي لا يكون وليمه لنظرات الركاب الساذجة .

استمر الباص شاقا طريقه عبر شوارع المدينة وقد ظهرت تشققات عملاقة على طول حوافها , وانتشرت في منتصفها حفر مختلفة الحجم مليئة بأحجار صغيرة وكبيرة , ومطبات عشوائية تضمن لتلك الطرق مكانة مرموقة كأكثر الطرق اماتة , وارسال المرء نحو حتفه في اسرع رحلة مجانية الى القبور . كما ان معظم الجالسون خلف المقود لا يفقهون شيئا بالقيادة وقوانين السير, فقط عجلة ومقود اشبه بامتطاء حمار. الفرق الوحيد هو السرعة لا شيء ا كثر.

ترجل امام الدائرة الحكومية ببنائها الصغير ولونها الابيض المزرق , و طن من الاتربة والاوساخ العالقة بين شروخها الظاهرة والمخفية . والطوب الاصفر الذي يبرز في السياج الخارجي المتآكل. والنوافذ التي تنتشر بعدد مبالغ فيه في كل غرفة .وبوابتها الحديدية المزخرفة بشكل غير اعتيادي بالغ السخف , وهي مفتوحة على مصراعيها , ترحب بالقادمين .

وكان يكن لهذا البناء الواقف , نوع من كره حميمي , يشتد ويبلغ اوجه كلما ابصر هيكلها الواقف . اللون الفاتر يذكره برباطه معها , كعقد مقدس , انه اسيرها حتى الستين . رهين بكل ما فيها , الغبار العالق بجدرانها , البقع السوداء الملتصقة بها , اعشاش الحمام في اطارات النوافذ الحديدية , المعدن المتأكل لبوابتها ونوافذها الصغيرة . كل شيء يذكره بسجنه الحتمي , انه يقضي ست ساعات في كل يوم , وخمسة ايام في كل اسبوع على مدار السنة . يعتصره قلبه لمجرد التفكير بتلك الحقيقة انه أسير راتبها القليل الذي لا يوصله سوى نصف الشهر .

كان العمل بحد ذاته قتل بطيء للوقت .موت قاس لجسد حي نابض , وروح متلاشية بين الموت والحياة . فهو هروب من ضجر المنزل نحو رتابة العمل ومشقاته . وكانت ساعاته تجثم ثقيلا فوق كاهله وتخنقه . قطع الخطى بطيئا مرتبك نحو البناية , وكأنه يتقدم نحو كرسي اعدام كهربائي , جزاء لتهمة خطيرة , مذنب لكونه انسان اخرق يتردد بين الوجود وعدمه والاثبات ونفيه . وانه يود لو تفصله اميالا عن البناية . متمنيا ان يقطع اطول ازاحة يمكن لبشري قطعها سيرا وصولا اليها . ولكن لسوء حظه , فانه مهما تباطا في سيره فانه سرعان ما الفى جسده متوقف في ممرها المظلم, ثم وصولا انسيابي نحو المكتب الصغير. و لم يكن من السهل عليه ان يقطع كل تلك الخطوات , بل ان المسير بين جدران البناية التي توشك ان تبتلعه قد رسم على محياه منظر الاموات

الذين غادرو الحياة متعجلين , ولن تبارح وجهه تلك النظرة حتى مغادرته البناية .

في البيت الصغير دار الحديث الذي يدور كل صباح قبل ان تنطلق نبراس نحو عملها . مثل شريط مسجل قديم يكرر كل يوم .

قالت نبراس بملامحها السمراء الجدية : عليك التوقف عن التحكم في كل شيء, انهما يدوران في علاقة ميتة , الا تدركين ذألك بحق الرب !!

اجابت السيدة لبيبة بغير مبالاة :انك تتفوهين بالترهات منذ دخولك الجامعة غريبة الاسم . ثم اكملت ارتشاف كوب الشاي .

اجابت نبراس وقد امتعض لونها :علم النفس . هذا اسمه , ثم حقا هذا كل ما تقولين , انهما كلا في عالمه , حتى الاعمى يبصر هذا الشيء .

في وقتنا لم نكن نتفوه بالكثير , قبل الزواج نكون فتيات مطيعات , وبعده زوجات صالحات نلتزم الصمت ونمارس اعمالنا .

قالت نبراس وقد حملت حقيبتها وكانت على وشك المغادرة :

حسنا امي , اليك حقيقة الامر , الوقت مختلف , النساء مختلفات , والرجال كذألك .فلم نعد نحيا في وقتك كما ترين .

أجابت الام :

كل ما يخرج من فمك هو الهراء , لو سمعك احدهما لاعتقد بوجود خلل ما .

كانت السيدة لبيبة تدرك حقيقة الامر في عمقها , واغضبها ادراك الابنة لتلك الحقيقة ايضا .وكان كبريائها يحول بينها وبين الاعتراف بهذا الشيء .وطبيعتها تمنعها من امعان التوغل في هذه المشكلات شديدة التفاهة . فهي مصممة على ان تتجاهل كل ما قيل , وكأن شيء لم يكن من هذا الحديث . كما انها قد اعتادت رؤية الكثير من الزيجات تسير على هذا

الوضع الى الممات . كانت الام لبيبة في عقدها السادس , وهي ارملة الحاج نعمان الذي توفى قبل عشرة اعوام جراء فشل كلوي مفاجئ . وكان كل من يبصر بشرتها الوردية المتوهجة وجديلتيها الرماديتين الطويلتين وعينيها المتلألئتان بسوادهما الداكن , يحزر انها كانت على قدر وافر من الجمال لازالت تحتفظ بشيء منه . نوع من الجمال اللطيف ممزوجا ببشاشة وحيوية . وكانت تؤمن انها كما يجب ان تكون عليه كل نساء البشرية الحمقاء , ما سبقتها وما تليها ابدا ما بقي الدهر من زمان .

عند التاسعة والنصف صرحت معدة أيار بالجوع . مدفوعا بهاجس الطعام ترك المقعد الجلدي الدوار. قاطعا الشارع الذي يحاذي البناية الصغيرة نحو الكافتيريا في الجهة المقابلة . جلس قبالة الشارع حول طاولة صغيرة بكرسي واحد .و كسر صيامه الصباحي , حيث تناول اومليت البيض مع اللحم والخضروات .كان يأكل بشهية لا توحي انه ذات الكائن الصباحي الكدر . ببطء يراقب المارة , او شاخصا بصره نحو السماء المكفهرة بالغيوم الداكنة . تراءت له الوجوه وهي متربة كما السماء , كئيبة كيومه الشؤم .وما ان خطرت على ذهنه دفعة الافكار , حتى تعمقت في ذاته الكأبة , و تجردت براعمه من كل قدراتها الذوقية , واحس بطعم الغبار وهو يملئ فمه ورئتيه , ويجتاح بعنف مقلتيه . بل اصبح هو نفسه كائن من الغبار. فصل الماء عن تركيبته الطينية , وارجع المادة الى حقيقتها الاولى , غبار غير ذا قيمة وروح مشتتة تتوق للفرار .

انثال الغبار بموجة واحدة . كموجة بحر ثائر, مد وجزر. وتصاعدت ذراته الدقيقة , كإعصار سماوي غاضب , يشق صدر السماء العالية , ويمزق بعنف حجبها الالهية . منشئا مظلة وهمية , او قبة ترابية صفراء عالية .وهي تحمل بين طياتها اوراق صغيرة واكياس وعلب بلاستك فارغة . وشرع يفترس بذراته كل عين , و كل انف , كوحش ترابي هائج يأبى ان يكبح جماحه .

تائها في نفسه , في حديث حر يطرح التساؤلات .يبحث في عتمات ذهنه عن لمحة خاطفة . خلف الغشاوة التي تغلف عينيه , وتمنعه من ابصار العالم على حقيقته . ينطلق نحو نقطة نشؤه .لكن ما من مجيب في محاورة الطرف الواحد , فقط تردد دائم لصداه . ثم ينظر خلال النافذة , صوب الغبار الذي يعلو وينخفض ويدور في دوامة .والغيوم الرمادية والسوداء وهي تتحرك متلاصقة , مثل سفينة تمخر عباب البحر الاصفر, وتخترق تناسق الضباب الشديد .والصور الواهنة التي تتكون في العراء , ثم تتلاشى وتحضر بعدها صور اخرى .والشمس التي تختفي خلف المزن السوداء العالية . والساحة القاحلة التي تتبدى امام مرماه .والشجرة العملاقة التي تتوسط الارض المقفرة , قطعة دخيلة على المنظر الصحراوي , المنظر الذي سينفلت من حدود بصره , ويعلق في ذهنه , لحظة التفاته التلقائي نحو الممر, مستجيبا لصوت ضحكات زملائه في غرفة المدير القريبة .

سيتردد قليلا بينه وبين نفسه , بين ان ينهض ويحرر جسده من الكرسي الناعم الذي يغريه بملمسه , وقد اطلق مجسات شعريه طوقت اعصابه , وطوعت حبله الشوكي .وبين ان يبقى مستغرقا في المنظر الذي كان يصب تركيزه عليه , خلال النافذة التي تطوق حدوده .والكرسي الذي يخدر اطرافه بطراوته .

ينجح في النهاية في اطلاق حذائه الجلدي الجديد , ويقطع الممر الى جهة اليمين ويندمج مع الحشد . المدير يتربع على عرشه الدوار . يبتسم بفم عريض , يكشف عن اسنان بيضاء مثل طلاء رديء , اسنان صناعية مغروزة بعناية , مثبته بمسامير بلاتينية خلال لثته الوردية , ولحيته الخفيفة التي لا تتجاوز حدها المرسوم بالليزر . وبينما تجانس جسده مع بقية الاشخاص , عاد له الاحساس بانه حي , قادر على التعايش مع اقرانه من الاحياء , يأكلون ينامون ويمارسون هواياتهم ويحضنون هواتفهم ,

يعيشون دورة حياة كاملة , في قمة الهرم الغذائي .المفترسات الاشد فتكا على الارض وكائناتها .

سرعان ما دخل في حديث ودي مع حلقة صغيرة , وغرق في ضحكات زميلة فاتنة , فدقق في كحلها المخطوط بعناية , وعطرها الباهض , الذي تعيد رشه كل ساعة بنية جذب ذكر مناسب .وقبض على هذه الصورة , وربطها بملاحظات اخرى , وكون منها فكرة , واثبت لنفسه انه كائن مفكر , ينجح في ملاحظة الاحداث التي لا تخصه , ومراقبة افعال لا تمت له بصلة , ويخفق اخفاق عجيب في ادراك ذاته .

عند الثانية ظهرا , كان قد اكتفى من السجلات الورقية , واعلن لنفسه انتهاء عمله لهذا اليوم . وكان عليه ان يمط قدميه , ويحرك جذعه المتصلب من الجلوس , في نية تبديد الوقت الباقي لحين الانصراف .نصف ساعة تفصله عن مغادرة المبنى . ولم يكن من شاغل يشغله سوى ترك المكان و لقاء صديقه المقرب , وهو الوحيد الذي باستطاعته ربما اخراجه من جو الكمد . و بينما كانت الغيوم تتكاثف خارجا مثل سلسلة جبلية مترابطة والشمس تخبو كل حين , كان قد قرر قضاء اليوم خارجا حتى حلول الظلام . وهو ليس بالشيء الجديد فغالبا ما كان يمضي معظم ايامه هكذا .

انقضى الوقت . قتل دقائقه الباقية , طعنه بحراب التفكير العميق بأشياء شتى ليس لزاما علينا ذكرها . بل جل ما يعنينا انه لم يعد يعنيه مكتبه الكئيب , واقلامه الزرقاء على كثرتها . ترك اقدامه تنطلق , تعجل في مغادرة المكان . يترك العمل في العمل , الزميلة والمدير وعلاقتهما السرية المعلنة , والهمسات الكتومة الواضحة .يحرر ذهنه ويطلق عنان الانسان الذي يسكنه . الغريب الذي يعرفه , له صله بالإنسان القديم الذي قاتل من اجل البقاء , صارع الوحوش كي يدوم نسله . بقية صغيرة عالقة في كينونته الكامنة , تحفظ بني جنسه من الانقراض . تمنعه من

التحول الى نموذج بشري دون مشاعر ورغبات . نتفة ضئيلة تعلقه بحبائلها , وتجعله متماسك .

كان يسير دون احساس يجري في جسد. يخفق فؤاده باستمرار بنبض منتظم , دون ارادة على العضلات وهي تستلم ايعازها العصبي المتمثل بالحركة. والعقل الصاخب وهو يفرزن الاوامر ويبعث ردها المناسب . وكان يخال نفسه الة مبرمجة على الاتيان بعمل محدد وتواقيت معلومة , دون قدرة على تفكيك الشفرة , او احداث ثغرة للفصل بين ما هو مرغوب وما عداه . سار فوق الرصيف وهو شارد الذهن , بل كان ذهنه منفصل عن الجسد . يتبختر بهدوء فريد , غير منصت لأي صوت سوى ذاته وهي تصرخ بصوت مكتوم . وهو مدرك لوزنه الضئيل بين المليارات من البشر, الذين لن يضيف وجودهم من شيء الى الحياة , كما ان فقدانهم لن يخل باي توازن بل ربما سيسهم في التقليل من استهلالك الارض .وان ليس فيه ما يميزه عن غيره , فلا يجيد نوع من الفنون , ولم يأتي بمفاهيم جديدة الى الحياة , فكل ما يمكن ان يقال سبق وقيل من قبل الفلاسفة تاركين التساؤلات لكثير من البشر.

احس بأول القطرات الباردة وهي تبلل بشرته , لكنه لم يبالي . لم يكن حتما ليسرع خطاه البطيئة , حتى لو اخرجت الغيوم كل ما في جوفها من مطر , لو قذفت كل مائها المنهمر , وصبت شلالات متدفقة , لا شيء سيكسر عزمه. بل استمر بوتيرة واحدة وانفاس مستقرة . ابتاع مظلة رديئة من بائع المظلات الواقف فوق الرصيف , مكملا مسيره بنظرات خاطفة نحو هذا وذاك .

يتوزع الباعة العشوائيين فوق الرصيف , كقطع مبعثرة فوق طاولة خشبية . منهم بائع السمك الطازج , الذي يحتمي بشاحنته . مضخة الماء تضخ ماء قذر في حوض البلاستك الذي يشغل حيز السيارة الخلفي المكشوف. الاسماك متوسطة الحجم تقفز في تجربة استثنائية للزعانف

الصغيرة , وعرض تشويقي للجسم الانسيابي . عرض مسرحي مغري , بانتظار المشتري الذي سيختارها وتصبح وليمته . تعثر في حجر وهو ينظر نحو السمك القافز , سمك طائر ربما . لعن البائع بنظره حاقدة , واكمل مسيره , متجاهلا بائع الخضروات الشاب الذي يصدح صوته بأسعار خيالية , سرعان ما يكتشف المشترون انها اكذوبة .

من بعيد ظهرت البيوت امام عينيه بصف واحد متواصل ,.البنايات الحائرة بمنظرها الترابي , كأنها خربشات طفل لازال في طور مسك القلم .و سماء صيف حزين , بخيوطها الصفراء والرمادية . وشيء من العتمة من غيوم سوداء متفرقة . حتى خلا بنفسه تحت قطرات مطر منقطع , تصطدم مع سقف المظلة البلاستيكي , ثم تسقط ارضا .

تنفس المطر في عروقه , وضم السماء الى روحه , وصولا الى غابة الروح المظلمة , محاولا اقتلاع جذور ذألك الاحساس الدفين الذي يقتحم عالمه , مهدد كل معاني الوجود , باحثا عن شكل اشجارها الرعناء , ونوع الجذور التي تثبته فيها , هو يتخيله بحجم ضئيل بالغ الصغر, بأوراقها السوداء وبراعمها القرمزية . محتمل وجودها في أي مكان او زمان , متخطية كل معاني الابعاد المدركة داخل العقل , منفلتة نحو الفراغ المتطرف .

وقع افكاره الثقيل يئن عميقا قرب اذنيه . يتراءى له كصوت مسموع لكل البشر . تجبره مخاوفه على التلفت وقراءة وجوه المارة , كي تطمئن سريرته ان لا صوت من افكاره قد انفلت . الضوء الواهن من شمس مختبئة , ملاء الاثير . متكاتفة هي الغيوم فوق بشر يقطعون الخطى منفردين . بعيدا عن مركز الارض وجاذبيتها , ازداد في داخله حضور الكأبة كشعور حتمي لهذا اليوم , شعور عميق يثير الشكوك وتنفعل معه العاطفة . تساءل هل يا ترى نصيبه من هذا العالم التعس وحده ان يحمل هم الوجود ككرة زجاجية رقيقة , وان أي حركة خارج حدود المألوف كفيلة بان تثير الشقوق , وان تلك الشقوق ومهما كانت

صغيره وغير ملحوظه , فأنها تثير حفيظته , فاذا ما ازدادت , ستتهشم , سيتفتت معها العالم الهش بكل مفاهيمها.

هكذا اذن تتسلل الهوامش من الحياة كطفيلي يقتات على آلامه , يتغلغل الى اعماقه بين الجزيئات الدقيقة . مثيرة صدوع غير مرئية تجعل العالم اكثر ركاكة . مفككة اياه الى اجزاء غريبة , لا تمت لبعضها البعض باي صلة معروفة . يتدفق خلاله ذألك الشعور الموجع . يخترق اوردته ويخالط دمائه , يتساءل هل من الممكن ان يلمسه ؟ ككيان مادي محسوس , من صنف الرخويات اللزجة , او شيء اكثر حضور كخلية سرطانية مستفحلة تنخر كل اجزاء البدن المادي .

بعد مضي وقت ما ليس بذا اهمية من اليوم كان قد وصل نحو نقطة الملتقى .وهناك وجد جلال يجلس مستسلما لأنفاس السيجارة بين اصابعه . القهوة القديمة في بداية السوق , فوق الرصيف المتأكل دون بناء. الكراسي والطاولات في العراء , ومظلة صفراء كبيرة من البلاستك , تغطي المكان العشوائي وتقي مرتاديه من المطر . واعمدة خشبية سميكة تسند المظلة .

قال جلال بابتسامة فاترة :

انت مبلل يا رجل الميلاد .

تنحى الى الخلف تاركا فسحة في الكنبة الخشبية ثم اكمل :

انت احمق حقيقي , ليس عليك ان تضيف تراجيدية مفرطة ليومك . فلتعامله كغيره من ايام السنة .تصرف كانه يوم عادي .اعتقد انك ملعون بالسوداوية , او سوء الحظ , وازدت تعاسة منذ الزواج . الا تذكر !اخبرتك ان تعزف عن هذا القرار .

انت تعرف ان شعور المرء لا ارادي ,. انه احساس يكتنفني كل ميلاد .

صديقي ايها التشاؤمي كل البشر تعساء .

توقف عن الهراء , دعنا نشرب الشاي .

دعنا نترك الكلمات , ونحتسي طعم الواقع وهو يثور في جوفنا , انظر السماء سوداء داكنة , الصباح مغيب , الموت ولادة , كل شيء عبثي .

تدخل العجوز الهزيل بعظامه البارزة ولحيته البيضاء وهو يجلس فوق كرسي قريب :

هراء الشباب ! اوليس كذألك ؟ هراء , هراء , غضبك الدائم , شجارك الصغير مع المدير السخيف هراء , مشاكلك العائلية العالقة هراء اخر ,اعتادا الامر وسرعان ما تعتادان طبيعة الحياة . مؤسف ادراك المرء ان الوطن خاض المخاض العسير من اجل هذه الاجيال , كي نقف عند هذه النقطة الزلقة , اتشاهدون ؟

(ملوحا بقدمه الصناعية) ؟ هذه القدم المفقودة , دليل حي على ما قدمت من تضحيات , وها انا اجلس دون عمل دون مال احتسي كوب من الشاي متمنيا كل مرة ان يكون الاخير .

جلسا متجاورين على الاريكة الخشبية , يلعبان الطاولي .خسر ايار مرارا , سئم وانسحب من اللعبة . اكتفيا بعدها بمراقبة السيدات . يتصنعان الا مبالاة عند مرور سيدة جميلة , لكنهما يفشلان في كبح نظراتهما النهمة , ويتأملان بدقة تفاصيلها الصغيرة مهما خطفت مسرعة .يتشبثان بخيال باق وذكرى , ثم يحولان انظارهما نحو سيدة اخرى .

كان جلال يدخن بشراهة العجوز السبعيني , الذي فقد ساقه في نهاية الحرب , وجلس متكأ على عكازه الخشبي . شربا اعداد لا تحصى من اكواب الشاي دون طعم , فقط سائل دافئ ينزل في جوفهما , مخلفا مرارة اوراق يابسة . وراقبا عدد من الوجوه وهي تخطف كل حين , والاجساد

وهي محنية محدودبة الظهر , منحنيين للأسفل تشدهم مرساة سفينة رست في الميناء منذ اعوام مئوية . ارتطام الاجسام وارتدادها ككرات مطاطية سائبة , وهم يسيرون في طريق العمى , والذهن يبدو شارد في غفوة ابدية . هل من الممكن ان ينفلت واحدا من بين الجموع ؟ سيرسل حتما الى مصحة وستنزل الى معدته المهلوسات , فحتما من يثير السؤال هو شخص مجنون مكانه المصحة . ففي هذه المدينة قوانين مرتبة ومنسقة , وليس على افرادها الشروع في التفكير فهناك من ينوب عنهم .ليسوا سوى دمى تعيش وتتكاثر في منزل الدمى المتهالك , ومما لا شك فيه ان أي خروج على المألوف , سيحدث صدعا في النظام الدقيق لعالم الاصنام . وربما لو كان الامر عائد لجلال , لشرب قناني الخمر, ووصل اقصى حدود الثمالة , والقى اشعاره حتى انتصاف الليل . ولكنهما اكتفيا بتناول العشاء في مطعم صغير متواري بين ازقة السوق الضيقة وتبادلا احاديث عابرة من اجل قتل للوقت .

عاد تحت سماء الليل . الهياكل الميتة للمنازل الاسمنتية الشاخصة , كانت شاهدة على عودته كل يوم .متقهقرا نحو ملاذه الصغير .رشق المطر النازل بلل الازقة . الوحل الكثيف مد قوائمه و اذرعه حول الحي , حوله الى متاهة طينية من العصر الطباشيري .

يسيطر الوحل بقوامه المائع على شوارع المدينة المظلمة . سواد ارضي موازي للسواد السماوي . عالمان متوازيان , امتداد لوني اصيل , كل ما عداه تافه , شديد السخافة .الكائنات الصغيرة هامدة , في حالة من موت مؤقت , ورحلة نحو ارض الاحلام . الضفادع تنق وتقفز عاليا , ويرتفع صوت الجداجد . الرياح تهب تحمل بقية من اوراق بنية يابسة .الاحشاش الداكنة تنفست مليء خضارها . غاصت قدماه في الطين , اتسخ الحذاء الجلدي وضاع لونه حتى صار حذاء طيني قديم . اتسخت اطراف بنطاله القطني . الظلام يركض بين الازقة , الظلال تترامى فوق

الجدران العالية , النور والظلام يتصارعان في سماء تلك الليلة , لكنه ليل للرقاد , سيمحى كل ما عداه ويمضي كعادته , وكأنه يوما ما كان .

عيد ميلاده الثلاثون . فكر وهو يغير ثيابه . ابناءه ثلاثة , من المحتمل ان يصبحوا اكثر ربما خمس او ست , لا يعلم ليس هناك من تفاهمات مشتركة حول الاطفال , هذه احد الحقائق التي فكر فيها مطولا وهو يغتسل تحت رشق الماء مغمض العينين . لن يستطيع ان يفلت بسهولة من اعماقه , من لسانه الاخر الناطق بصوت مرتفع لكن غير مسموع . هل هو سعيد ؟ هل شعوره الحالي واهي ؟ الخمول الذي يعيشه طوال اعوام هل سيتبدد! الجمود الذي يخيم على اسلوب حياته منذ التحاقه بالوظيفة .

هو يشبه غيره من الرجال لكنه قطعا لا يشبه نفسه . يتزوج يصبح اب . قريبا سيصاب بأحد الامراض الشائعة التي تصيب اقرانه , التهاب المفاصل , تكلس العظام , صداع نصفي , انزلاق غضروفي , ارتفاع ضغط الدم , ايا كانت المسميات المستخدمة , سينفق ماله في محاولة للشفاه وسيشكي لغيره كل اوجاعه , وسيضيف اليها اوجاع متخيلة وصفها له اخرون الى ان يموت . ربما لن يتاح له الوقت كي يهرم , فليس لديه الصبر الكافي للوصول الى سن الشيخوخة . سيل جارف يحمل افكاره , يبست شفتاه , واحس بالظمأ من سوداوية الافكار , تمنى حمل مجرفة وغرف كومة افكاره نحو فوهة ابدية يغلقها فلا تفتح قط .لكن الامر ليس بتلك الصورة التي يأملها , امانيه ليست سوى امنيات , مثل بالون هواء ينفخ ويرتفع ثم يتفرقع . حياته التافهة شديدة التعقيد , منسوجة بشبكة عنكبوتية لا يمكن ان يفلت منها . محاط بدائرة حمراء في جدار الاشخاص العاديين , ما يميزه فعلا , هو جراءة افكاره الغير منطوقة . لكنه مهما يكن سيحافظ على نسق اعتياديته وترتيبها مهما بلغت تعاسته .

بعد انتهائه من الاستحمام وتغيير ثيابه انضم للعائلة في تجمعها المعهود في الصالة .

السيدة لبيبة تقول وهي تنظر بعينين اوهن العمر وجدتهما :

تأخرت .

اجاب ببروده الاعتيادي وهو يطالع الهاتف :

كنت مدعو الى عشاء .

قالت نبراس بنبرة هازئة :

اعدميه ! انت امه , حملته تسع شهور وعشرة ايام , لك حق ان تسلبيه الحياة .

ايار لا يكترث , ان أي من هذا الهراء لا يعنيه . ترك الهاتف وانتقل نحو تناول البرتقال , يجلس بجوار والدته , تقشر البرتقال وتقدمه له .

السيدة لبيبة تجيب :

ظننتك لن تصبحي اسواء , لكن ها انت ذا تثبتين انك غير متوقعة .

الطفل الصغير يبكي في حضن امه , الاوسط يغفو في حجر نبراس , الاكبر يمص البرتقال ويقضم قشره , جميلة تحمل الصغير وتتجه نحو المطبخ , تحضر الحليب ثم تعود لترضعه .

نبراس تستأنف حديثها :

اعذرنا اخي لم نحضر لك الكعكة , ان شخص مثلك عكر المزاج لن يكترث للكعكة على اية حال .

ايار يكتفي بألقاء نظرة , يلتقط حبة موز ويقشرها , يضع راسه في حجر امه كطفل صغير ويستمتع بطعم الموز. الطفل الاكبر يفعل مثل والده يحمل الموزة ويحاول تقشيرها . يعصرها بكلتا يديه ويدهن بها وجهه , يباغته النعاس يلجا للبكاء يدعك عينيه ويثور .

ايار يبدو عليه الملل :

اسكتيه .

نبراس تجيب :

انه ابنك حبذا لو تسكته , تحمله , تقبله , تفعل اشياء غير معهودة .

ايار ينهض يغادر الصالة , يتأفف :

لا يستطيع الرجل ان يحظى بالسكينة في هذا البيت !

تنسحب نبراس وهي تحمل الاوسط , وتضعه في فراشه ثم تعود من اجل الاكبر. جميلة تنهد الصغير وتسكنه . تهمس بنعومة بتنهيدة , وتعيدها على مسامعه . انها بعيدة عن كل ما يدور حولها , تتشرنق داخل معتركها الخاص . تحتجب خلف اسوار كثيفة , اسوار منيعة اشد صلابة من اسواره , تحول بينها وبين ان تكون هي ذاتها . في جزء صغير تهمس الافكار , تتراكم من اجل خلق ثورة . تبحث عن فجوة ضيقة تندس خلالها , الا ان خير ما تفعله أمرأه بديعة الحسن مثلها ان تتظاهر بالغباء , حتى لا تحول افكارها دون ادراك حسنها الاخاذ ,.وفي غضون المناقشة التي دارت في المساء , كانت قد تمسكت بصمت رزين , وبدت بهيئة الانسان الجاهل متظاهرة ان أي مما يجري لا يخصها .

في وقت غير معلوم من ساعات الليل , بعد ان سكنت اصوات الكائنات منصتتا لأزيز الريح , وهي تصرخ كوحش ليلي جائع , يقتات على احلام النائمين , ويضطهد ليل الساهدين.

كان أيار يرقد في سريره , لف جسده باللحاف القطني , بعد احساس مفاجأ من برد مهزوم . احس ان للرياح ذراع وهمية ضمته اليها واطبقت قبضتها حول جراحه العدمية . خالقا الوهم من رحم الاحلام , الاحلام التي لا تتحقق , والتي نتخيلها وقت اليقظة قبل ان نخلد الى النوم , ولوجا نحو الغابة المظلمة . تتردد الخيالات كلوحات مرسومة معلقة الى اطراف السماء , ككيان واحد امتداد اخر للأوهام .

اما جميلة فلا تزال تتوسد الارض في الصالة المظلمة , الهاتف يضيء كل حين منيرا وجهها الجميل , و بآنين صامت لا يفقد الصالة توازنها المعتاد . والمروحة تدور بصوت خافت مثل طنين نحل في الخلية . لم تكن تفكر في الوقت المهزوم بين يديها , فليست الايام سوى اسماء , وليس الوقت سوى خرافة الحياة . لا حاجة لها او لمن هي مثلها , للفصل بين الايام او الشهور , او استخلاص مفاهيم الاشياء , فشعور الوقت مرتبك , ما بين الطفولة والمراهقة والشباب , لا ذكرى للفاصل الزمني بينهم , بل منحدر انسيابي سار وتزحلق منذ نقطة الانطلاق . سيتحتم علينا ان نعود

بالزمن انطلاقا من تلك النقطة التي تسمى الميلاد . وسنتظاهر بانكماش الوقت داخل اذهاننا , استيضاحا للصورة .

الفصل الثاني

انتشر نور الصباح .وظهرت سماء مزينة بسحب بيضاء ناصعة , وهبت رياح عاصفة , شديدة البرودة .تضرب بتياراتها نحو الفضاء المفتوح للبيت الكبير, الجزء المسمى (الحوش) فالريح تسرح دون ما يوقفها . فراغه خالي ومترع بالرطوبة , وارضه الاسمنتية الخشنة عارية جرداء في الايام الباردة . وابواب الغرف الخشبية مغلقة , وكذألك النوافذ المزخرفة يدويا والمطلة على حوش البيت مغلقة بأحكام . السلم الاسمنتي بدرجاته العالية والعديدة والتي اعتادت لواحظ عدها مرارا صعودا ونزولا , مبني بشكل ضيق ومحشور بين الغرف , وصولا نحو السطح المفتوح بدرابزين حديدي يلتف حول سطح المنزل بشكل مستطيل , تاركا فسحة كبيرة للفضاء كي يسطع , والنجوم كي تلمع والشمس كي تضيء . ومنذ الفجر القارص ليوم من ايام يناير , كانت لواحظ قد استشعرت اول انقباضات الرحم . انقباضات منتظمة , متباعدة , وضعيفة , مؤكد في حدسها

الانثوي الذي يخبرها به جسدها النحيل , انها ليلا ستضع الوليد أيا يكن جنسه .

لواحظ بأعوامها الخامسة والعشرون زمت شفتيها الرفيعتين, واخفت الألم , فكانت معتادة على الآلام الجسدية أيا يكن نوعها ومكانها , تبلعها كما يبلع المريض شريط المسكنات . اعتادت ايداعه عميقا بين اللحم والعظام , وتناسيه مع الايام .

كان قد مضى اربعة اعوام منذ ولادة لواحظ تؤامها الذكور, اللذان لا يزالان يغطان في النوم , في غرفة اخرى مع ابناء اخيها الاصغر الذي يسكن مع والديه , ويعتني بهما في شيخوختهما . ولا تعلم الان انها تحمل انثى بين احشائها , وانها توشك على ولادة جسد اخر ليشاركها الصعاب. ك

ان الصباح هادئ في منزل العائلة القديم , ففي الغرفة الكبيرة حيث مضى الجدان الشطر الاكبر من حياتهما الزوجية , انسابت خيوط مضيئة من شمس الشتاء , من الفسحة تحت الباب , وهي فسحة لا باس بها , تتيح دخول مقدار جيد من الضوء وتيارات الهواء , . وصولا نحو صينية الفطور التي عكست الضوء وشتت اعمدة منعكسة من الاشعة على جدران الغرفة عديمة اللون وازيحت الستارة السميكة عن النافذة الصغيرة سامحة لأكبر قدر من الضياء كي ينير الغرفة .

فوق السرير الحديدي يجلس الحاج عارف , وهو مستند الى وسائد حمراء قطنية , ويضع غطاء صوفي سميك , يلتف فوق اكتافه المنكمشة , والتي كانت في يوما ما تسند رجلا عظيم البنية حكيم العقل بليغ اللسان . وكان من الهرم انه غير قادر على تحريك جزء واحد من بدنه دون مساعدة يقدمها له احد احفاده الذين يعتنون به طوال الليل والنهار, بل

ان احدهم ينام ارضا قرب سريره حتى يسمع اقل آنين او همسة تنطلق من بين شفاهه , حتى بلع ريقه يكلفه جهد يعرفه , والنفس الذي يجاهد في التدفق خلال رئتيه اللتان شهدتا على لفائف الدخان التي كان يحضرها بنفسه طاويا الورق الابيض واضعا داخله التبغ من كيسا قطني صغير ثم يلصق طرفه الورقة بطرف لسانه باللعاب ثم يحشر تلك اللفافة بين شفتيه الغليظتين . ولم يحفظ له الوقت من شيء في كهولته سوى صوته الاجش , الصادر عن احتكاك عنيف بين حباله الصوتية مثل تلاحم سكاكين .وتفاحة ادم البارزة من بلعومه كأنها تركيب مكور صلب , مع جزء ناتئ مغطى بطبقه خفيفة من جلد اسمر. تتحرك منتفضة اثناء السعال والكلام , وتبدو كأنها على وشك الانطلاق من بلعومه تاركة خلفها ثغرة.

و كان للحاج عارف خمسة ابناء ذكور , وخمسة اناث , وكانت لواحظ اصغرهن عمرا , واقلهن حظا .فكان لها نصيب متواضع من الذكاء والجمال , وكانت تتميز ببشرتها البيضاء الناصعة , بيضاء الى حد تشبيهها بشبح . تزوجت احد ابناء عمومتها , ايوب الميكانيكي , زواج عادي لم تكن خلفه أي قصة او مشاعر . ايوب الذي يكبرها بخمسة عشر عام كاملة دون ان ينقص منها شهر , ولم تنجب له اطفال الى حين بلوغها الواحد والعشرين , وكانا قد تزوجا منذ بلوغها الرابعة عشر وهي بذألك كانت اكثر اخواتها دلالا , فقد تزوجت اخواتها الاخريات عند بلوغهن الثانية عشر ربيعا .

الاخت الكبرى فاطمة حضرت منذ عصر اليوم السابق , وستقوم باتخاذ دور القابلة , قالت وكلها ثقة بما تقول :

على الارجح ستلد ليلا

اكدت الام الكبيرة مطرقتا بالرأس :

بالفعل يبدو كذألك .

عسى ان تجري بيسر .

لم تتدخل لواحظ في الحديث الذي يدور حولها بل استمرت في شرب الشاي وبدا ان ذهنها شارد في مكان اخر .

علينا تدفئة الغرفة جيدا , تحضيرا للولادة .

سأضع المدفأة منذ الان , على الارجح سأستدعي العمة عاتكة لديها الكثير من الخبرة

خيرا ما تفعلين .

بذات الهدوء انقضى النهار . السيدات مستغرقات في احاديثهن السرية , وتحضيرات الولادة , وتدفئة الغرفة . لواحظ تنفذ توصيات العمة عاتكة , تسير جيئة وذهاب في الغرفة الضيقة . الاولاد يلهون في ارض الحوش دون ان يلحظوا برد الشتاء. ومع مغيب الشمس , وانطفاء اخر شعلة من وهجها الاحمر , ارتفع لهب اللمبات والفوانيس النفطية بغطائها الزجاجي . و ازدادت تقلصات المخاض . وبعد ان اشتد برد المساء , وقبل ان ينتصف الليل بساعات , شرعت الاجساد الثرية للنساء الثلاث تتحرك رزينة في الظلام . والظلال تنعكس وتبدو اشباح مرسومة فوق الجدار , في ضوء الغرفة الخافت , ولم يسمع من الغرفة سوى الهمسات .

انزلق الجنين بخفة من بين السوائل والعظام محررا نفسه . حملته العمة عاتكة بين يديها العريضتين . وادركت حينها جنسه .فاطلق الوليد صرخة كانت من العلو ان وضعت حدا للصمت السائد . كأنها تنتفض لخروجها من القوقعة اللحمية الدافئة.

لقفتها يد فاطمة ومسحت عن جسدها الدماء بقطعة قطنية مغموسة بماء دافئ , سارت بها فوق كل جزء من جسدها .والبستها ثيابا بيضاء , واحكمت ربطها بالقماط الابيض . بعد ذألك قربت الفانوس النفطي وهي تحمله من مقبضه الحديدي الرفيع , فتسلط النور الضئيل فوق بشرتها , وكشف وجهها عن قسمه من الاخاديد قرب عينيها وحول شفتيها . وكشف وجه الطفلة عن مسحة الجمال الشاعري التي القيت عليها , ووسمتها بذألك الاسم كتعويذة , نوع غامض من السحر يجبر الناظر على التطلع مطولا نحو ذألك الوجه الدائري كتحديق جامد نحو بدر مكتمل . واخراج سر كامن من خلف عينيها الناعستين بأهدابهما السوداء الكثيفة كثافة سعف النخيل .

وكانت لواحظ قد وصلت حد الاعياء وتكونت تحتها بركة من دم احمر لزج مستمر بالتدفق دون انقطاع . بقعة قانية يتسلط فوقها الظلام .وانتشرت رائحة الدماء الثقيلة . وتكالبت فوق جسدها برودة الشتاء ورطوبة الحجرة والآم الطلق التي تركت جسدها في اقصى درجات التعب . ولفرط ما فقدت من دماء فأنها ما ان ارضعت الطفلة حتى اغمضت جفنيها وشرعت تنطق بهذيان متمتمه بكلمات غريبة وغير مترابطة . وارتفعت حرارة جسدها في حمى النفاس . وقامت فاطمة بتدثيرها بالأغطية السميكة وتحسس حرارة جبينها حتى انبلاج الاضواء .

وكانت السيدات اللاتي اجتمعن للعناية بها في ايام النفاس , يقضين معظم لياليهن الشتوية الطويلة حول المدفأة , يقصصن تجاربهن التي تركت في نفوسهن عظيم الاثر , وانطبعت عميقا في الذاكرة ويتناوبن في العناية بها والنوم .وكانت لواحظ قد اختبرت حمى شديدة على مدار

خمسة عشر يوم , وفقدت دماء كثيرة في نزف متواصل طبع اثره حول الشراشف القطنية , التي بدلت وتم غسلها مرارا كل يوم , حتى بهت لونها وتحولت الى الوان اخرى . وكانت النسوة يحسنن العناية بالرضيعة ويضعنها بين ايديهن المنمشة , ويرددن على مسامعها تهويدات قديمة قد تناقلت شفويا اجيال تلو اجيال .

انطلاقا من الغرفة وهي محمولة بين احضان الاناث . عارية بيضاء رقيقة . وفي الظلام انطلقت نوبات الصياح . وخلال الضوء الواهن للمصباح المحمول , تطلعت اليها لواحظ بتحديق صامت وافكار محتشدة . وقد ظهر عليها شحوب الولادة , فازدادت هالاتها الداكنة وضوحا , وظهرت تجاعيد صغيرة قربها , وبرزت كرعب معلق فوق وجهها الصغير الشاحب , اثبتت نظرية الاشباح القديمة . اطلقت عندها زفرة عالية , مخنوقة منذ الصباح الباكر في قفصها الصدري .

الان قد خرج الحمل الى هذا العالم . حرر جسدها الهزيل جنينه , قطع حبل المشيمة , حبل الوصال بين بشريين , روحيين قد حضرا في جسد . هي تعرف هذا الاحساس وتلعنه , تحت قبة العالم المقيت واوثانه , ونظرته الموحشة نحو جنس النساء . هي تدرك ان عليها ان تقاوم , لا لشيء سوى لكونها انثى , عليها اثبات احقيتها في كل شيء في الحياة .

فشلت لواحظ حتما في خوض الحرب , سقطت مهزومة مع اول ضربة , استقبلها جسدها بعد سبعة ايام من الزفاف . و منذ يومها وهي مستمرة في التقهقر والانسحاب , كف بعد كف , حتى البدن الضعيف , لم يعد يعنيه أي من الضربات . الان اصبح لها شريك .ستعتاد الطفلة منذ اعوامها الاولى على مزاج الاب الحاد .بعكس لواحظ التي خرجت من منزل ابيها دون ان تذق طعم الاذلال , فمهما ارتفعت ضوضاء المنزل , كانت

النساء يجلسن في غرفة مغلقة , لا صوت يعلو على اصوات الرجال , ولا مشاركة لامرأة في حديثهم .

وضعت الصغيرة قربها , في مهد صغير من الخشب العتيق .
وقضيت ليال طويلة محدقة في هالة الوجه البيضاء , تحملها الى حجرها حين , وترضعها حليب ثديها الدافئ حينا آخر, غافية تضمها الى صدرها .وتتناول شتى اصناف الطعام التي لم تكن لتأكلها لو لم تكن مرضعة بنية در الحليب , حتى تنمو بشكل سليم تنفيذا لوصايا الاخوات.

في المدينة تسكن العائلة , في منزل ضيق , دون حديقة , بطابق واحد , وباحة صغيرة , غرفة مظلمة , ومطبخ مشوه الابعاد وصالة , حيث يقضي الاطفال معظم اوقاتهم حتى الرقاد . الاشباح السوداء للأب السكير تحضر كضيف دائم . ظل لصيق بجسده الكبير , وقسماته الصلبة , الرائحة الكريهة و الانفاس المنفرة , لذألك الكائن . الزوجة تلوذ بالصمت والاطفال ساكنين وديعين , والابنة الوحيدة كانت الشخص المختار الذي يصب جام غضبه عليه , الجسد الصغير , الخصل الصفراء المتطايرة , فقد كان ثمل وهو ثمل , وثمل وهو واعي , ثمل من خمر الحياة , الصوت الاجش للرجل المخيف يفترس كل زوايا المنزل المظلم .

الفصل الثالث

تبدد الصيف وانتهى. وماتت ايامه دون ميعاد . وقطع الخريف نصف خطواته . شمس المغيب تخفت و تتراجع الى الخلف قرب السادسة . والهدوء ينزل على الحي الجامد فيغدو مقبرة للأحياء النائمين . انفاس الخريف مترعة بالرائحة . رائحة مختلطة بين التراب ورطوبة الليل , و موت الاوراق اليابسة , وبشرى بمقدم البدايات , او ربما مسير اخرق نحو اسواء النهايات !

الغريب ينتظر في السيارة , في بداية الشارع الرئيسي . يرنو بمقلتيه نحو السماء الصافية , التي جادت بقناديلها البيضاء المضيئة . النجوم

الساطعة تراقب من ذراها البعيدة .الليل اطلق شطآنه وارخى مجاديفه و القمر الوحيد هلال صغير يترقب مع نجومه . الغريب يألف الليل ويعرفه معرفة الصديق .

في الزقاق الهامد , بضعة مصابيح صغيرة , خابية النور .الزقاق الان مظلم .ريح خفيفة تهب كل حين محملة بذرات ناعمة من الغبار . من بعيد لاحت هيئة سوداء. جسم لين يتحرك بخفة في السواد القاتم الذي يحكم الحي , وشرعت في خطوات بطيئة ثم بدأت تسرع . لم يتضح شكلها في لجة الليل , لكنه ايقنها , الطرد الذي يتحتم عليه ايصاله .عندما اصبحت اقرب , ادرك العباءة السوداء التي تلف جسدها , والحقيبة التي تحملها بين يديها . بعض الحلي الذهبية , والنقود , دون اوراق رسمية , وبعض الملابس الضرورية , لا اثقال في السفر . هكذا ارسلت لها الصديقة المجهولة , وهي تبلغها التفاصيل الدقيقة عصر اليوم السابق . هكذا فكرت وهي مضطجعه فوق الارض , تطالع الصغار بوجوههم الرقيقة .

امعنت التحديق , وهي تفكر في الخطوة الجريئة , ثم سرعان ما حضرت الحقيبة والقت بها تحت السلم بين مجموعة من الاغراض القديمة حتى يصعب تميزها . وقبل ان تنطلق ودت لو تلقي بنظرة اخيرة , لكنها لم تغامر بصرير باب الغرفة , وانطلقت بجسد مرتعش قاطعتا الزقاق وصولا للسيارة .

انقشع ظلام الليل . وكانت السيارة قد غادرت قبل ان تنبلج اضواء الصباح ويصدح الديك .جلست بقلب منقبض , فوق الكرسي الجلدي الناعم . رائحة الجلد الطري تنبعث في السيارة وتمتزج مع رائحة المعطر الكارتوني الذي يتأرجح مع اهتزاز المركبة . السيارة البيضاء العالية تسير مسرعة بعجلاتها السوداء , قاطعة امتار الطريق السريع . زجاجها الامامي يلمع بأشعة ذهبية .

كانت تراقب الارض العارية وهي تمر بصورة لحظية ثم سرعان ما تختفي لتحل صورة اخرى محلها . المرآة الجانبية تعكس الطريق المعبد وهو يطوى خلفها دون امل بأي لقاء .لم تكن تعلم الى اين تسير , ربما هاوية , لكنها لم تكن عابئة بأي ما ستؤول اليه الاحوال . الرجل الغريب يجلس متزن بهدوء شديد . صلد مخيف , جامد الملامح. اللحية السوداء الخفيفة مشذبه بدقة . الفم الصغير يبدو انه قد اعتاد الصمت . الانف الطويل , ثم عيني هر تبرق في الظلام . بأعوامها الثانية والعشرون , على الارجح انه القرار الوحيد الذي تأخذه بنفسها . فكرت بالأطفال الذين خلفتهم ورائها , الزوج الذي تفصلها عنه ثغرة اكبر من المسافة بين السماء والارض واكبر مما قطعت من كيلومترات انطلاقا من مشارف الحي حتى تلك النقطة . انتابها الغثيان , عادت بأفكارها نحو الماضي السحيق , اعادت لها صور اجتهدت في سبيل نسيانها .

لواحظ بجسمها النحيل ووجها الذي يزداد يوميا شحوبه . مع الورم الذي ينمو ويزداد حجما في عنق الرحم , ذألك المخلوق الطفيلي الشره يقتات عليها . فكرت ربما انه نوع من عقاب الهي او طريقة للتكفير عن ذنوبها كلها . تتبادل الشتائم مع ايوب وهو يحمل الزجاجة التي تتسللها خيوط شمس الاصيل التي قطعت مسافة شاسعة كي تنشئ تلك الصورة المركبة . تتقهقر لواحظ في الممر القصير , وتغيب الشمس ليحل محلها الظلام ماسحا تلك الصورة . ايوب لايزال يزعق بالسباب , الكلمات تبدو كسهم قاطع يخترق الاذن ويخدشها , اعمق من حدود الجسد يمتد اثر الكلمات .

قال الاب محدقا بعينيه الجاحظتان ووجهه المحمر :

اللعينة الصغيرة سكبت نصف الزجاجة . ابتعتها للتو , البلهاء , ساريك ما انا فاعل , سألقنك درسا عصيا على النسيان .

بالطبع سيفعل ! هي تعرف انه حتما سيفعل .

الحزام البراق يلوح في الهواء , ينطلق هو وظلاله السوداء . يتأرجح متمايلا تأرجح وحشي ممددا نسيج الفضاء , وينزلق ناعما فوق القماش الخفيف بلونه الوردي الذي سرعان ما يتمزق تاركا فتحات طولية تعري الجسد الرقيق وقد تدمى وانتهك . يعلو وينخفض كل حين مستقرا فوق الجسد . نيران بركانية سائلة تسري بين دمائها وتذكيها . تتنفس , تشهق تزفر , وتشعر باستنزاف الهواء . ليل وجلد بالحزام ونباح كلب بعيد . صورة ثابتة تخلق ذاتها كل حين في تكرار ابدي . تهتك طفولتها المنسية . اعتاب العالم سواء , اصوات البشرية صماء . لواحظ تغادر نحو الغرفة ممسكتا بالسيجارة باخر انفاسها , في حالة من استسلام لا ارادي . تسمع الفضاء وهو يكثف ذراته ويسخن , والمساحة وهي تتقلقل . صوت اقدامها يصدر اصطكاك خفيف , ثم يتلاشى خلف الباب , تاركا الطفلة لقدرها .

في عالم النساء التعيس , تولد الدمى الادمية الصغيرة من ارحام الاناث . تولد بين ايادي النساء وعندما تموت فان سيدة المغتسل هي اخر من يلمس الجسد العاري . حيث الماء البارد سيغسله من انجاس الحياة وهو ممدود فوق الدكة الرخامية الزلقة . الجلد المبلل سينكمش بفعل برودة الماء الذي يسري فوقه مرات ومرات , بين يد سيدة غريبة وكريهة وسمينة . تدعكه بعنف بين كفيها العريضين , تعطره بغضب بأوراق الكافور وهي تفكر بمشاكلها الزوجية . تسكب فوقه الماء البارد من حوض نحاسي لامع , و تبدو لها كل الاجساد متشابهة . رخوة وقذرة وبحاجة الى الاغتسال . اطراف صلبة وجلود ملونة , واكفان بيضاء تلفها بأحكام حتى لا تكشف عن طرف او بقعة .

الخيوط الوهمية التي يمسكها محرك الدمى , تبدو اكثر حقيقة من الاجساد ذاتها . الدمى الصغيرة تزج في معترك الحياة , وتدرس اوهام لأشكال الحقيقية . صورة مجسدة لصورة . انعكاس من انعكاس . لتؤدي الدور المطلوب ,.كلها اجمع ترتبط بالجسد , انه مصدر البلايا . تلك الاجساد على اختلاف اشكالها والوانها تعتبر المحور الرئيس , الركيزة الاساسية للحياة مثل منبع مقدس تنبعث منه استمرارية النسل البشري , الانجاب , الشهوة , الاعمال البيتية وكل شيء اخر. وما ان تكبر الدمى تمارس دور الدكتاتورية في عالم الدمى الصغيرة الجديدة , لتتبادل الادوار , اعادة للسيناريو المعتاد .

المدرسة تبدو مهرب للطفلة شاردة الذهن , حزينة العينين . لكن سرعان ما يقرر الزوجان ان لا حاجة لها بالمدرسة مادامت ستتزوج في النهاية . فلا داعي لتضييع الوقت بالترهات , الكتب والاقلام . لم تكن تحفل جميلة بالشهادة والتعليم الجامعي , فلم يفلح احد من العائلة في الحصول على تعليم جامعي , بل ان لديهم عدد لا باس منه من الاقرباء الذين يعجزون عن كتابة اسمائهم , واذا ما تحتم عليهم التوقيع في معاملات حكومية فانهم يستمتعون بتلطيخ ابهامهم بالحبر كناية لعدم اجادتهم الكتابة والتوقيع . ايوب نفسه لم يكمل الابتدائية . لواحظ خاضت عراك عنيف بالأيدي في الصف الثالث وطردت على اثره . طريقة مثلى للتخلص من واجبات المدرسة , والبقاء في جو الاسرة الكبيرة التي تحيط بها . اخوتها قد تزوجوا في سن مبكرة وابنائهم في مثل سنها وبعضهم اكبر . ما

الجدوى من المدرسة اذا كانت ستتزوج حال توفر رجل مناسب , فما ان تبلغ التاسعة تصبح مؤهلة للزواج في منظور عائلتها . ولم ترغب جميلة في التعليم نفسه لكنها بدت طريق لطيف للتمتع ببعض الحرية . الذهاب كل يوم لعدة ساعات بعيدا عن المنزل . فقد كانت المدرسة تقع على مسافة نصف ساعة سيرا على الاقدام . انه شيء مؤلم معرفة ان اسباب خروجها من المنزل اخذة في التلاشي.

استطاعت بشق الانفس اكمال الصف الرابع . اضطرت احيانا الى ان تقف قرب النفايات طوال حصة كاملة لعجزها عن فهم الرياضيات . احيانا اخرى اكتفت المعلمة بأربع ضربات من عصا خشبية غليظة وساخنة فوق راحتا يدها , كعقاب مستحق لتقصيرها في كتابة انشاء بكلمات مفهومة . يا لها من طريقة متحضرة في تربية الاجيال . في الصف الخامس اضطرت للخوض عميقا داخل عقلها وتحريك تروسه المتوقفة عن العمل و الاستيعاب , واجباره على ذألك مستخدمة عصا اخرى وهمية تمسكها هي . واستعانت بأحد التلميذات المتفوقات للمساعدة في تقديم شروح مبسطة لبعض المواد . الكثير من المواد التي يتوجب عليها استيعابها , ارقام , تواريخ , مدن , جمل طويلة وتعاريف غير قابلة للفصل . كما انها لا تحمل أي فائدة لها على وجه الخصوص . اما في السادس فقد استطاعت ان تحافظ على مكانة متوسطة بين التلميذات , كان اكثر سهوله لها ما عدا الانكليزي كانت بمستوى ضعيف , لكنه لم يمنعها من النجاح . عند انتهاء الابتدائية ومع فشل التؤامان في الدراسة , فان نجاحها المتواضع كان ضربة تفوق على ذكور العائلة وهو شيء لم يطب لأيوب . قرر ان مسيرتها الدراسية قد وصلت الى أوجها . لم تنجح لواحظ في تسجيلها في المتوسطة ولم تسعى الى ذألك , قالت انها ستتزوج على أي حال , كما انها تزداد انوثة مع بلوغها , وسيتهافت الصبيان من اجل سرقة نظرة , وستنزعج الامهات ويقذفنها بشتى الالفاظ النابية , وستنسج حولها قصص وهمية عن علاقات سرية , بدت مقنعة في حديثها , لا حاجة للمدرسة بعد الان .

في الليل عندما ينام التؤامان في فراشهما منهكان القوى من عمل الورشة , تكون جميلة مضطجعة في فراشها بجوار الجدار . لصيقة به . وتشعر بقوته وهو يوشك ان يمزجها في جوفه حتى تغدو جزء منه . يتردد اليها اصوات الرجال في المنزل المجاور , بائع الخمر العجوز وابنائه الخمسة في المنزل المتداع وسحب الدخان واصوات الغرباء كل ليل يرتفع حتى الصباح .

الضجيج ينشئ فوقها سحابة من مخاوف. دخان وحزام وملامح قاسية للرجال . وغالبا ستنتهي سهرة الجيران بشجار عنيف وتكسير لزجاجات الخمور . تراءى لها احدهم وقد اقبل حاملا قطعة زجاجية مكسورة , وشرع باقرا بطنها نازعا الاحشاء . ثم ترتسم لها صورة القبر الوحيد في الصحراء .

هكذا تسير الاعوام حتى بلوغها الثالثة عشر . ففي يوم صيفي معتدل , من ايام الصيف الاولى , قبل ان تدخل جمرة الغيظ , استيقظ الاب ايوب ممتعض الوجه , في رأسه يطرق صداع وخدر , يرخي عينيه ويفتحهما . وكان ذألك من اثار شرب ليل البارحة . نهض من سريره على

مضض , منسحب الجسد , فيه ثقل عظيم , اكثر من ثقله المعتاد , كأن ساقاه مكبلتان بأغلال حديدية . اغتسل بالماء البارد بغية طرد الاحساس الدخيل الذي يراوده . ثم ارتدى ملابسه المعتادة , وهي ملابس رثة مخصصة للعمل . وشرب كوب الشاي الساخن , وامتنع عن تناول الفطور , الذي اعدته لواحظ . وقد بدأت بتحضيره ما ان استيقظ من مهاده وهي بذألك نأت بنفسها عن مشاجرة الصباح , فلو انه لم يجد فطوره سيثور ويدخل موجة غضب عارمة , ويتهمها بالفتور والتقاعس عن اداء واجباتها المنزلية , وهو الذي يفني بدنه من اجل توفير معيشتهم , إضافة للسقف والجدران التي يوفرها , وهو الذي يصنف نفسه المضحي الاكبر من اجل ديمومة هذه العائلة .

وكان بامتناعه عن تناول الطعام قد ترك مقلاة نحاسية مليئة بالطماطم وشرائح البصل المقلية والبيض . ولم يكن هذا من شيمه فلطالما تمتع بشهية مفتوحة , يلتهم كل ما يصل اليه من طعام , الا ان ذألك الاحساس الذي راوده كان من القوة ان يبدل طبائعه الغذائية في ذألك اليوم .

جميلة مستيقظة , لكنها تحجم عن النهوض . لا لكسل فيها ولكن اتقاء لغضبه الصباحي , فما ان تتملص لواحظ من نصيبها من الغضب , تتحول انظاره نحو جميلة , الا ان ذألك اليوم لم يسر على نحو مرضي له , فقد تظاهرت بنوم كاذب وبقيت ساكنة في مكانها , وما ان دقت السابعة و ارتفعت شمس عالية وانير الصباح بوهج ذهبي متفجر , سمعت خطواته في الباحة الصغيرة , وحشرجت صوته وهو يبصق , ثم صوت الباب وهو يغلق مرتعدا وترتجف معه الجدران . نهضت عندها بروية لأنها الان امنة . سكينتها ستمتد حتى عودته عند الظهيرة .
اغتسلت بالماء مزيلة اثار النوم وطاردة لبقايا النعاس . افترشت حصيرة

المطبخ وتناولت الفطور المتروك . لواحظ تجلس قربها تراقب بريق الشمس الصاخب , و تبعثر سحب الدخان في فضاء المطبخ .

التؤامان بالفعل قد سبقا والدهما نحو الورشة . فنظفا ارضها الترابية ورشا الماء حتى جمد غبارها . وحضرا ابريق الشاي تمهيدا لقدومه . أيوب يسير الهوان بطيء الخطى , شارد الذهن .

في عقله تدور الف فكرة , وعشرات المخططات . فهو يفكر بالولدان , لازالا في طور التعلم , عليهما ان يراوغان الزبائن ويماطلان , ويبالغان في وصف الضرر , فطنة يفتقرانها , واعوام يخطانها في سبيل الاجتهاد في هذه المهنة , اخفاق لرجل مثله , يستحق ابناء افضل , تمتم لعنات غاضبة , عائلة غبية , انه يخوض بشجاعة امتحان الرب , في رعايته لعائلته . لكنه غير راض , انه لا يقترب من الرضا مطلقا , انه يلعن نفسه اولا , ويلعنهم ثانيا وثالثا وابدا . لماذا اختار لواحظ من بين العديدات ! لماذا فضلها على ابنة خالته ممتلئة الجسد سمراء البشرة , متقدة الذكاء والحيوية ! لكنه امتثل لنصيحة جدته التي قالت ان حظه مع لواحظ افضل في الحصول على ذكور اذكياء . فوالدتها لها الكثير من الابناء , امرأة ولود صحيحة الجسم . وهي بذألك مقارنة بالمواشي . انه الان يتحسر على الزيجة الفالتة من بين يديه . فابنة خالته الان تمتهن التجارة من المنزل , و تحظى باحترام الاقرباء , فحيث يوجد المال , يرافقه احترام زائف ومحبة معلنة , تخبئ الحقد . ولا تزال ربيلة الجسد , مشدودة البشرة . لكن لا باس لديه امل . لواحظ في تدهور انه يراها تقترب من القبر , انه يوشك على حمل تابوتها فوق اكتافه العريضة . سيلقي جسدها المريض تحت الثرى , سيدفن الماضي معها , ويتزوج بعد مضي شهران , فتاة صغيرة , شعلة من الحياة , وستروي ظماءه للنساء .

ابتسم وهو يتذكر عمه الذي تزوج بعد ثلاثة اشهر من وفاة زوجته , وابن عمه الذي لديه ثلاث زوجات من اعمار مختلفة . لعينة هي الحياة , تقتر عليه من عطائها , وتجود بكرمها على اقرانه من الرجال . لكن لا باس

ما دام الخلاص على مقربة , وهو بالفعل قد ادخر اموال كثيرة على مدى اعوام , ولديه قائمة من الخيارات , لكن عليه اولا ان ينتظر موت لواحظ , وتزويج جميلة , لا يريد ان يعكر شيء صفو حياته الجديدة , ان يختلي بضحيته التالية . الاحتمالات مفتوحة , الارض مبسوطة بين يديه , المال في قبضته , والجواري تباع وتشتري , سينتقي ما يشاء بماله .

لم يمض الكثير . سويعات كانت كافية للقدر , كي يرسم انحراف بسيط في مخططاته . وضع جديد يفرض نفسه و يحدد خيارات الاشخاص . يد القدر الحانية تضع لمستها حيث تشاء . بينما جميلة حانية حول حوض الملابس , تغسل الملابس المبقعة بالزيت , وتدعك نسيجها بين راحتيها , وتضع المزيد من المسحوق الذي يلسع اصابعها ويجعلها حمراء مثل كرزة راوية , كلها تركيز نحو البقع التي تأبى ان تمحى .

بدأت ترتفع اصوات صراخ وعويل . لواحظ تسير دون عجل . جميلة تشمر عن ساقيها مذعنة لرهبة الصوت . نساء الحي ربيلات الاجساد ملئن الباحة . موشحات بالأسود . وجوههن داكنة , متغضنة يابسة , وجوه مومياوات حنطت منذ الاف السنين . ارتج جسدها بالصراخ . في القعر هجعت عشرات الكلمات , لفقتها يد لواحظ وادخلتها نحو الغرفة , ثم وضعت ثوب اسود بين يديها . امرتها ان ترتديه حالا وتخرج .

اقبلت بحفيف الثوب الفضفاض . غاص جسدها بين القماش الاسود , عيون النساء تلذذت برؤيتها مرعوبة , شاحبة الوجه غادرها الدم , بريق

الدمع يترقرق في مقلتيها , لا انعكاس واضح داخل عينيها , لا شيء سوى ذهول الموت , فقط. دمع خائف وسؤال واحد , ماذا يحدث ؟ من مات ؟ هل ماتت لواحظ السقيمة ؟ لكن لا , انها موجودة تقف باتزان وتبصر بتمعن . اهو احد الاعمام ؟ لكن لا , لا يحضرونهم الى منزل ايوب الضيق . ما الذي عليها توقعه ؟ لا يعقل ان يكون هو ! ممدد ! أي جسد مسجى في التابوت الخشبي العتيق ! ستموت قبل موته , سيدفنها بين يديه .... لكنه الان ممدد . باهت الجسد وقع اثناء مسيره . وضع يده فوق صدره واعتصره بقوة . ارخت الحياة حبالها . قذفته نحو الجانب الاخر . بصقت جسده المملوء بالكراهية والعداء . سيلتهمه الجحيم كما تلتهم النيران الحطب . لواحظ تبطن في سرها قول مأثور :

مات واراح , الهم انزاح .

اه , ورمي النامي من بغضه , اطلقت نحيب وعويل .

تذكرت ركلاته الكثيرة , صفعاته الساخنة فوق جسدها المحموم . هي تؤمن ان ورمها قد نمى نتيجة غضبها المكتوم . الغضب المدفون قد تجذر منشأ كتلة صلبة من الاوجاع . ستزوج الولدان , وتبحث عن زيجة مناسبة لجميلة على مهل . ستدعو الرب ان يمهلها القليل . جميلة ذاهلة نحو التابوت , تعتقد انه سينهض يضربها ويوبخها ثم يعود . لكن لواحظ تفطن انها محنة سرعان ما تنجلي مثل بريق رعد مارق يخطف ثم يتلاشى . لا تريد استرجاع ذكرياته , لن تؤطر له صورة في أي مكان .

مرت الايام هادئة .جميلة تنعم بالأمان . تحظى بما تشاء , التؤامان اشتريا بيت اكبر في حي قريب , من وديعة ايوب المدخرة وتزوجا .

عملهما يسير على خير ما يرام .رفضا عودة جميلة نحو مقاعد الدراسة , يقولان انها تحمل من الحسن ما يجعلها عرضة للتحرش والمضايقات . لواحظ تقول انهما محقان . رضخت جميلة لرغبتهم . لواحظ تنتكس رغم الراحة , الماضي يلاحقها , الاحلام تجلب لها شبح ايوب . تراه ينهض من قبره زاحفا نحو سريرها ثمل ملفوف بالكفن , يخنقها بكلتا يديه . تستيقظ مختنقة , تشتكي للطبيب الذي يقول انها اعراض جانبية للمهدئات , شيء يشبه تأثير المهلوسات , وانها تقاوم ببسالة . لكن مع ذألك فهي تدنو من الموت . الرب الرحيم قد امهلها سنين , مجرد بقائها حية حتى الان تراه معجزة , وعليها الان بذل مجهود اكثر من اجل ايجاد زوج مناسب لابنتها الوحيدة .

في حي اخر ليس ببعيد , احد الاحياء الشعبية المكتظة بالسكان . وهو حي مقسوم الى ثلاث اقسام , اولها يتكون من منازل سكنية مرتبة , بطابع واحد , تم بنائها في الثمانينات من كتل كونكريت جاهزة , هيئتها توحي بسكان بسطاء , يسكنون الحي من زمن بعيد . وقسم اخر من منازل تم بنائها حديثا على اشكال مختلفة , قبيحة ومشوهة , مزخرفة بالرخام الرديء الملون , وشبابيك حديدية واسعة , مثيرة لغثيان خاص نحو بشاعة البناء العشوائي , وغير متناسبة مع كمية الاموال التي تنفق من اجل بنائها . وقسم اخر في النهاية بعد ان تنتهي صفوف المنازل , في نهاية الحي . منازل منخفضة , مشيدة من مواد بسيطة , ابوابها صغيرة وصدئة

, وسقوفها من الصفائح والاخشاب , وضيقة المساحة . حيث تحوي عوائل كبيرة في مساحة لا تزيد عن مئة متر او ربما اقل او اكثر بقليل .

كانت العائلة المقصودة تسكن في القسم الاول . قرب الشارع الرئيسي . وهم يعرفون اغلب قاطني الحي , وسماتهم واوقات تواجدهم . وكانت السيدة لبيبة لم ترزق سوى بنبراس وايار . وكلاهما قد اكمل تحصيله الجامعي . وما ان حضي ايار بوظيفة حكومية , شرعت والدته بحثا عن زوجة مناسبة , بمواصفات خاصة , وكان ايار كثيرا ما يماطل , ويرفض بحجة عدم ملائمة المختارات . وكانت نبراس كثيرا ما تطلق السخرية على طريقة انتقاء الزوجة بعيدا عن رايه الشخصي , وتخبر والدتها ان ايار هو من سيتزوج وليست هي . وكانت السيدة لبيبة تسمع ما تود سماعه , وتتجاهل ما لا تود سماعه , وترفض تعليقات نبراس وتجدها غير لائقة البتة ان تنطلق من فم فتاة . وهي تؤمن انها خير من يعرف كيفية اختيار شخص مناسب , فلطالما اسهمت في المشورة وعقد زيجات تعتبرها ناجحة من منظورها الخاص . وكثيرا ما تخوضان جدالات تنتهي دون انتصار احد فقط تحديات كلامية , دون جدوى او غاية .

ايار اضطر في نهاية الامر للاستسلام للإلحاح , الذي نخر راسه , وطعن كبريائه وخز قلبه . فلم يكن من شاغل يشغل السيدة لبيبة في الليل والنهار سوى تزويجه . فقرر القبول بخيارها القادم اين يكن . فشرعت باحثة يمين ويسار , في كل عائلة تعرفها وكل بيت تصله قدمها , وكل امرأة تعرفها , الى ان وصلت اخيرا الى غايتها ومطلبها . وهي فتاة بالغة الحسن , ممشوقة القد , متوسطة الطول , ناعمة الصوت , ودمثة الاخلاق , لا يعلى لها صوت , و لا ينطلق من فاها سوى كلمات قليلة , ولم تكن تبلغ السابعة عشر بعد . وقد كانت السيدة لبيبة تملك نظريات ثابته ورثتها من نساء العائلة وتوارثتها الاجيال منذ القدم , فهي كغيرها ممن يؤمن ان خيرا للرجل ان يتزوج شابة صغيرة , حتى يتاح له انشائها

كما يريد , وتربيتها كما يحب , تشكيلها كما يريد داخل قالب يختاره تبعا لأفكاره ومتطلباته . فلا تزال غضة العود , لينة العقل , من السهل ترويضها واقتيادها وترسيخ عاداته لديها . علاوة على ذألك فان جميلة يتيمة الاب , ووالدتها عليلة بمرض ليس منه شفاء سرعان ما تلقي حتفها وآنذاك سيكون زوجها هو عائلتها الوحيدة حيث لا مكان اخر لتقصده , ولا باب لتطرقه ستكون تحت رحمته .

سرعان ما تم ترتيب لقاء يجمع الخطيبان , وكان ذألك في نهاية الصيف , في منتصف اب . وكانت الحرارة شديدة لاهبة نهارا , تتركز في نهار طويل , وتخمد ليلا وتهب نسمات رقيقة هادرة تغسل الانفاس . وكان لقاء قصير حضره كلا من السيدة لبيبة وايار , ولواحظ وجميلة و احد الاخوين تحديدا كمال , الذي اصطبغت بشرته بلون داكن من نهارات طويلة تحت الشمس , وقست ملامحه , وانحسر الشعر في جبهته , فكان قريبا من الصلع , واوحت هيئته بسن اكبر من عمره الحقيقي .

اكتفى ايار بألقاء نظرة خاطفة كانت كافيه له ليطبع صورتها داخل عقله . اما جميلة فقد التزمت بالوصايا وخفضت راسها , وحاولت سرقة نظره حتى تبصر شكل زوجها المستقبلي وقد تحول وجهها الى قطعة خجل حمراء ,وشعرت بانها على وشك الذوبان حتى تترشح بين شقوق البلاط الصغيرة . وتناقشت السيدتان بصوت منخفض وهما ترتشفان عصير البرتقال , وتلتهمان قطع الكعك المحشو بعجوة التمر . اعربت السيدة لبيبة برغبتها الصريحة في ان تتم الإجراءات على عجل , ولم ترفض لواحظ بل رحبت بالفكرة , وايدتها ان خير البر عاجله , واعترفت في سرها ان خيرا من اختارت لجميلة , فهو هادئ الطباع , جميل المحيا , شديد التهذيب .

تنفست لواحظ الصعداء وهي تؤمن انها وجدت ملاذ امن لجميلة . وابتهلت ان يتم الامر على خير ما يرام . سرعان ما قدم الخريف , ومع تساقط اوراقه , سقطت الورقة الوحيدة في شجرة لواحظ العجفاء .

لم تتردد جميلة وهي تعبر الخط نحو حياتها الاخرى .حياتها الفعلية كما تؤكد لواحظ . فهي تقول ان حياة النساء تبدا بعد الزواج . انصاعت جميلة للأمر كشر لابد منه , قدر منه لا مفر . تقبلت دون ان تملك خيار الرفض , وقد كررت لواحظ جمل حثية عميقة على مسامعها , واسهمت في ازدياد التباس الامر . اخبرتها مرارا انها بحاجة لراع كي يحميها , واولاد كي تربيهم . الزواج هو مستقر لها فهي قريبا سترحل . الورم ينمو لديها مثل شجرة , كل يوم فرع جديد . الطبيب يخالفها , ويرى ان لديها ورم وحيد لا اكثر , لكنها تشعره يدب فيها , جذوره تشرئب فيها , انها تعرف جسدها اكثر من الطبيب , ما الممكن ان يعرفه الطبيب من الورق ! كل يوم ينمو له ذراع , كل لحظة ينقبض صدرها , وتتكأ على الجدار , تتنفس ببطء , وتدعو الرب , ايها الرب امهلني المزيد , لا تغمض جفناي قبل ان تتزوج جميلة .

في منزلها الجديد , الضيوف دائمي الوفود , الجارات كذألك , النقاشات الحادة بين الام وابنتها وافرة .جميلة تخبر لواحظ انها تشعر بالغربة هناك , لا اطمئنان يسكنها .

هل يضربك احد؟

لا ..

هل يهينك احد ؟

لا هل تنامين امنة تحت السقف ؟

نعم .

اذن انت واهمة , قريبا ستعتادين الامر.

لم تعرف قط كيف تعبر عما في صدرها من اختلاجات . ان تعبر عما يسكنها من مخاوف واوهام بالكلمات . ثم انها فرضا تمكنت من ترتيب جمل و وجدت مفردات مناسبة , فمن سينصت لها آنذاك ؟ أي اذن ؟ ام فلنقول أي روح ستتقبل او تفهم مشاعر روح اخرى دون اصدار تهم واحكام ! دون ان يقول لها انها جاحدة , جاحدة لنعم الرب , النعم التي تتجلى في زوج ينهك نفسه في عمل رتيب , يقتل نفسه في محاولة الاندماج في وضع لا يناسبه , الا يستحق اكرام وتبجيل ! سيخبرونها , انها عاصية خاطئة , و ان عليها ان تكون راضية شاكرة . ان تمثل الرضا , اشده واكثره اقناعا . عليها ان تقنع نفسها ايضا بذألك . اوصتها لواحظ بالطاعة العمياء لزوجها واسرته , والصمت المطلق , ان تقطع لسانها وترميه صوب البحر المالح كي تلتهمه الحيتان , لكن في جوفها يرتفع صوت يخبرها بالا انتماء .

السيدة لبيبة تمارس سلطتها . تنصب نفسها سيدة على السكان القابعين تحت سقف منزلها الصغير . قبضتها الحديدية لن يفلت منها احد , انها تجد في نفسها كفاءة الحكم , وكل مميزات الحكام .قاسية في حين , عطوفة حنونة في حين اخر. نبراس تقول انها دكتاتوره , تجهض كل الاصوات المعارضة , بل انها حتى لا تسمع سوى صوتها . تصر على زيارة جميلة للطبيب , تصحبها من يدها , مرة تلو الاخرى . جميلة تبتلع حبات

مختلفة الاحجام والاشكال . تحملها في راحتها وتتأمل احجامها المختلفة , وتبصقها احيانا في المرحاض , تقول , لا اريد ان يحمل هذا الجسد .

بعد اربعة اشهر , تجري اختبار سريع للحمل , نتيجته الايجاب . السيدة لبيبة سرعان ما توزع قطع الحلوى لكل بيوت الزقاق . الان هي تنتظر حفيدها الاول ليزيد بهجة الحياة . تقول ان ايار ولد وحيد , ويجب على زوجته ان تلد العديد من الابناء كي يحيطون به ويسندونه .

جميلة ترتبك . المخاوف تجرها نحو هاوية . انها حقيقية , مثل هضبة رملية سرعان ما تشتتها الرياح , ثم تكبر فتتجلى في صورة جبل صخري يصل حتى عنان السماء فلا ريح لتزعزعه . هي بالفعل لديها توقعات , حسابات محددة , اجرتها بدقة . لواحظ لديها الورم . الاورام تخلقها الكراهية . البغض المختبئ خلف الاضلاع . الأسرار الدفينة للأرواح , الاوجاع التي تعجز عن الولادة في هيئة محسوسة كصراخ او دمع او نحيب , تختبئ عميقا وتنمو . بذور الاوجاع خلاقة ان تتمثل في هيئة مادية , تعبيرا عن نكرانها قبح العالم . ربما ينمو لديها شيء ما في الظلمة . ربما ستعاني طويلا هي الاخرى , عشرون عاما تتجرع الدواء , وتزرق السوائل الوريدية , عشرون عاما ستتكأ على جدار دون احد يسندها احد . ايار ميؤوس منه , كائن مجرد من المشاعر البشرية , انه جثة باردة , اشد برودة من جثة في براد الموتى .

تنتحب بصمت وهي تشعر ركلات الجنين . الورم ينمو تحته , يتغذى منه . تستذكر جدتها لأبيها ايضا , ماتت بعد ايوب بعدة اشهر .كانت تشكو من علة ما في ثديها , فاقتصوا جزءا كبيرا منه . تخيلت مكان فارغ , ثقب عميق للهواء , ليسير فيه كبيداء مقفرة . جسدها مثل جذع يابس . تتذكرها الان ببشرتها القمحية وخصلات رمادية خفيفة , يلمع تحتها جلد لامع . قوية في اعوامها الثمانون , تمضغ الطعام اللين بفم خالي من الاسنان . كان لها فم دون شفاه , فقط خطان رفيعان , يكشفان عن ثغرة

ولسان زهري , و وجه صغير يوشحه الاسود . ترتدي ثوب فضفاض من حرير لامع بشكل دائم . كيف تحملت ثمانون عاما ! مرت فوقها كقطار , سحقتها تحت عجلاتها الحديدية .كيف حمل جسدها الابناء والبنات ! كانت كقديس اعشى على وشك ان يفضي بما في جعبته من اسرار الوجود . كانت تقول ان الرجال كالآفات يقتاتون على ارواح زوجاتهم .

الان هي تبصر ما تقصده الجدة . انكشف لها المستور مثل اوراق التاروت . يتزوجوهن , فتكون قبضتهم سجونهن الابدية . عطفها ان تموت بسرعة , لكن جدتها ماتت بعد ان اضناها العيش , واخذت منها الحياة ما اخذت . ماتت بعد ان ابتاعت ارض صغيرة لتدفن فيها بعد امتلاء مدفن العائلة . وحتى وهي هرمة بقيت تحمل هم نفسها , تشتري قبرها وتدفع اجوره , وتحمل كفنها الابيض وتحضره . تقلل من ثيابها فلا تبقي سوى ثوبان , تخبرهم انها قريبا ستموت . الموت يدنو منها , تبصره بعينيها . لم يجادلها احد , الجدات يعرفن العديد من الاشياء , او على الاقل جدتها كانت تفعل .

كيف يمكن لامرأة ان تحتج ؟ وهي مسجونة داخل قوقعة من نسيج عنكبوتي هش . أي طريقة ستبدو اكثر ملائمة للانتفاض , دون ان تربك السلسلة الهرمية من التماثيل الادمية النزقة . دون ان تقع تحت مجهر الادانة ! دون ان تبدو مريبة وكأنها تخبئ لغزا في عمقها الدفين ! دون ان ترسم حولها دائرة الشك الحمراء ! ان من ينسج تلك الخيوط الشائكة , الرقيقة , ومن يرشد مجمع الدمى الصغيرة باتجاه الطريق الصحيح المتمثل بوجهات نظر وضعت من اجل خدمة طرف

واحد وتلبية متطلباته بغض النظر عن حالة الطرف الاخر , لم يرشد أي منهن لطريقة احتجاج معينة , لان الطريق الواجب سلوكه هو باتجاه واحد دون تراجع او انحراف للميمنة او الميسرة .

جميلة بطنها تكبر , لكن غصنها الغض يميل . ثمارها تنمو يانعة , في باطنها ينمو عفن ما , ببطء تتبلور ذرات في كيانها , منشاءه كيان جديد.

كان كل شيء ابسط , هكذا يقولون , رسل الاعوام الماضية , الذين جادت عليهم الحياة او ربما نقمت بان جعلتهم يختبرون الكثير , ويشهدون الكثير . وضعتهم داخل عجلة الحياة وهي تدور , هشمتهم الرحى وهي تطحن . حفظوا بعض مما شاهدو واصبحوا يقصون احداثهم في كل معترك ومناسبة , مع إضافة القليل او الكثير من توابل المبالغة.

كانت الجارات يزورن السيدة لبيبة كل يوم صباح ومساء , ومع اقتراب ولادتها كان الحديث المفضل لهن هو آلام المخاض , وان كل ما سمعت هو ان الولادة عسيرة بكل اشكالها , نساء اختبرنه لساعات , نساء اخريات استقبلهن ملك الموت , جميلة لا تلقي بهن بالا , تقول ان حديثهن محض هراء , احاديث سمعنها من غيرهن , رددنها نساء اخريات على مسامعهن , حتى اصبحن الان نسخة من سابقاتهن , نسخة كريهة منهن , والان عملهن المفضل الثرثرة , اجسادهن قد تيبست من اعوام من الاعمال المنزلية الكثيرة من الصباح حتى المساء , منازل واسعة مهما نظفنها سيجدن الاوساخ , هرمن وكف لعابهن عن السيلان , الان تركن الساحة الى اخريات في المسرحية , هرمت عضلاتهن واصبح عملهن الوحيد حكايات تروى , وهن يعطين انفسهن اهمية ليست بالقليلة , ويؤمن ان موتهن سيخلف ثقب دودي عميق في الحياة , اهمية ستفند ما ان تواري اجسادهن التراب , فيستمر افراد العائلة دون ان ينقص من طقوسهم شيء , دون فراغ يذكر , سيتناولون الطعام في مطعم فاخر على مقربة من المقبرة لا تفصلهم سوى كيلومترات قليلة , ستلوح الشواهد العالية من بعيد , من النافذة اللصيقة للطاولات , سيلتهمون الطعام

بنهم بعد ان يذرفون الدموع , سيتفوهون باحاديث تافهة لا تمت للمتوفى بأي صلة , وسيتناقش الابناء حول الموائد التي ستقدم للمعزين حتى تلمع صورتهم بأبهى صورة , سيراقبن من الاعلى بأشباحهن السوداء ومقلهن الذاهلة , سيشاهدن ان كل ما تمسكن به مجرد نظريات انشئها اخرون , خرافة تطيرها الريح , يتأملن من بعيد الحياة تنطلق دون ارتباك , قطار مستمر دون توقف , ما ان ينزل راكب , سينضم اخرون , نظام متوازن , ولعل لواحظ قد ادركت هذه الحقيقة فأخذت الحياة على مهل دون حماسة , دون اكتراث بالتوافه , سارت مع التيار دون مقاومة , زكت روحها بين حين واخر بالدعاء , مناجاة صامتة للأرواح.

مضت اعوام خمس . لكنها ليست هينة , يضاف لها شيء , يعكرها شيء , من الممكن ان تسيطر عليها التفاصيل الصغير مهما بدت مضجرة , حركة الهواء داخل المنزل واتجاهه , برودة الجو ودفئه , موجات الغبار المسيطرة على حبل الغسيل المعقود بين حافتي سياج السطح , فلو اتسخت لصار لزاما عليها ان تعيد غسلها مجدد . مزاج السيدة لبيبة يقرر عدة امور , جدول تنظيفات صارم , خيارات الوجبات , فلو ابتاعت اللحم , سيتوجب عليها سلقه مطولا على النار ثم حمسه مع البصل حتى

تختفي الزفارة , ولو اخفقت في ضبط درجة نضجه بحيث يكون هش سريع التفتت في الفم دون ان يمضغ ويلاك , لسمعت سيلا من الكلمات , والاوامر الجديدة , ودرجة استواء الرز بحيث يصبح منثور , تنفصل حباته عن بعضها البعض , درجة كثافة المرق وملوحته مقدار معجون الطماطم , الى اخره من التعليمات . الانتباه الى درجة حرارة الاطفال فقد كانوا يسقطون في حمى مرضية تباعا ما ان يشفى احدهم حتى يأخذ اخر مكانه , تضطر في معظم الليالي الى البقاء مستيقظة فالكل يعلم ان الحمى تشتد مع ثقل الليل , وعندها ستخلد الى النوم عند الفجر , وستستغرق في نومها صباحا فلا تنهض حتى التاسعة , وستضطر للاستماع الى موعظة الحماة الحكيمة ككل صباح . احيانا تود اخذ فسحة , ان تكف عن كونها نفسها , ان تقف على مسافة وتراقب مجريات الامور من بعيد , فكرت انها ستشعر بالشفقة نحو هذا الكائن الضعيف .

كانت تنظر صوب السماء , مركزة تفكيرها , فلا يرمش لها طرف جفن . شرود كلي . تنفصل لدقائق ثم تعود لتجد نفسها جامدة دون ادنى حركة , غير مبالية بما يجري حولها , صماء عن الاصوات التي تصدح قربها , نوبة من صراع نفسي , كبت لمعارك داخلية , تفكر انها لن تنجو اذا تجرأت يوما على اجابة السيدة لبيبة بما يدور في خلدها من اجابة لمعظم الحوارات . كما انها لن تقدم يوما على مصارحة ايار يوما في رايها حول دوره في هذا البيت , فهو ضيف دائم , فقط سواد الليل هو ما يلزمه

للبقاء بين جدران المنزل . في ايام العطل يسمح لنفسة في النوم حتى الظهيرة مريحا بدنه من المشقات , انها تحسده كما تحسد كل الرجال , ماذا لو امتلكت العمل والمال هل سيختلف وضعها ام انها زيادة غير ضرورية للمسؤوليات .

انتبهت السيدة لبيبة لنوبات الشرود , حذرتها من كونها احد دلالات الجنون , وانفصال للعقل عن الواقع ونكرانه . تسليها احيانا بقصص عن معارف قديمين , لكنها تركز على تفصيل من القصة وتتشبث به , فمثلا , شاركت الحماة احد المهمات التي اوكلت لها يوما , من قبل معارفها , فقد اصيبت زوجة احد اقربائها بمرض ما اوهن بدنها , وجعلها عاجزة عن القيام بالأمور كما اعتادت , من وجه نظر الزوج , نصحه الاقرباء في اتخاذ زوجة ثانية لتقوم بواجباته , وشرعت السيدة لبيبة في البحث عن زوجة متوسطة العمر , ولما كان الزوج في عقده الخمسين وهو شاب يافع في نظر عائلته فقد طلب ان تكون الزوجة القادمة في الثلاثين من عمرها , غير متزوجة , وهو عمر ممتاز له , فالنساء في هذا العمر عانسات وسيرضين باي زيجة دون طلبات , اشتكت الزوجة الاولى لأخوتها الذين فضلوا عدم التدخل في شؤون الزوج , فكرت انها لو كانت مكانها لن يتردد ايار في اتخاذ زوجة , وستسارع السيدة لبيبة في طرح الخيارات , ثم انها اين ستتوجه حفظا لكبريائها , هل سيقبلها احد التؤامان ام سيتعذران عن ذألك , لواحظ كانت سليطة اللسان , لم تسمح لأيوب باتخاذ زوجة , ارسلته نحو حتفه , اما هي فضعيفة بكل كيانها .

مرة اخرى شاركت النساء في حديث ترفيهي لحرق الوقت , وشاركن قصة عن ثلاث فتيات من دار الايتام , هربن قبل عدة شهور , يوكد الجميع على ان المديرة قامت ببيعهن بمبلغ محترم من المال , لكن لا دليل لا جريمة , سيصبحن دمى بشرية للتسلية , انهم يتسلين في معرفة احداهن تعاني في مكان ما , فتيات دون اهل متروكات , يحملوهن مسؤولية الانحراف , تقسم احد الجارات انها لو كانت مكان احداهن لقتلت نفسها

قبل ان تسمح بكذا فعل , تؤكد الاخريات انه الخيار الصحيح كان لزاما عليهن ان يقدمن على انتحار سريع حفظا للشرف . هذه القصص كافية لتعرية الحقائق امامها , كادت ان تبصق مليء فمها , فتيات لم يكن يبلغن الخامسة عشر , عن أي شرف وعائلة وعقيدة يتحدثن الحمقاوات , لن تكون جزء من هذا المجلس بعد الان , يحملن سكاكينهن ويقطعن لحوم الاخريات بغاية تضييع الوقت , من المشين التسلي بتعاسة الاخريات ان احداهن تعاني في مكان ما , من الممكن ان تكون قصة خالية من الحقائق لكنها تحمل طنا من الافكار .

كيف رتب لها القدر كل هذه المشقات . حشرها عام تلو الاخر . تجثم القدر جهد بالغ كي يضعها في نقطة عمياء .جعلها شيء ركيك قابل للتزعزع عند أي زلة . فما ان تولد انثى تكون قد اكتسبت نقطة ضعف عظيمة , اضف لذألك نقاط اخرى , وضع الاهل الاجتماعي ومستواهم الثقافي والوعي بحقائق الحياة وصعوباتها , فما بالك لو ولدت الانثى داخل مجتمع منغلق مليء بالترهات والعادات التي تجعل النساء سجينات منذ نسيج الولادة حتى نسيج الاكفان .

على احداهن ان تتقن فن الصمود في تلك الاجزاء حتى تعطي الاخريات دروس مجانية من اجل النجاة ومجابهة الصعوبات.

كما ان الحقيقة الوحيدة التي يجب ان نضعها في حساباتنا انها كانت شيء ما , دون ضمير يستخدم للإشارة نحوها فلم تكن تنتمي للأفراد العقلاء في نظر الاخرين , بل ان كل ما يخصها يناقش في حلقة مغلقة بعيدا عنها شأنها شأن اخريات واخريات . كما انها لا تملك رفاهية الاشياء الجامدة , ان تكون صلبة تتسم بالا مبالاة , بل ان كل شيء قد عبرها دفعة واحدة

.القدر قد تجاهلها دون اكتراث , الحياة سارت خلالها , كأنها شفافة تسمح للذرات ان ترشح عبرها مثل فضاء اثيري . تعصف بها اصعب المشقات كما تعصف ريح صرصرة بأوراق الاشجار وتلقي بها بعيدا في الا مكان , في نقطة شذوذ فريدة . انها فقط موجودة لتعاني من عقدة الاختلال , الا انتماء , لا تنتمي لجماعة محددة كما لا تعتنق معتقد محدد , فكل ما رددوه الكبار على مسامعها منذ الطفولة اكتشفت بنفسها وعلى مدار السنوات انها فقط مجموعة من القصص والكلمات دون اهمية حقيقية في خضم الواقع , مجرد مفردات تم انتقائها بدقة لا تمت للواقع بأي صلة تذكر كما لا تخدم صالح البشرية فقط تخدير للأذهان .

كما ان صفة الجمال التي من المفترض ان تكون سمة تميز لها لم تفعل سوى اضافة المزيد من الاغلال , شيء يشبه سجن داخل سجن داخل اخر, الى ان يمتد عدد غير محدد من القضبان الحديدية , كهيكل قائم على الخرافات , كما ان القصة القصيرة لخط الحياة تملك انعطافات والتواءات تجبرها على سلوك طريق محدد دونا عن سواه , كأن تحصر حيوان في زاوية وتجبره على الدخول في المصيدة , ان تحبس انسان في غرفة خرسانية محكمة الاغلاق وان السبيل الوحيد للخروج هو حفرة ضيقة اسفل الجدار , واذا لم يغادر بسرعة ستضغطه الغرفة بين اضلاعها حتى يغدو اوصال يأكلها الكون ويضمها الى فتاته كما ضم الملايين عبر العصور .

عادت بذهنها نحو اللحظة الراهنة , قلبت صفحات الماضي , توقف احتراق الوقود وهداء صوت المحرك , اضطرا للتوقف في قرية صغيرة قبل دخول العاصمة حتى ينقضي النهار , لم ينطق احد أي كلمة خارج نطاق المحدود والمعروف وما ان نزلت الشمس حتى ركبا السيارة نحو الطريق السريع .

من بعيد ابصرت انوار المدينة . السيارات الواقفة بصف طويل في الازدحام , مصابيحها الحمراء وامضة مثل عيون ذئب ليلي في طريق الذهاب , واخرى بأضواء صفراء لامعة تغادر المدينة . صفان طويلان دون نهاية تلمحها العين .

الليل يبسط نفسه فوقها ويخيم بظلامه الكثيف . الابواق العالية . ضوضاء المحركات الصارخة مثل شجار حيوانات مفترسة . وخيل لها ان امواج النهر التي تبدو كسطح عاكس لألق النجوم , تثور وترتفع تحت الجسر ثم تعود لترتطم بحافة النهر القريبة . كأن دجلة ينهض كل ليل حاملا اطياف الراحلين وصور الماضي .

لاح لها كل شيء مختلف . تداخل عوالم صغيرة من المدن وتصادم للمفاهيم . هل هذه الحياة يا ترى ؟, هل هي حرة ؟ ام هو شعور وهمي سرعان ما يتلاشى ! انه شعور الخفة الذي تملكه الطيور , ليس لامتلاكها القدرة على الطيران قطعا , بل لأنها رحالة دون اثقال , دون اعباء . لا تؤرقها نظريات نشوء البشرية واضمحلالها او خروج المخلص الذي سيحررنا من عذاباتنا , او تطور الانسان وانحداره المثير من القردة , مع انه لايزال اسواء انواع الكائنات واكثرها وحشية . او الاخرة ونيران الجحيم التي لا ترتوي سوى بلحم النساء . بل انها طليقة وان كل همها المواسم والطقس والهواء الذي يداعبها كحبيب .

امتلكها آنذاك شيء من ذألك الاحساس عندما لاطفها نسيم الخريف المقبل من بعيد . وهي تراقب سماء الليل وتتخيل حافة العالم تلك التي تواجهها ونهاية كل اشكال الحياة التي تعرفها . وبينما اقبل الليل بظلامه , واسجى ستائره الحريرية السوداء بعيدا عن مركز المدينة المكتظ , غراب

وحيد اسود , نعق فوق شجرة الزيزفون العجفاء . في وحشة الطريق ارتفعت اضواء المدينة الغريبة عن جميلة .

في سماء الخريف صخب الاصوات مرتفع . استنشقت الهواء وخيل اليها انه هواء برائحة مختلفة , يتسلل الى الارواح مع دفعة من رياح تهب بين حين واخر . وبينما اخذتها الدهشة من الشوارع المضاءة بوهج المصابيح الفاقعة , كانت السيارة تقطع الشوارع الكبيرة فالصغيرة ثم صارت تقطع الازقة الضيقة والتي اصبحت تضيق اكثر وتختفي في الظلام الى ان توقف ضجيج المحرك في زقاق طويل , معبد , بنايات مرتفعة وضيقة محشورة بجوار بعضها البعض .

قال الغريب : ترجلي , ها قد وصلنا .

اجابت بوجم : ما هذا المكان ؟

رد الغريب وقد تقدم نحو بناية محشورة بين الاخريات : لا تقلقي انه وضع مؤقت كما اعتقد , هكذا بلغني الامر .

كان الفندق يقع في منتصف الزقاق , بباب خشبي صغير يبدو انه قد نجا من ازمنة غابرة , عابرا حدود التاريخ . ولصغره يبدو كفتحة في جدار طويل . البناء العمودي بثلاث طوابق يقف بين عدد من البنايات القديمة . النوافذ الصغيرة تبرز بوضوح , نافذتان في كل طابق . عبرا الممر المظلم , المصابيح الصفراء الصغيرة لم تكن كافيه لتنيره , او ان احدهم

قد جعله هكذا متعمدا , كي تختفي الوجوه بين انصاف الحقيقة . الغرف من كلا الجانبين , والى نهاية الممر سلم ضيق , رخامي . الغرفة الاخيرة قرب الباب الخلفي كانت تشكل مكتب صغير . خطر في ذهنها وهي تسير في الممر خافت الإضاءة , المشاعر التي دفعتها للسير في هذا الطريق , وهي تتخبط في الظلام دون بصيرة , وهي تدرك آنذاك ان كل خطوة تخطها قدماها داخل الممر تصبح المسافة التي قطعتها اكبر.

انفرج باب الغرفة الاخيرة لتخرج امرأة في عقدها الرابع بفستان اسود طويل وشفاه منضوية :

اخيرا ! ها انت ذا , فلتدخلها في الغرفة الاولى , ثم لنتحدث .

أومأ الغريب لجميلة , حاثا اياها للدخول الى الغرفة , بحقيبة واحدة , تحملها بين ذراعيها .

قال الغريب : هيا فلننجز , اني مرهق منذ يومان .

السيدة تجيب غير مبالية لعلامات نفاذ الصبر التي ترتسم فوق محياه , وهي تحمل رزمة النقود وتسلمها اياه :

تفضل كما اتفقنا .

وقبل ان يخرج قال : ضعي المنوم في الطعام لا طاقة لي بتنظيف أي فوضى .

تجيب السيدة :

بالطبع سأفعل , لا حاجة لاحد بالفوضى , كما ان الباشا سيحضر اليوم , تعلم كيف هو مزاجه .

الفصل الرابع

اقول ... هل اقول ؟ هل اكاشفكم بالحقيقة ؟ هل يسمح لي بالقول ؟ هل يسمح للنساء بالتعبير عما يجول في خواطرهن الدفينة في جزئكم الصغير من العالم !

اتساءل يا ترى , هل يمكن لساق كرسي ان تقول كم يرهقها حمل الاجساد ؟ هل يمكن لأنية خزفية ان تعبر عن امتعاضها من الوقوف وحمل الازهار ؟ هل يمكن لوعاء ان يتحدث ؟ افكر ان هذا محال , لكنني رغم ذألك سأقول جانبي لا لأبرر نفسي فلا يوجد هنا أي تبرير وان كل ما جرى هو تدفق آني للأحداث .

اسطورة الليل تولد من صمته , فاتحا فاه دون وجل . يطبق ويضغط ارواحنا والصمت قائم ما شاء من ازل . ومع مقدم انوار الغسق بطلوع شمس وضياء, يتوارى خلف ستائر النور المنبسطة ويعود كي ينهض بعد كل اصيل. وحسبك لست سوى انثى من بني ادم جسدي مخلوط بين تربة وماء , منهما قد ولدت وتحتهما يوما سأوارى .

بين الظلمة والنور الراقص ولدت. نور قادم من شعلة لمبة نفطية , طويلا احترق فتيلها المغموس بالنفط , وطويلا تمايلت شعلتها الخافتة وهي ترسم للخاطفين الخيالات دون ان تفرق بين ظل احد منهم , فلا تقول هذا رجلا وهذه امرأة. ومنذ اول وهلة وانا اترنح لزجة بين عظام الحوض , واصرخ مملوءة بالسائل الجنيني والدم القاني الكثيف , تلقفتني ايد دافئة , كتلة لحم بيضاء طرية تغادر الكهف المظلم , شممت الرائحة في لحظتي الاولى واترع بها ذهني وآلفها جسدي حتى علقت داخلي , وعرفت عندها انها ستصبح يوما رائحتي , رائحة النساء .

بجهد صارعت مقلتاي الضوء الذي اقترب حتى سلط دفئه فوق وجهي . وعجزت عن تمييز الاشياء , كل شيء دون لون , كل شيء له لون واحد . تغشاني ستارة من ضباب ابيض جاعلة نظري مغشوش . ولوحت كفاي بعبث متمايلة في الهواء البارد لعلي اصل الى تهويدة صمت وامان , لضجيج هذا العالم الصارخ الذي بات حولي مضجرا سمعي بأنينه . ايد عديدة دافئة هدأتني في الظلام . وضمتني بدفء احضان , محاولة طرد برد الشتاء القارص , ورطوبة الطوب في الغرفة الصغيرة .

وكثيرا درت مضمومة الى اكتاف النساء وهي تطوف في حوش كبير في العراء بحثا عن اطمئنان , جدتي , خالتي , امي , كلها ايد نساء تلقفني حينا , وحين اخر تضمني , منصتا الى تهويده حزينة (دللو , دللو) حتى غشيني النعاس .

و منذ اول وهلة وانا ارى صورتي تنعكس ضعيفة في مقلهن الحزينة .الان يبدو ذألك الليل البعيد اكثر قربا مني فروحي تهسهس رعبا عندما اذكره . وجسمي يطفو في الهواء . فذاك الليل يتنفسني تحت ظلامه مخبئا نواياه . غيوم الليل الداكنة تقطر ماء من دماء . الموت يبدو احمر يخفق بأجنحة مثل خفاش قبيح يترقبني كل ليل . قبلها بتسعة اشهر وتسعة عشر يوما , اطاح بي قدري من اقصى النجوم نحو ظلمة الرحم الموحشة . لاعنا بيضتي المخصبة بنون النسوة . قبلها كنت روح حرة اطوف بين السدم والاجرام .

اكبر , اكبر , بسرعة الضوء وهو ينطلق . يتشكل وعيي وانا ذات اربع من السنين او ربما خمس . شعثاء الشعر , قصير ذهبي يصل حتى الكتف . ثوب بالي مزركش تحته بجامه بلون اخر . مرحة الهو مع الاطفال اضرب مرة واقع مرة اخرى ثم اعود فانهض . العب مع الفتيات الصغيرات , ضئيلات الحجم , انا‌ملهن رفيعة , ثيابنا مزركشة قصيرة , سيقاننا نحيفة متربة , نجمع اكوام من التراب , نربت فوقه برفق فتثور ذرات ناعمة . نسكب قطرات من الماء , يتجانس الماء والتراب مكون عجينة متماسكة

تتشكل في شتى الاشكال , حيوانات مشوهة , اواني طبخ , اقراص خبز دائري , وكل ما ترسمه مخيلتنا الكبيرة .

انه اعداد نحو الاعمال المنزلية الحقيقية , تمرين للعضلات , وسيطرة الاعصاب على الجسد . ورشة فنون مفتوحة تحت فيء السدرة كثيفة الاغصان , اوراقها الخضراء تستمر بالتساقط طوال العام , يتبعثر عدد منها مع هبوب كل ريح مهما تراوحت شدتها , تتخللها الرياح وتزعزع اغصانها المتداخلة , وتسري بين جذعها العريض وجذورها الرطبة , مهما بدت عميقة في التربة , تيقظ فيها شعور عظيم , شعور التلاحم مع الارض التي تضمها بين طبقاتها , ومع السماء التي تحنو بنظراتها , تجعلها تستيقظ من غفلتها القصيرة . نبتة سعيدة تعانق السماء وتضم الاطفال بين احضانها الارضية الشفافة و تتشبث بعمق في الصخور والديدان الصغيرة , وبضوء اخر شعاع هارب من الشمس وهو يمضي في الزوال . لكنها في الصباح ستنهض من جديد في دوامتها الخضراء , ظلها المنساب من قناعها الاخضر يعانق الهواء . وهي تكرم صغارها بثمار النبق في كل موسم , حمراء طرية او خضراء اقل طراوة , بين الحلاوة والمرارة يختلط طعمها في اللسان . اقضي صباحات كثيرة تحت مظلتها , اعود عند اشتداد حرارة الشمس وافول نصف من النهار .

المنزل الصغيرة مظلم كعادته , يصد النور بظهره الاسمنتي . لا يسقط سوى شيء قليل من النور داخل المنزل . بياض شاحب يتسلل نافذة المطبخ المفتوحة وباب الصالة .

قبل المغيب يحل الدمس المتجانس بين زواياه , تضاء مصابيح صغيرة صفراء ترسل حزم خجولة من الضوء . لكنه يأويني . المنزل مهما حمل من ظلام ومهما بلغ من ضيق . زنزانتا الضيقة , او ساحة علاج نفسي مشترك , حيث يترك المرضى مع بعضهم دون تدخل من الاطباء .

يراقبون من بعيد وحشية الجنس البشري الحديث وتطور امراضه النفسية , فنمارس مختلف انواع جنونا واختلالنا .

وظيفتي كانت بالغة التعقيد غير قادرة على التفكك والتبسيط , فأنا الصغيرة الكبيرة , علي الاعتياد على المكوث في المنزل طويلا , كلما انضج اكثر , تقل ساعات خروجي , حتى تنعدم , فأكاد لا اخرج سوى لزيارة الاقرباء ذو الصلة الوطيدة . اصاحب والدتي في اعمال المنزل , اتعلم كيف اتقنها , سريعا ما اجيد كل شيء , خلقت لها , اجلي الصحون , اكنس الغبار , افرك الملابس , اعجن الطحين , انه واجبي انا الابنة الوحيدة في البيت .

كتب , اقلام , احملها واضعها في الحقيبة . اغير ملابسي . اتناول بعض الخبز ابحث عن الخيار , أي شيء سيفي بالغرض . والدتي مريضة على الدوام و تبقى ملازمة للفراش . لا اعرف الوقت لكنني متأكدة انه الصباح . الشمس ظاهرة . الضياء يبسط رداءه فوق الارض .افتح الباب وانتظر التلاميذ . اخرج بعد مشاهدتي عدد منهم ينطلون في الزقاق . اسير وحيدة اعبر الطريق , انه طويل بالنسبة للأطفال . افكر وانا اسير, وانا اشاهد سعف النخيل يلوح اخضر من بعيد .

ربما هناك غابة , هل يجدر بي الهروب باتجاهها ؟ لكن ربما تسكنها الوحوش , انها تخيفني ايضا ان وجدت . امضي على مضض بعد ان اتخيل اشكال الوحوش . اقضي ساعات المدرسة , جذر , ساق , اوراق , يلقنوننا كل شيء واي شيء تقريبا . يرن الجرس عند الثانية عشر وثلاثون دقيقة . اعود متمهلة في مسيري , اتسكع بين الازقة , لكن في النهاية اصل الى البيت . اطرق بخفة , احدا لن يفتح قبل خمسة عشر دقيقة . ازكي الوقت مترنحة فوق التراب قرب المعدن , الشمس في اوجها , البرد يلف الزقاق لا شيء يهم حقا , انتظر ان يفتح الباب نفسه .

اكبر , اكبر اكثر . .. التؤامان بالفعل قد انضما الى والدي في الورشة , يا لها من رفاهية ان اغدو وحيدة دون رفقة من احدهما . ان يكون المرء صغير لا يعني ان تعفيك الحياة من مشقاتها , فهي لا تغير سلوكها تجاه احد , لكن الصغار ليسوا اغبياء , انهم فقط يجهلون حجم هذا العالم , ويحجمون عن ابداء ردود افعالهم الحقيقية , بالأحرى يؤجلون اظهارها الى ما بعد البلوغ . تتحول الى تصرفات ثابتة في ذواتهم , لكنهم دوما يتساءلون , لماذا يولدون في عالم مليء بالغباء كي يهرموا ويموتوا مصبوبين في قالب حجري ثابت . نطرح هذا السؤال ببلاهة , لكن نرى الخيبة مرتسمة في وجوه الكبار, الذين يثبتون ان العالم غير جديرا ان يعاش .

في الظهيرة اخبو دون حراك خائفة من صفعة تقدم من حيث لا اعلم . اسكن مثل نبتة . ندخل في عالم السكون الابدي كي لا نزعج ابي . سلطته الذكورية هي اليد العليا لنا , اليد التي تحدد خياراتنا فمنه النطفة التي خلقت هذه الحياة , وعلينا ان نشعر بالامتنان لكوننا نعيش ونحن اموات لا لشيء سوى لكوننا ببساطة ولدنا .

التؤامان يغطان في النوم , والدي مضطجع في سريره . اراقب باطن قدماه من نهاية السرير , من فسحة الباب المفتوح , اتوارى خلف الجدار , بارزة بنصف عين , اسرق نصف نظرة , الاحظ سكون البدن وايقن انه نام . تعاودني السكينة والهو مقتعدة ارض المطبخ , في دمية خرقاء , امثل انها صديقتي , تبادلني الكلمات وننسج عالمنا . بعد الظهيرة يعاود والدي الخروج , والتؤامان يلعبان في الساحة القريبة مع الصبيان .

عندما يهبط الليل , يأتي معه ثقلة , كجدار اسود صلب يحكم قبضته . افكر ان والدي تهرب من عقله فكرة ولادتي , حتى يتناسى

وجودي كجزء من الحياة , وعندما يلمحني في أي مكان , تباغته الفكرة , ويأخذ بضع لحظات لاستيعابها كحقيقة عليه تقبلها . الحزن والخيبة يتصارعان في معركة دامية , تيقظ به شيطان رجيم , حيوان وحشي مفترس ينبثق عنوة من احشائه حتى يلبسه , وحش بدائي اخضر مثل ضفدع كبير , يتسلل مسامات ابي حتى يغلقها , متزاوجا مع اثر الخمر الخبيث .

اقول لنفسي (انا نبتة , ساكنة لا اتحرك)كي لا استفز هذا الكائن , اغمض جفناي واتمنى لو افنى في عراء العالم الحقير .

لطالما ابديت سرا اعجابي بسرعة خلود التؤامان الى النوم , كأنهما كيان واحد بجسدين منفصلين دون وعي او ادراك . فراشي ممدود بجانب الجدار , ابقى لصيقة به , هكذا تخبرني امي . التصق بالجدار البارد فيتشرب جسدي برودته حتى يولد الاحتكاك دفء كاذب يغلفني .

الليل هو منبع خوفي , من رياح الليل الصافرة اجفل . انصت اليها وهي تصيح في صراخ متقطع , تيقظ الوحوش المتوارية عن عيون النهار , وتحثها على اطلاق زفراتها الحارقة . اكاد اشعر بها قرب بشرتي , انفاس ساخنة تلهب اوردتي , يده الملساء تتراخى كي تعصرني , تدخلني في الخيالات , تنفخ في احلامي حياة , ويعطيها خلود الليل الابدي . الف جسدي في اللحاف وأخبئ وجهي تحت ظلامه واغفو دون سهاد .

لا احلام , ليس لي احلام في اليقظة , وعندما انام لدي كوابيس , ملايين منها . اعيش الواقع واتقبله قبل ان اسحق تحت عجلاته , ما

يهمني هو ان يمضي اليوم مرتحلا حاملا معه بقاياه , وان يطول الليل مهما بدا وحشي وان يجعلني من رعاياه , فلا رغبة لي برؤية اول البياض بشارة بالنهار الجديد , فالغد لا توق يحملني اليه ولا لهفة لدي لأي كائن فوق ارض الرب .

اود ان ابتعد عن الحزام . انه خصمي , يتحداني في نظراته اللامعة , يبتسم وهو يقفز في الاثير , ويصدر قهقهتا جنونية متأرجحا ببطء واستعلاء . ارخي له جسدي باستسلام , وانا بذألك اتحداه , الحزام وليس ابي , هو يريدني ان اقاومه , وانا اتمدد , لينة , جسدي متحد مع العالم كتلة واحده منه , ابنة من بناته البائسات . بذألك استقبل الضربات , كطريقة للتكفير عن ذنوبي كلها , وذنوبي كلها تجيء من اثم اعظم , فانا اعترف بان ذنبي هو ولادتي انثى , اردد (انا نبتة , انا ساق كرسي خشبي) اصك اسناني مغمضتا عيني , استشعر الألم وهو يذبحني , متخيلة ان في أي لحظة ستنسحب اشباح الظلام , تترك جسدي متصلب مثل منحوتة . يعود ابي يحمل نفسه نحو الغرفة . امي لا تراقب بل تجلس في ركنها المنزو في الغرفة تستمع من بعيد , لا لصوتي , فليس لي صوت فانا شيء جامد في حينها بل صوت الحزام وهو يلوح منتصرا وأنا لست سوى نبتة .

في تلك الليلة اتمدد ومعي وجعي , متقهقرة منكوسة الراس , نحو الفراش , ممددة على بطني اتجرع المي فهو الم كل النساء .

ولكي اكاشفكم بكل الحقيقة فعلي ان اعترف , انني لم اكن يوما ذكية , ولم امتلك كثيرا من الافكار, بل لطالما اتسمت بقليل من البلاهة وكثرة الشرود . ولم اكن يوما ممن يجيدون قراءة الكتب الفلسفية , او املك

فكرة واضحة عن شيء اطمح لوصوله لاستحالة هذا الشيء . ولعل كل ذألك يأتي من حقيقة كوني مكشوفة .

ليس هناك ما اخبئه بين ثنايا روحي سوى مشاعري المكبوتة . الجو كثير التوتر , وعندما يحل سكون في البيت فهو حتما سكون يسبق العواصف التي توشك ان ترتفع , والبراكين التي توشك ان تنفجر , فما بين المرض الذي يلازم امي والخمر الذي يصاحب ابي , كنت مشتتة ما بين عالمان .

ذكرياتي كثيرة ويصعب ذكرها . البيت يلفه الخوف لحظة قطع قدمه الكبير داخل عالمنا الصغير. وقد اعتدت بلع لساني واغلاق فمي , بل لو استطعت ربما لأوقفت الهواء المتدفق بين رئتاي , وكتمت موجات الزفير والشهيق . وللحق ايضا فانه كان بذات المزاج الحالك تجاهنا نحن الاربعة , الا انني كنت شبحه , انعكاس لشيء دفين لم يستطيع ان يمحوه من ذاكرته سوى ببريق الحزام , مثل تذكير بإثم قاتل . كم تجرعته صامته . اراقب خطواتها البطيئة تذهب مبتعدة وصرير الباب وهو يغلق . لا اذكر ملامحه فلطالما لفه الظلام , يبدو كصورة باهته مشوهة ممسوحة , انسكب فوقها كوب من شاي ساخن فطمست معانيها وبقي شبح ظلها الباهت .

مات وبقيت ذكراه تخترقني مثل سيخ ساخن يطعنني كل يوم . يقولون ان الاباء احرار في فعل ما يشاؤون في ابنائهم فهم ملكهم مثل أي قطعة في المنزل , فنحن من نطفة من اصلابهم الدافئة نحمل شيء من حزنهم

وكثيرا من انتكاساتهم .ان عين القدر لا تطرف , لا تنام لا تغفل , بل لطالما ابصرت تلك العين وهي تخترقني لا جسد بل كروح , كيان مستقل يوما سيتحرر . واقول ربما , ربما هناك في نفس الارض وذات السماء , نساء وفتيات يقاسين ما اقاسي , ويتحملن ما هو اسوء ربما . وبما انني حبة رمل فما قيمة حبة واحدة في بيداء من الرمال .

رحت اجري في تلك الاعوام التي تلت موته المفاجئ , وانني اذا ما حاولت استحضار كيفية انقضائها او فيما كنت فاعلة ابانها , فان لا شيء يحضرني منها , بل كأنها اقتلعت اقتلاعا من وعيي دون ان يبقى منها اثر. واني لأعزيه ربما كما يقولون لصدمة نفسية , فلطالما كنت ابقى منتظرة رجوعه من ارض الاموات , وهو ساخط اكثر, يحمل سياطا اغلظ ليمررها فوق جسدي , فلم اكن مصدقة لحادثة موته بل احسبه زيفها , وكل ما اذكره هو خروجه في الصباح الذي طوته الاعوام بين ثناياتها , كيف انه كان حي اكثر من أي من الاحياء , وفي ساعات تلتها بات ميتا . جثة منحلة سرعان ما تكالب حولها الدود حافرا طرق دقيقة فوقها وتحتها , وان ما انصب في ذاتي هو الانتظار الدائم والترقب , فتراني اصغي بانتباه كامل لأي صوت واي خطوات , وان ما من شيء افعله من اجل وضع حدا لذألك الانتظار , فلا يستطيب لي شيء اكثر من صرف نظري من تلك الهواجس الخفية , التي تكبر ببطء بالتدريج الى ان تكون مستقلة بحد ذاتها , واقوى مني وان ما من شيء على الارض من شأنه صرف ذهني عن تهيوأته , سوى خوف اكبر واقوى قابل لكسر تلك الهيمنة او استبدالها .

سرعان ما نضجت واصبح لي جسد النساء . الجارات يخبرن والدتي انه من الافضل بقائي في المنزل . والدتي تأمل اختيار زيجة مناسبة . ارقبها تومض برمشيها وكأنها تعد ما بقي من سنين , هل تعلم الايام الباقية ؟ أتساءل ! تقول ان عيون الرجال لها لعاب يسيل عند ابصار جسد النساء .

تخبرني الا اخرج , الا تلفح الشمس بريق بشرتي الوردي , او تلاحظ النساء جمالي اليافع فتنمو في نفوسهن الغيرة . اقول أوليس الارض مليئة بأجساد النساء . اذعن على كل حال لا ارغب باي مقاومة .

مرحا للأيام كيف مرت , مثل قطرات ماء ابتلعتها ارض عجاف . استيقظت ذات صباح لأجدني ذات ستة عشر عاما . هواء الصباح تطيب له نفسي . والدتي ممددة فوق السرير , لا رغبة لها بالنهوض , لا شيء في الصباح يغريها على ذألك . قلبي يوجس خيفة , اخاف ان تغمض جفنيها فلا تفتحهما مجددا , ان تنام فلا تستيقظ مطلقا , ان اناديها فلا تجيب . شراهتها للدخان تقل ثم تنعدم . حفظت مظهرها المعتاد طوال اعوام , ثوب قصير , كوب شاي ساخن في يد , وسيجارة في يد اخرى , تتلذذ بمزجهما معا . يطيب لها طعم النيكوتين والشراب الساخن , تقول انهما يهدئان اوجاعها , ويجعلانها تشعر بالحياة . حذروها من الدخان , انه مضر لمن هم في حالتها , لكنها لا تبالي , نشاء ورمها على كل حال قبل ان تعتاد السجائر . تقول انها شعرت فجاءة بألم مبرح , حسبته الم حيض , اعزته لاحقا لجنين ميت ربما واجهاض وشيك . لكنه استمر اسابيع دون ان يتلاشى , اضطرت في نهاية الامر لزيارة الطبيب . تكره الطبيبة , لا تحب ان يعبث احدهم بجسدها , ان يخبرها بأوجاعها , ان تجبر على اخبار احدهم بكل شيء , موعد نزول دمائها , حرارتها المرتفعة , شهيتها السيئة , حبها للسجائر , مواعيد نومها , ونوع طعامها . الاطباء يحشرون انوفهم في كل شيء , يخبرونك انهم يعرفون كل شيء , وفي نهاية الامر تدرك انهم حفنة حمقى , يمصون دمائك , ويفرغون جيوبك . نصحها احدهم في استئصال الورم مع الرحم , انكرت رأيه البغيض وشتمته بعد مغادرة العيادة , واخبرت جميع من تعرف انه اسوء طبيب , قالت انه يريد ان يجردها من انوثتها , ما قيمة جسدها من دون رحم , اوليس هو ما يثبت انها انثى , شيء تشريحي . اقترب من سريرها دون اصدار صوت , لكنها تشم رائحتي في الغرفة , وتحسب خطواتي , وتعرف مقدار تباعد ساقاي اثناء المشي , وما ان اصل نهاية السرير اجدها ترفع يدها وتومئ لي

, تخبرني انها مستيقظة ولا شهية لها . اجلس وحيدة اشاهد نور الصباح , واتناول الفطور .

والدتي لديها العديد من الصديقات والمعارف , الذين يعلمون رغبتها في ايجاد زوج مناسب . في شهر اب وقبل بلوغي السابعة عشر , خاطبتها احداهن في مكالمة طويلة , بعدها حضرت الى المنزل برفقة سيدة ما , وجلسن في الصالة في حديث طويل . عرفت عندها ان الامور ستتغير , فوالدتي تحس الوهن , والضعف ينزل بها كل يوم .

التؤامان ينضجان لهما جسد ابي لكنهما اقل قسوة واكثر اتزان . يبادران في شراء الملابس والحلويات . يبدوان عطوفين . نعم انا محبة للثياب, لمستحضرات العناية بالنساء , عطور , مرطبات , احمر شفاه , كل شيء اخر , لكن شغفي الاكبر هو التلفاز , تلك الشاشة الصغيرة , محملة بالألوان , تكشف عن عوالم اخرى , افكار , افعال , كل شيء يبدو مختلف وجميل يسمح لي بنوع من المتعة , لكن في نهاية الامر انا من انا , تحت الصالة الصغيرة المغلقة , مثل ضيف خيف سرعان ما يغادر . شيطان الخوف يملئني و يجعلني مثل حفرة , ستتغذى اطيافه من خوفي . تقول امي انني قريبا سأتزوج , شاب متعلم ولطيف درس تعلمته من اخفاقها .

عصر يوم ما حضرت السيدة الغريبة مجددا . طالعتني بنهم واعجاب واطالت النظر في تفاصيلي , تتكلم بصوت خافت , سيدة تدرك تماما ما تريد وكيف تحصل عليه , تناقشت هي ووالدتي حولي اقول انا نبتة لا

اتدخل في النقاش . بعد عدة ايام عادت مع ابنها , ولم ارفع بصري لرؤيته , احساس الدماء وهي تثور في جسدي , تجمدت , سهم قاتل قد اخترقني , انا هشة مثل منزل من رمال , لم تمضي سوى عدة اسابيع , وغادرت المنزل .

انه الخريف . لونه مصفر , رياحه تزمجر , يرسل النفس في كآبة . بالأمس ولدت , استغرق لحظة لأتذكر , في أي فصل كانت ولادتي ؟ اوه , انه الشتاء . هل كانت ليلة مظلمة , ام حضر ضوء خفيف من القناديل ؟ هل تضوعت الغرفة بالرطوبة ؟ برائحة دماء ثقيلة ؟ لما كل شيء يتوسم بالدماء ! دماء النفاس , دماء الحيض , الدم قربان , هكذا اعتقد .لكنني الان ...

اعبر العتبة , مغمضة الاجفان , خفيفة البنيان , صوتي مكتوم , يداي مسبلتان كالميت , ميتة الجسد مثل مومياء محنطة ملفوفة بثوب ابيض حريري مثل تلال بيضاء . مفرغة الاحشاء , كأن سائل حمضي سار في جسدي وجعلني جثة .

اقول لنفسي ان ما بين الامس واليوم هناك خيط يمتد منذ اول لحظات لأمنا حواء . خيط محمل بالموروث البشري , غير قادر على

القطع مثل حبل سري يربط بين كل النساء . ركام البشرية وعذاباتها يجتمع داخل ذهني , وعندما اموت سينتقل نحو عقل اخر ليشقيه ويهشمه . وانا بذألك ارى نفسي كامتداد لكل ما مضى . ولست سوى قطعة اؤدي الدور الموكل الي , احمل الجينات الملعونة , لعنة التساؤلات دون اجابة . لكنها تخبو داخلي , لا أجروا على طرحها في العلن , فهي ستكون اشبه بهرطقة تستحق الرجم بالنيران . ببساطة لا ارغب في اضافة أي تعقيدات , هكذا انا استسلم .

مع الايام والدتي ازدادت ضعفا , بدنها نحيل , عظامها ناتئة , بشرتها صفراء شاحبة تضرب نحو الخضرة , عينيها غائرتين مثل كرتان داخل حقل اسود , فوهتان داخل ظلام دامس , وشيء من ضباب اصبح ينمو في ذهنها ويشتتها , تبدو لكل من يبصرها انسان مريض , قريب من حافة القبر , دقائق وتصبح من ارواح البرزخ .

تقول السيدة لبيبة , على الزوجة ان تكرس نفسها لإسعاد زوجها وخدمته . هكذا اذن علي تكريس نفسي ! لم اكن اعيش يوما سوى للأخرين . اقول انني سأخفق , لا رغبة تمتلكني في تكريس روحي وبدني من اجل اسعاد اشخاص غرباء . كان متوسط القامة , متزن , هادئ الطباع تتبدى على وجهه علائم الرضا او ربما هو فقط يوحي بهذا . نبراس تكبرني بعدة اعوام , مختلفة او غريبة , تصدح بغرابتها وافكارها بصوت مرتفع وتعلن لأمها رفضها لكل ما هو سائد . ايار يفضل عدم التدخل في أي شيء .

ان لكل ما مضى من الاعوام ركن منفصل يحمل ذاته . وكان علي ان ابداء فصل جديد , وهنا قد بدا كل شيء . السيدة لبيبة تأخذني الى

الطبيب بعد ثلاثة اسابيع , كي تسرع الحمل . تقول انها ترغب في رؤية احفادها يحومون حولها . امتلكني فزع كامل , كيف لكائن مثلي ان يصبح ام ! واي مأساة ممكن ان تولد ! هل سأكون كائن عاقل اذا ما انجبت انثى تحت براثن هذا العالم ! اصبحت آنذاك شخص اخر , او ان ذألك الكائن الذي يسكنني بدا بالظهور.

ة ارتعشت مثل شظية ساخنة مرتدة من فوهة بندقية عند حملي بأول طفل . صرخات طفل تنمو بداخلي تتعالى دخل اذني . انكسارات روح تتكدس داخل روحي , روح اخرى تنسلخ , جنين نابض يقبع في ظلمتي . ها انا دخيلة هذا العالم توشك ان تولد غرباء دخلاء لجحيم الدنيا . رفض عقلي الوقائع التي فرضت نفسها علي . انا الكائن الضعيف . ولم يكن بإمكاني انكار تلك الحقائق , مثل حقيقة شعوري بالخوف .ولم يكن باستطاعتي تغيير سلوكي البارد او ان ابدي راي صريح بأفكاري . كبحت كلماتي وغصصت بها , وخبئت نفسي عميقا بين الجسد . فكنت انا الجنين داخل نفسي وان الهيئة التي كنتها انما كائن اخر تلبسني في محاولة لجمع شتاتي المبعثرة بين قطع وافكار اعجز عن نظمها .

الروح التي نفخت في رحمي اعلنت انبعاث حياة جديدة . شيء اخر سيضاف الى ذاتي . روح تنسلخ من روحي , قطعة لحم صغيرة تنضج داخل لحمي . شيء ليس لي بل كائن مستقل بذاته . هل هو شيء اعتيادي ! المعجزة التي تحدث في الظلام . رحلة الطبيعة داخل اجسادنا .لكنني ابهت وانا اتقدم في شهور الحمل . عند حواف عيني ترتسم صور .

اراقب نفسي وهي اخذة بالابتعاد . تعلمت خلالها ان انصت الى نفسي . اكتشفت عندها الصوت الضعيف من الكائن الذي يسكنني ,أي ان هناك شيء ما بالفعل , تحت ابداننا وخلف ما نبديه في العلن . احلام تذبح على دكة عالية داخل معابد التضحية , تضحية في سبيل استمرار الحياة اليومية . قرابين من ارواح البشرية من اجل ديمومة الحياة .

هذا الضجر السافر يحرقنا , الكائن البشري المستهلك . للصوت نبرات مختلفة متقطعة . يصمت احيانا ويرتفع احيانا اخرى , قد يبدو مرة مثل صوت قطرة ترتطم ببلاط , واحيانا مثل موجة عالية ترتفع حتى توشك على ضم القمر متحدة مع اطراف السماء . رياح البحر الهادر تحيط بي .

اوشك احيانا على اطلاق صوت , مفلتا العنان للكائن الذي يسكنني , الا ان الخوف اكبر , عندها اشعر بذنب عظيم وانا ابحث عن تساؤلات في اشياء تافهة . اقلب كتب نبراس مستعيرة اياها وانا مضطجعة فوق الفراش ابدد ساعات الحمل التي تبدو ثقيلة . الكوابيس تتصاعد مع الحمل , حتى بعد ادراك ان الجنين ذكر , اتحرر من فكرة المولودة الانثى لأسقط تحت قبضة المولود الذكر الذي سيكبر ليصبح ذكر بامتيازات فوقية .

استيقظ فوق بشرتي قطرات من العرق , بالكاد استجمع انفاسي اللاهثة , بالكاد يصل الهواء نحو الحويصلات الهوائية , شاهدت كابوس جحيمي

اخر , عشته بكل ما يحوي من معان و وحشية , ربما انفصلت عن بدني وانتقلت نحو بعد اخر . الجحيم الاسود المحمر , سحب سوداء وسقف دخاني , شياطين الجحيم يتأملون لحمي وهو يذوب , يسيل ويتقطر , ماء حارق , الارض تتهشم , شعري معقود كحبال حول شجرة , جسد دون اوصاف , فقط قطعة حمراء دامية .

انه تأثير ثرثرت الجارة ام احسان , عكازها الخشبي يسند جسدها الخاوي , جلدها البني مبقع بحروق الشمس , انفها الطويل يقسم وجهها الطويل الى نصفين قبيحين ويجعل منها كائنين منفصلين . تروي على لسانها الطويل الحكايات , تؤكد ان النساء هن اغلب واردي الجحيم . النساء حطب جهنم السوداء , سيعلقن من خصلهن الطويلة , واثدائهن الطرية , ستوضع سلاسل نارية حول اعناقهن و اقدامهن , سيلتف حبل معقود حول ارساغهن الرفيعة , ستصب نيران ثائرة داخل افواههن وتذيب اللحم وتفصله عن العظام . باختصار سنتحول الى فرن حراري بشري . كم كرهت كوني انثى وانا اسمع حديثها , لما علي ان اعيش الجحيم بكل انواعه لا لشيء , اليس من الاسلم ان اكون ذكر , لكن الامر خارج سيطرتي يتطلب تدخل في الاطوار الانقسامية الاولى قبل تحديد الجنس .

بين الجدران البيضاء للمستشفى الحكومي شرعت اكتم الأمي واتهادى . فوق الكرسي المدولب وانا مدفوعة , اخوض ساعات من المخاض

واشاهد النساء من حولي , ثم تقرر القابلات الاستعانة بالطبيبة النسائية , التي تلقي نظرة وتدرك عدم امكانية توسع الحوض وتتخذ قرارها :

من المحال ان تلد بشكل طبيعي , عظام الحوض ضيقة سيختنق الجنين وتعاني الامرين , اخبروا الزوج سيكون علينا اجراء قيصرية.

ثم اتوجه الى غرفة العمليات برائحة نتنة . فوق طاولة العمليات اغمض جفناي وافتحهما , لا رغبة لي في انجاب أي مولود ذكر او انثى , لكنني هنا كزوجة تحمل طفل زوج صالح , سيحمل وليده بين ذراعيه , ويعطيه اسمه واسم والده ونظرة عينيه وطائفته . ببطء استنشق رائحة المخدر النفاثة وانتشي , احسها وهي تتسرب في , تسري كنمل في بدني , وقبل ان اغمض عيني وانفصل , الاحظ عينين الطبيب المخدر , زرقاوين كشذر , وابتسامته فاترة , لابد انه كان على وشك المغادرة ثم اضطر للمكوث . يقول بصوت واضح لا يقطعه صوت :

عد معي , ثلاثة , اثنان ..

لا اصل الى واحد ابدا . جسدي ميت , عقلي ميت ايضا , لا افكار تشوشه , لا ذكريات تقلقه , لا اوهام تطارده , استكن الجسد , سار السائل البارد وامتزج بين اوردتي , العضلة الحمراء تنبسط وتنقبض , تضخ بقوة الدماء , تجعل جسدي حي , انا رهن اشارتها , وتحت عين الرب . ايد تخرج الجنين من فتحة في الجسد . المشيمة تطرح خارجا , وانا خفيفة مجددا . اخر ضوء تلقفه مقلتاي ويستجيب له عقلي , هو اول ضوء القطه بعد استيقاظي , المصابيح الدائرية في السقف , مشعه , بيضاء , صوت عجلات السرير , وهو يسير في الممر , الغرفة الصغيرة , ثم السرير الاملس ورطوبة الدم القاني , يا لله صوت ارتعش له , صراخ ... طفل ... ماذا الان ! انا ام...

الفصل الخامس

غادر الغريب بناية الفندق متوجها صوب منزله في الجهة الاخرى المقابلة للفندق . امام المنزل يربض كلبان اسودان اللون , ما ان ابصرا هيئته تحت وهج المصباح وهو يتقدم باتجاههما حتى نهضا وشرعا بالنباح . ربت على راسيهما , توقفا حينها عن النباح وعادا الى وضعهما الساكن وهما يراقبان الزقاق .

خطت قدماه المدخل المظلم , ثم الغرفة . بعد ان غير ثيابه تسطح فوق السرير , رنا ببصره نحو النافذة كأنه يترقب شخص ما او ربما خبر , لكن الظلام كان يرتكز بكليته , واضواء المصابيح تبدو باهته وضعيفة , انه هناك بين جدران الغرفة الضيقة , ليس لديه الكثير ليقلق بشأنه , لا عائلة تثقله , او علاقة تقيده , انه حر كما طائر غريب , يجوب الافق محلق ومهاجر, يحط رحاله اينما توقفت جناحاه .

داخل ذهنه يحتفظ بكثير من الذكريات , وكلما استحضر واحدة , احس بوخز في الروح وتصلب في البدن . وضع الوسادة وتقلب على جنبيه محاولا الاسترسال في النوم , ومحاولة لطرد التوتر العصبي , الا ان الامور ليست هينه عليه كما تبدو , ففي كل ليلة يعيش ذات الحلم . يوم عصيب يعيشه كل يوم بكل ما يحمل من تفاصيل .

حدقت عينيه بتركيز مبهم نحو الصورة الصغيرة المعلقة على الجدار . لم يكن هناك من نور يضيء الغرفة , لكنه يحفظها , ويسلط النور من عينيه فوقها, وهما تحدجان نحوها ككل ليل . مضى خفيف نحو النوم , حتى تلاشى ثقل بدنه . علقت الصورة في المحجران قبل ان ينغلقان , ولم تكن تلك الصورة كما كان يذكرها وكما كانت عالقة في ذهنه , بل صورة اجمل , أمه مبتسمة , ضفيرتيها ترتميان الى الامام , ثم يعود نحو ذألك اليوم بكليته .

متربع على الارض الباردة قرب السلم , في يوم من ايام الخريف . ترامى الى مسمعه اصوات والديه من خلف الباب المغلق . الجدة تجلس في الزاوية تغزل الخيوط في مغزلها الخشبي , الامر معتاد لكلاهما , هو يدرك بأعوامه الصغيرة ان الحديث مع والده ارهق من الحديث مع جدار . خرجت الزوجة بقوامها الممشوق وبشرتها السمراء نحو الصالة , أملا في وضع حد للشجار . اندفع خلفها الزوج بهيئته الكبيرة , عريض المنكبين , طويل القامة , ظهر خلفها كظل اسود عالي .

راقب الطفل ذألك الجدار المندفع بهيئته الادمية . لطالما وقفت امه كسد منيع تبعد عنه الظل والجسد . والأيد التي تود لو تلحق به قليل من الاذى , تنحي به بعيد . احيانا ترسله ايام واسابيع نحو منزل والديها في الريف . الا ان ذألك اليوم قد تثبت في الصحف ولم يكن شيء ما ليزيله , عليه ان يكون شاهد على ما سيحدث , ستحفر هذه الذكرى الاليمة بين اضلاعه , ستوسم اوجاعه , سيعيدها كل يوم , محال ان يتحرر من طفولته . فقد قررت جدته لأبيه وهي تمرر اناملها فوق المغزل ان شيء ما سيحاك , وان لها رغبة اخرى . قالت له قبل ان يدخل الى الغرفة بضع كلما قذفت في روحه سم . اخبرته انها ستتركه ذات يوم وستأخذ الطفل , يجب وضع حدا لها . وحتى عندما اقبل عليها وهي تجلس فوق السرير, وهو يحمل في وجهه الغضب , اخفت توترها بابتسامة . وعندما انتقل الشجار الى الصالة كانت ترى انه شجار عابر كغيره سيمر .

وبسرعة مفرطة سقط الجسد على السجاد الصوفي الاحمر . كان وجهها المحمر بنوبة الربو الحادة يبدو كانعكاس لوني للسجاد المفروش .

وبينما يقف الزوج كالطود متعدد الظلال , سعلت سعال قاتل يوحي باختناق , وتحول لونها الى احمر ارجواني . نازعت محاولة اخراج الكلمات . نهض الطفل منطلقا عندما ابصر وجهها المحتقن وفمها المفتوح . بادر الاب في ضربه بركلة واحدة معيدا جسده الصغير قرب الدمى والالعاب . يده المحمومة تبدو ملتصقة مع الارض بعد ارتداده بسور السلم الحديدي , وجسده مثقل بالخوف والندوب . شله الالم من الحركة , وكان عليه المشاهدة . لم تقاوم بل استسلمت ببساطة .

النساء يستسلمن بسهولة , يؤمنن ان قدرهن الهوان . استقبلت الضربات والركلات كجزء لصيق غير قادرة على ازاحته . صوبت نظرها نحو الصغير مودعتا اياه بابتسامة دافئة لصقت في ذهنه الى الابد . بدا ان عينيها قد قاومتا الموت في اخر لحظة حتى تبصره , لتكون صورته اخر ذكرى لها من الحياة .

عندما توقف الزوج عن الركل مدركا انها قد توقفت عن الحركة , زحف الصغير بجسده , بيد ترتكز فوق الارض واخرى مكسورة , يحملها معه كعبء دخيل . كان جسدها لازال متصلب , وكفها مقبوضة . عند نقلها الى المستشفى بعد ان اجتمع الاهل والاعمام , كان قد مر بضع ساعات على الوفاة , واتفق الجميع على انها ماتت اثر نوبة من نوبات الربو . وكذا كتب تقرير الطبيب الشرعي , متجاهلا الكدمات القديمة منها والجديدة . قال الجميع انها ماتت ولا جدوى من قول الاحاديث فما حدث قد حدث . كان المعزون يواسون الزوج الارمل , وامه . أوكل بالطفل الى جداه لأمه , اللذان حملا احساس الذنب لتجاهلهما شكواها المتكررة . اوكلا الى نفسيهما مهمة العناية بالطفل للتكفير عن ذنبهما . هكذا كبر في الريف يبحث عن شبح امه بين ظلال النساء واصواتهن الناعمة . وعندما ادرك رحيلها الى الابد وان ارواح الموتى راقدة في بعد مجهول , فتر حماسه من الحياة , بل زهد فيها وانطفئت عيناه وروحه , واصبح ضيف على الحياة بوضعها المؤقت . بعد بلوغه العشرون غادر

للعمل نحو العاصمة . ساعده جسده العظيم وطبيعته الصامتة , كان يعمل حارس للمخازن الكبيرة , يحمل البندقية ويجلس مناجيا الليل طوال ساعاته . وبعد ان وصل له خبر وفاة الجدان اثر الشيخوخة , عاد ليحمل فوق كتفه الجنازتان , ويراقب الجسدان وهما يواريان الثرى . لم يرحل مع الراحلون , بل تشبت في الوهم و راقب الخلاء وهو يلتهم المكان , والظلام الكثيف وهو يحضر . غادرت كل عائلته نحو الجزء الاخر وان النجاة من الحياة حتما عبث مر . باع جزء من الارض التي تركها له الجدان , وابقى على قسم اخر والمنزل .

في الاحلام كان يسير في ارجاء المنزل القديم . وكان يعيش الحدث كل ليلة , امه وهي تحتضر , جدته وهي تجلس في الزاوية . وخيل له ذات ليله انه هو يحتضر , يتشنج ويتصلب , وتغص في حنجرته الكلمات وتتلاشى . يدخل في نوبات شديدة من صرع وهمي, فيغدو صريع فوق السرير متشنج العضلات . مسرحية مأساوية في مسرح وهمي مخرجها الذهن المثقل , لم يتعافى من الصدمة قط , لازال يستشعر حرقة العظم المكسور .

دائما ما يحاول اعادة تشكيل الصورة مبعدا عنه صورة الاب والجدة التي كانت راضية كل الرضا , وهي تشاهد الذكر الذي لفضه الرحم في شهره السابع وهو يؤدي دوره المألوف . شاهدها وهي تكمل المسرحية امام الحشود المتجمهرة , قرب المغتسل صراخها يعلو وعينيها تدمعان . تحت الشمس في المقبرة لاح لعينيه منظر جريء , اغمي عليها وانكب حولها الحضور . شاهد الصغير الكفن الابيض وهو يدخل الحفرة , والمجرفة وهي تلقي التراب فوقها . وصمهم بالعار كلهم اجمع , الرجل المسمى والده , تحت القناع البشري هناك حفرة تستوطنها العناكب والحشرات كمكب للقاذورات . ماتت ليقف تلك الوقفة , الذكر المسيطر . وعلى مسافات متقاربة من القبر كان يقف الافراد حول الارمل الذي سيتزوج بعد اربعة اشهر امرأة تماثل الجدة بالصفات والتي سرعان ما ستموت على اثر الشجارات , والجدان الطيبان يعتبران نفسهما شريكان في الجريمة .

قبل الفجر يستيقظ الغريب ,. جسده لايزال متشنج واعصابه مشدودة من العواطف المثارة في الحلم . وفي الصباح تهب رياح دخيلة , مثيرة الشكوك في غوره , ومعها تحمل رائحة بداء اليوم . الزائر الجديد سيثير زوبعة , ليس في الفندق فحسب بل في الزقاق , ليس في الزقاق وحسب , بل في عالمه ...

تركض الساعات . يحل ضوء المساء . بخطوات صغيرة , على رؤوس الاصابع , قطعت جميلة الممر. النساء يتبرجن تحضيرا لأمسية من أماسي الخريف . الضيوف لم يتوافدون بعد . اسرعت في المسير ثم الركض قاطعتا الزقاق . الكلبان بهيئة سودا غير مباليين . سرعان ما ارتطمت بكتلة , ووقعت على الارض , حملها الحارس كاظم ذو السادسة والاربعون عاما , وعاد بها نحو الفندق . وقفت العمة المسؤولة عن النساء بتنورة قصيرة سوداء وقميص حريري احمر :

هربت ؟

نعم , ستحاول مجددا , لكن ليس الليلة بالتأكيد وعلى اية حال عليك التأكد من عدم اثارت فضيحة امام الضيوف .

حسنا , سأفعل , لكن لا ضير من بعض التسلية . دائما ما يحاولن العودة موصومات بالعار , مع انهن يأتين بإرادتهن الحرة . صدقني انهن يرغبن في اكراههن على المكوث , وعلينا القيام بدورنا .

افعلي ما تشائين , لكن دسي لها الحبوب .

سأفعل , سأفعل لا تقلق .

صباحا عندما استيقظت , كان نظرها فيه غشاوة , وادراكها للأشياء اضعف . النافذة الصغيرة ترتعش بريح الصباح وخيط من ضياء الشمس يخترقها نحو الشابة التي تطالع الاشياء بغرابة وهي تدرك انها ليست في غمار حلم حزين .

امام بيت الغريب يجلس الصديقان على كرسيان من البلاستك . يتضوعان انفاس الصباح وهدوء الزقاق .

قال كاظم بصوت ضعيف : بالأمس حاولت الهروب .

اجاب الغريب مرسلا نظرته صوب النافذة : ستحاول مجددا .

انا مرهق , سأذهب للنوم , ابق يقظا .

بالطبع سأفعل

الفصل السادس

تنقض حولي الافكار . تنبثق من مصدر واحد , انه هلعي . الخوف لم يعد مجرد فكرة , لم يعد ذألك الكائن الجنيني , بات ناضجا , وحشا حقيقي , يغزو كل ركن من روحي . لم يعد حشرة تقتات على أوجاعي , نمى ببطء مثل بذور تنمو في ظلمة الارض الرطبة . انزلق من حلم الى حلم , مثل قنديل بحر رخو , لكن في الاحلام حزني يزداد كثافة , يعود بي نحو برد وظلمة .

في الصالة الصغيرة الشمس تنتفض , ترسل قضيبا من نور فضي , مخترقا الغبار . الغرفة الصغيرة , معتمة , تنبعث منها روائح دواء , دواء ممزوج بلحم بشري .راحت تتلوى وتئن وهي ممددة في فراشها, متدثرة بدثارها الصوفي فوقه بطانية . لكنني لا ازال اراها مرتجفة . هممت ووضعت واحدة اخرى فوقها . غرق جسدها تحت البطانيات . تضيع بين النسيج وتلتقط انفاسها المنقطعة في لهاث .

ذهبنا الى الطبيب فور ان تدهورت حالتها . تطور مفاجئ وسريع .كانت تسكن وحيدة , تقوم على خدمة نفسها , ثم اصبحت طريحة الفراش لا تقوى على تحريك جسدها . بالكاد تذهب لقضاء الحاجة والعودة نحو السرير , وعندما ذهبنا للطبيب لم يقل الكثير, كما لم يطلب أي فحوصات. كان واثق كل الثقة ان ما من شيء بوسعه جعلها تتحسن , ولذا اكتفى بإضافة المزيد من المهدئات بعد ان استفسر منها ان كل ما لديها بات عديم الجدوى . علق بوجهه منظر الحيرة , واضاع الكلمات فلم يعد بوسعه اختيار كلمات مناسبة من اجل ان يرقق الامر, وبدل ذألك طلب منا العودة بعد شهر. لابد انه كان واثقا انها لن تستطيع النجاة شهرا كامل . ولم يكن من الصعب التكهن عما يدور في خلده , فجسد والدتي بات هيكل منحل, محاط بجلد رقيق , معروق بعروق خضراء واضحة , وعلامات باقية لأماكن حقن السوائل الوريدية عديمة

الجدوى . لكنني كنت متشبثة ببعض الامل , ظننتها انتكاسة وقتية وعكفت على الرعاية بها طوال اسبوعان , تاركة طفلي الاكبر لدى جدته ,جاهلة بجنيني الاخر الذي ينبض في ظلمتي . وكان ايار يزورنا بين يوما واخر يحمل المشتريات من الخضروات والفواكه وكل ما نحتاجه , وبدا انه متفهم للأمور . يبقى دقائق معدودة متساءل عن وضعها واذا ما كانت اخذة في التحسن ثم يغادر.

اخواي قاما بزيارتنا ثلاث مرات خلال الاسبوعان , مثل ضيف خفيف ولم يطيلا المكوث . وكانت ليالي الشتاء طويلة موحشة تنقضي في كآبة , وتمط في نفسها في ليونة. وكنت خلالها غارقة في غمار التذكر. ذكريات تضرب مرارا فوق رأسي منشأة عالمها الخاص . نحو الزمن المنصرم . اعود فأشاهد حضور التابوت الخشبي ومحاولتنا استيعاب حقيقة الموت الذي حل دون ترقب . وانتظارنا قدوم الاقرباء الذين سرعان ما تجمهروا وارتفعت اصواتهم..

النساء يلطمن الخدود ويمزجنها مع صراخ مجنون , والرجال متأهبون لوصول السيارة التي ستحمل النعش . حملوا الصندوق الخشبي فوق اكتافهم ثم احكموا وضعه فوق السيارة وربطه بالحبال , وانتقالنا نحو منزل جداي الكبير . جدتي كانت قد اودعت ابن لها خلال الحرب , وابن اخر في حادث سيارة , ثم والدي . تحد امي في الغرفة الكبيرة قرب الجدة , لا يسمح بدخول الرجال فقط ما حمل رحمها من ابناء واخوتها . تستمر مراسم العزاء , السواد الذي يوشح اجسادنا والعويل الذي يضج اذاننا . اكتشفت عندها ان الرجال غالبا ما يتحدثون بأصوات عالية حادة , احيانا في ان واحد يتفوهون بكلمات عديمة الجدوى فقط من اجل اثبات حضورهم .

الرجال معظمهم ضخام البنية , حتى القصيرين منهم لهم اكتاف عريضة وراس كبيرة غالبا فارغة .قساة الملامح غالبا . يبدا الصلع في شق طريقه نحو شعرهم في بداية الثلاثينات لن يتوقف حتى حصاد اخر شعرة

. رجال العائلة معظمهم صلع .يجتمعون في غرفة الضيوف . الفتيان يمدون مائدة الطعام . الفتيان يحملون صواني الطعام . النساء يعتكفن في المطبخ , الكبيرات منهن يستلمن مهام محددة , احداهن تقوم بتحديد قطع اللحم والدجاج , اخرى تسكب الارز في الصحون , اخرى تسكب فوقه الحشو , اخرى تسكب المرق الاحمر . الفتيات يحضرن الاشياء الاخرى , الماء , الخبز , الخضروات وكل شيء اخر .بعد ايام نعود ادراجنا . لكنني هنا اوشك على اختبار شيء اخر, على وشك المثول امام الموت بعظمته .

اترقب بصمت . امي الراقدة ووجهها المبلول بعرق دافئ يتساقط من جبهتها المتوترة . امسك شبحها المرتحل عبر الظلام . اضم خيوطه مليء جسدي . حزن صارم هيكل تفاصيلها الصغيرة واندمج تماما مع ذاتها الاخيرة وهي توشك ان تنتقل .

جلست جوار النافذة الصغيرة محدقة نحو الغسق الغريب الذي يصب رونقه بأسى مريع . تحت عظامها الناتئة تغوص الاعضاء . جلدها الشفاف يكشف عن شبكة من اوردة رفيعة وضيقة . في الغرفة مدفأة نفطية صغيرة , تحاول جاهدة طرد برد الشتاء . ريح الشتاء القاسية تصرخ بصوت مبحوح , تزجر عاليا اعلى من صوت السعال الذي يختفي ويبلعه طوب الجدران .

تحت الظلام تغوص كتلة من لحم ودماء , يتصارع خلالها موت وفناء . يرتخي وجهها المرتبك , كوجه قديس معذب , وجه صامت كأنها للتو قد خلقت . تبتسم بفتور , ابتسامة من ماء وهلام . تنهض ركيكة بجسدها الخاوي , فأرى الموت يتبرعم في وجهها , في ذاتها , في روحها , في جسدها في كل ذرة فيها . اسندها الى جسدي , تسير في الغرفة , تبتلع حبة المهدئ تثوي فمها بعجز , وفي عينها الضيقة شيء يلمع في قاعها الاسود . الوجع يرفض ان يستكن , يمزقها بأظفاره , احس بتلك الاصابع وهي تقطع جدرانها الداخلية وتدميها .

شاحذه بصري في دمس الظلمة , اراه , الوجع يتماثل الى ضباب , يتجمع في بدنها , يخز الاحشاء ويعصرها , يمد ذراعه ويمطها يحملها فوق يده حتى تطوف في الفضاء . تعود متقهقرة نحو السرير , تجر الجسد الخاوي . خفيفة اللحم , خلفها يهف ثوبها المخملي دائم السواد . تلقي بنفسها تحت الدثار السميك , وتختفي بين نسيجه .

وبينما راحت اضواء الغسق الحمراء تنحسر, وكذا ضجيج الشوارع المتربة ووقع اقدام المارة المرهقة , وزقزقة العصافير تنخفض وهي تأوي الى اعشاشها , في تلك اللحظات ادركت , ان شيء غريب سيحدث , وسأغدو بعده اشد وحدة من ذي قبل , وستتوغل العزلة بي نحو اسواء دهاليزها , حتى ابني اسوار اكثر سماكة .

ينكسر وهج اللهيب . يسرع ظلام المغيب . ابصره من النافذة , شاخصة بصري نحو ظلمته الرقيقة وهي ترتفع , كطبقات عديدة من موج اسود , ظلمة تتوسد في الفؤاد .

انه ايهام الوقت يرن وقعه , تك , توك , قطرات ماء الحوض تسقط وكأنها اميال تعد الوقت . نباح الكلاب السوداء حول جيفة المزابل منتظم على وقع ثابت , مشكوك ومخيف , يرن , تيك , توك . صوت آخر في الكون يسجل , دوران الارض والقمر, وحركة الاجرام وتوسع الكون اللحظي , تيك توك , تيك توك . شيء يتسرب من بين يدي ويسري باردا ومطاطي , يدخل بنعومة من بين فتحات انامليي , يجعل في روحي ذألك الخوف المهيب . تيك توك , ما جدوى الوقت ؟ لما نعده ؟ تيك توك ... احدهم يراقبني بعين حمراء مثل بقعة طفح جلدي , يراقبني من قريب , شخص آخر في الغرفة يعد أنفاسي ... الخدر يتصاعد مثل حشرات تتقدم من اسفل جسدي الى اعلاه . انطفئ التيار الكهربائي وبتنا في ظلام اكثر, مع ان المصباح لم يكن ذا جدوى , ولم اعي اشتعاله , وان ما من قنديل كهربائي قادر على قهر ذألك الظلام المسيطر, انه ذو امتداد سماوي , وهو يحاول التخاطر معي ويجعلني ادرك حقيقة وجوده وضعفي امامه .

تسمرت فوق المقعد لصيقة بالسرير, ومسكت يد امي , وبذلت جهدا كي ابقى يقظة . منصتتا لخشخشة قادمة من اعماق الليل وهو يتقدم بكياسة . الخشخشة مستمرة قرب اذني , لا شيء قابل على ايقافها . شيء ينتهك عزلة الرحيل التي تحيطنا , الدائرة المرسومة حولنا , خليط ضحل من الكآبة والحزن والضياع . وبينما أخذ الليل في الانسياب , علقت نظرتي نحو طيف خافت, لكنه اقوى من الحضور البشري . ساقاي تثقلان تحت وطأة الموت , وفخذاي لا يعيناني على النهوض , فقط اجلس دون حركات امتثال لرغبته . يتسربل في الغرفة دفء غريب , يسري بين اوردتي , يبدد برد الشتاء . دفء حاني من فضة الهلال الخرساء . تهت في نعومة الليل . الليل خيوط من حرير , الليل سائلا مثل ماء .

استسلم جسدها الى موت هادئ . ترفق بها ملك الموت , قبض روحها بسلام . ترقبت في حذر, مخدرة الاطراف , ورجفة رجفة الترقب الرهيب . وحدي قرب السرير , امسك يدها الدافئة الساقطة الى جنبها . اقتلع من جسدها الم وشقاء , مثل اقتلاع نبتة من طين . في عروقها صب الصقيع . انفصلت الروح عن جثمانها المسجى فوق السرير . الموت لامس يدي وطبع قبلته .

في الظلمة ارتعشت , وبصوت خافت انتحبت . توسلت لملكوت الرب العظيم , الا اموت ضعيفة , مهزومة فوق سرير , كما تموت النساء . لكن ذهني مستمر بالهذيان , مواصلا سعيه المسعور , بدا لي ان الليل سحيق بلا قرار, يلقي بنعيي الجنائزي مخلوق اسود ضئيل خالي الملامح , منبوذ بين الارض والسماء يقول بصوت خافت :

الموتى ليسوا بموتى . الموتى احياء اكثر من الاحياء . ازيل سدهم المنيع . وازيحت غشاوتهم الضبابية . فأبصروا قباحة العالم , وعرو حقيقته الابدية . ظل اسود ممتد , قبضة موت تشتد , نصل لامع يشحذ . اشياء حريا بها ان ترسم نظرة فزع دائم , فوق وجوه الموتى والاحياء . هلع كامل من هول ما شاهدوا بعد نهوضهم من غفلتهم الدنيوية . ضوء الحياة الساطع , قد اعمى بصيرتهم . ايامها القليلات قد اثقلت مضاجعهم . أمالها الكاذبة ما تفتى تطاردهم ككلاب جائعة , تتعلق في اطرافهم , وتشدهم نحو التوغل اكثر في الامل حتى الغرق .

في لحظة استيقاظهم الاولى سيغدو العالم ظلام . بتعبير اخر سيتلاشى الضوء وينعدم كل اثر للضياء . الاسود العظيم سينشر جناحاه ويطبق قبضته حتى يلابس الارض بالسماء . في لحظة تليها لا تقل عنها بشيء , سيغدو الوجود اشلاء , دماء , رماد , دخان . وتتصاعد الذرات في امتزاج كوني فريد , مكونة ضباب اسود , تعجز كل القوى المعروفة عن تخفيف شدته . في لحظة اخرى ستغادر ارواحهم . الذراع السوداء تلتف , وتلتف , كثعبان طري يلف نفسه حول رقابهم , ويجعلهم عاجزين عن التنفس حتى تزهق ارواحهم , مع انهم ميتين . في لحظة اخرى , بم , كل شيء سيتبخر , فلا يعد هناك شيء للحديث .

الفصل السابع

تزوجت في يوم لا اذكر تاريخه بالتحديد . وأن جل ما تسعفني ذاكرتي به , هو انني تزوجت في فصل الخريف . بالنسبة لي انه اشبه بتاريخ النكبة , وان اعترافي بهذه الامور ناجم عن العيش بضمير غير مرتاح .

اه , كيف تمضي الايام مسرعة , بالكاد كان الامس , بينما الحقيقة هو مضي خمس سنوات . اتجرعها على مضض . اجدني اميل الى قضاء الوقت بعيدا عن المنزل في أي مكان , وبإصرار لا يصدق . من الممكن ان اكتفي بالتسكع عابثا , مستهلا التفكير في ابسط واتفه الاشياء . احيانا اكتفي في اسباغ التفكير في الا شيء , مثلا عدد الاعمدة الكهربائية , انواع السيارات التي تقطع الشوارع , الغيوم التي تحلق في السماء , أي شيء ممكن ان امسك بطرفه داخل ذهني حتى انشغل . لكنني اعود بعد ان يرخي الغسق سدوله , ويتشرب داخلي بعض من ظلام الليل , حتى يصبح لزاما علي العودة . في الحقيقة هنا اشير الى احد القوانين التي طبعتها والدتي في ذهني , حتى صارت راسخة بين طبقات الوعي , متجذرة دون امكانية اقتلاعها . ان اعود قبل ان تنزل الظلمة المطلقة لليل , فالليل غير مأمون للرجال والنساء . لكن ليس لي ان اعبر عن الاحساس الذي يكاد لا يبارحني ما ان اخط عتبة البيت . اشعر اني مثقل , مكبل . حضور شيطاني يجثم فوقي , اصبح مفعم بمشاعر متداخلة , اعجز عن استيضاح ماهيتها , حالة وهن دائم , لا تبارحني حتى اتحرر من اسوار المنزل .

انا شخص دائم المثول تحت ضوء الاتهامات . نبراس تتهمني انني رجل متخاذل , غير قادر على اداء ابوتي اتجاه الاطفال . تتهمني ايضا بالهروب من البيت . غير قادر على اظهار مشاعر العاطفة نحو زوجتي . وللحقيقة فإنني اجد اتهاماتها جديرة ان تأخذ في الحسبان , فلو بحثت بين دهاليز عقلي الباطن , وتمعنت مطولا في الافكار التي تنبعث خلالي , وتحثني على المكوث طويلا خارج البيت , وامعنت النظر في قرارة ذاتي , لاكتشفت بلا شك انني اهرب . لكني غير قادر على تحديد مما اهرب , وهنا ننطلق نحو نقطة اخرى لوجود عدد من الاحتمالات المطروحة , لكن بحق الجحيم بلا شك انا اهرب .

انا مدرك لحقيقة الامر , لكنه قراري اتخذته دون حضور كامل للوعي , اتخذه وعيي الداخلي في منأى مني . ان ابتعد عن سماع تردد كلمات امي , مكانها محفوظ , لكن لنعترف بالأمر, ان الحاحها شيء لا يطاق , فما ان تضع شيء في راسها وترسخه , تقوم حالا ببناء خطة وتنفيذها . انها تؤمن بالضربة القاضية والطرق المستمر فوق الحديد يلينه . مطرقة تضرب فصوص مخي وتفصله , حتى يصبح كل جزء مني منفصل ,غير قادر على اعادة تجميع نفسي . لكن مهما يكن , فأن اصرارها لن يتزعزع حتى تحقق مرادها مهما كلف الامر . تردد الامر مع الوجبات وبينها , وقبل النوم وبعده . ان مريضا بعلة ما لن يأخذ دواء بكذا جرعات مستمرة , مثل وجبات دسمة تشبعني بكلماتها حد التخمة , امتلئ حد الغثيان . لكن في النهاية انا استسلم , اعطيها ما تريد , ليس من الجيد ان اقف في وجه ارادتها , لكنني فقط افاوض قليلا واقاوم قبل ان اغرق في الوحل , لأشعر انني كائن حر ذو ارادة . مهلا مهلا , هذا هراء لا تنصتوا لهذا الجزء انه محض ثرثرة تصدر من انسان ضعيف . في الحقيقة انني تزوجت امتثالا لرغبتها هي , لا اريد ان امحي عن صورتي نظرة الولد المطيع الذي يسرع لإرضاء امه . انها مغرمة في هذا الامر تحت مسمى الولد الصالح . تفتخر

بأنها قد احسنت تربيتي اينما تكون . تعتقد انني اعظم انجازاتها في الحياة , وان عالمها يتمحور حولي فقط . حتى اختي المسكينة , انها عاجزة تماما عن رؤيتها, انها تحيا خلف ظلي . ومع ذألك فأني لا الوم والدتي قط , ليس لديها أي هواية اخرى او عمل تؤديه , كما انني تبرير مثالي لوجودها الروحي , الكائن البائس الذي سيساعد على ديمومة البشرية . لا تستطيع الانفراد للحظة مع نفسها . انها تقوم ببساطة بما شاهدت الجميع يقومون به , يحكمون قبضتهم حول ابنائهم , ممارسة لا ارادية . انها تعتقد ان خيرا ما تفعل . ولأعترف ان خياراتي , خياراتها هي ولإسعادها . تغير موجة بعد موجة , فما ان تزوجت حتى اسرعت الانتقال نحو المستوى التالي كلعبة , فلم تتحمل الحيض الاول بعد الزواج واسرعت لأخذ جميلة للطبيبة , معللة ذألك بوجود خطب ما وعليها اصلاحه .على الزوجة ان تحمل من الاسبوع الاول . مسكينة هي جميلة , اشفق لرؤيتها تعاني . اصبحت تحت رحمتها . ارى خوفها يتصاعد مثل سحابة من دخان اسود , لكنني عاجز عن التدخل . تتناول الدواء والفيتامينات , تصبح شديدة التوتر مثل شاة توشك ان تذبح . تسكن دون صوت مثل حمامة في قفص , وهنا علي ان اذكر احد القصص التي تصر امي على ترديدها على الدوام , فهي تقول ان ابنة اخيها قد انجبت ثلاث ابناء ذكور خلال ثلاث سنوات , يا له من امر جدير بالثناء بالنسبة لها , لكن الصراع يحتدم , نبراس غالبا تتدخل وتخبرها اننا للتو تزوجنا :

تعلمين شيء ! ابنة اخيك دجاجة , الة تفريخ , انسان لا يفقه شيء عن الحياة سوى الانجاب . واليك اجمل ما في الامر , ان الحمل والولادة شيء تفعله كل الحيوانات , الكلاب , القطط , الابقار , الاغنام , كلها اجمع , انها ببساطة عملية تكاثر . ان ما يعجز الانسان عن القيام به ,هو تربية انسان سليم خالي من الامراض والعقد النفسية , وهنا اهنئك امي لديك اثنان مجنونان بالفعل , وانت على وشك ارسال الثالث نحو حتفه , اتركيهما , افلتي حبالك عن عنقيهما .

ثم تنهض مغادرة . لا اجرؤ مطلقا على قول هذه الاشياء المنطقية بصوت واضح ومرتفع . أوافق رأيها سرا , جريئة تضرب في الصميم , لكنني بعد هذا الحديث المر, انهض باحثا عن بعض الهواء , بعد ان اشعر بعجز حقيقي . تقل قدرتي تدريجيا على التنفس . اتحسس حبلها المعقود حول رقبتي , ابحث عن الاوكسجين احس بالضيق اعاني في صمتي .

تقول امي وهي تشاهدني اذهب خارجا وقد انتابني الكرب , وقد بدا جليا انها مهتاجة :

ولدي العزيز اعياك حديثها البائس , ليرحم الرب الرجل المسكين الذي سيتزوجها , تسمعين ؟ ملعون من يتزوجك لعنته كل نساء الارض وملائكة السماء .

بديع هو حديث النساء كالنار في الهشيم تحرق ولا تترك شيء , زوجتي تكتفي بالصمت , انا لا اتدخل , للنساء عالمهن الخاص الذي لا افهمه .

وها انا ذا اقدم لكم احد الاسباب لانتقل بلا تأخير نحو سبب اخر , وهو زوجتي . رغم موافقتي رأي اختي في كونها ضحية . اؤكد لكم عجز كلمات المعاجم برمتها , عن وصف الشعور العميق الذي يأكلني من الداخل , انه امر بالغ الصعوبة . ان يحاول الرجل الاندماج مع زوجة لا تربطه بها سوى ورقة زواج شرعي , دون مشاعر او افكار , ان ما بيننا هو ثغرة , اخذة في التوسع ثم الانهيار, وان الاطفال الذين انجبناهم اشبه في التوغل في الوحل اكثر واكثر .

من السهول ان اكون عبدا لعادات متوارثة . ان اكون رجلا فقط .ان امارس سلطتي الطبيعية كما يفعل كل الرجال . من المستحيل ان اتحرر من اغلال عبوديتي . ومع ذألك فاني اعود للدائرة فلازلت متهم . امي ترفع سبابتها , انا مهزوم , بل جبان , انا بعيد عن ان اكون صورتها المثالية للرجل , لا رغبة لي في اثبات نظريات الذكورة المتسلطة . ان يصدر وقع قدمي في البيت زئير اسد في غابة , ان تكون كلماتي مثل سم ثعبان تشل البدن وتقتله . ان ترتجف زوجتي واختي كما الحملان تحت فكي ذئب . والا خرجن عن ثوب الطاعة الذي فصله الاوائل . انا فقط اصطنع الا مبالاة اعرابا عن عجزي المتغلغل في الاعماق .ارى بالفعل نظرات اشمئزاز معلقة فوق وجهيهما , لما علي ان احظى بقدسية الذكر لما يتوجب علي اختيار اقدار غيري لا لشيء سوى لكوني رجل .

ان ضميري يحتم علي ان اكون بالغ الصراحة , فانا شخص مبهم غير قادر على تفكيك مصفوفتي الشخصية . عاجز عن اتخاذ موقف حقيقي , هل اكف عن كوني متردد وارفع سيفي ضربا في الاعناق ! كلمات نبراس تصبح اكثر حدة , انها تطعنني في مركز الافكار وتشتتني مع كل كلمة . اتهم نفسي بالتقصير لكن ليعلق في اذهانكم انني تربيت لأكون ذكر بامتيازات فوقية , ان اكون سلطان البيت كما تنص العادات الشرقية , الطاهر القديس الذي لا يدنس صورته , اعود لأكرر على جنابكم انني مبهم وان ما انتم بصدد معرفته هو قطعة صغيرة من الحقيقة .

لطالما اعتدت ان أخبئ دوافعي , وادفع افكاري في العمق وادفنها . اغرمت اول مرة في المعلمة وانا ابن عشر سنوات . شعرها الاسود بساط سحري يحملني على جنح الريح نحو سابع سماء . تحولت بعدها نحو ابنة الجيران اختلس نظرات من فوق السطح والجدار . واليكم اقبح ما في الامر فلو ان احد ما قد اوقع بي وانا اتلصص على بنات الجيران , فآنذاك سيشفق على حالي ويقول عني مسكين , قد نصبن فخاخهن واني وقعت في الشرك , وستحاك الاحاديث حول المتهمة حتى لو لم يكن لديها فكرة عما يجري , ففي النهاية النساء يجدن الغواية . انتقل الجيران بعد ذألك وحل مكانهم عائلة بخمس ذكور, لم اجازف بالأمر ولو كانت ابنتهم شهرزاد , اعتدت بعد ذألك التسكع في الشوارع مع الصبيان نلاحق الحسناوات ونترقبهن على الطرقات .

بعد ذألك دخلت في علاقة طويلة مع فتاة ما قريبة من عمري , وهمت بها عشقا , الا انني تنصلت . رغم شغفي بها , لأنها لم تكن تؤمن بالأغلال , منفتحة كما يقولون اتجاه الحياة , مدركة لحقوقها كانسان له القدرة على السعي خلف رغباته وطموحاته , ترفض سلطتي الذكورية , تبحث عن ذاتها . من الصعب ان اتخيل العيش مع امرأة تجد نفسها ثقة تفوق ثقتي بنفسي , وترى نفسها كشخص كامل دون نقص لا تؤمن بتفوق الذكر. اتممت دراستي . تخرجت اقراء واكتب ولا اجيد أي شيء محدد اخر . كل ما لقنوني اياه حشو وهراء , سخافات من بين السطور. جمل دون معنى . الكلية اسوء بكثير . يتحتم علي ان اتظاهر اكثر , اتماشى مع الجو السائد واتقبل التسطح . اتشبث بما هو واضح غير مكترث لعمق الاشياء . ارتدي الرائج , اتكلم بالرائج واكل الرائج . لكنني لم انضج . لم اتعلم أي شيء , انهض , اكل , انام مثل حيوان . متقلب في دوامة الترهات . منزلي هو منزل والداي. اعيش كما يريدون واتصرف كما يرغبون . رغباتي

تموت وافكاري تدفن قبل ان ترى النور. لا مجال للتفكير , علي ان اتقبل واقعي واثبت قدمي في ادغال الغابة . موت والدي تركني في فخ , مجبرا على اتقان دور ذكر البيت . لكن خارج الاسوار انا اقل من نملة ,لو سحقني احدهم لما تزعزع نظام الكون ولما فقد شيء . ببساطة انا غير قادر على ان احيا كما اريد . ان اصبح انا نفسي . بل انا مرهون لأفكار موضوعة وقوالب مصبوبة , سار عليها الجميع . اسير في قطيع التماثل , اعيش كما يعيش القطيع . ابحث عن عمل حكومي , واحبس في مكتب حكومي . أملئ ورق , احبار سوداء , تخطيط , ارقام , خرائط , شوارع , ابصق هازئا , كل شيء على وضعه , الشوارع هي ذاتها ما فائدة الاحبار ! لما نلوث الورق ونذبح الاشجار! المدينة كما هي . لما نظيف الارقام , سخرية اتداولها وحيدا في حديث يومي . شاغل اشغل به نفسي بعيدا عن احاديث النساء , لكنني مضطر للاستمرار بالتظاهر والا نبذت من دائرة العاديين , ودخلت خانة الغرباء مع ان احاديثهم تضجرني وتشل عقلي حد التوتر. وكل تلك الفوضى الناشئة في حالة توسع تفترسني .

لا اتذمر , فكثيرون من ابناء المدينة في اشد الحاجة لأي عمل . هذا الراتب القليل الذي يربطني حول الكرسي والمكتب . امي تقول اني محظوظ فكثيرون من الاقرباء دون عمل . تأمرني ان اكون شاكرا والا اغضبت الرب . حقا ! من ؟ انا ؟ الانسان التافه الضئيل اغضب الرب ! يا لها من افكار صارمة . اعربت لها ذات مرة عن رغبة صغيرة في مغادرة المدينة نحو ريف وديع . تلبسها رعب قاتل , وقررت ان دوائي هو الزواج , والا تحولت الى صعلوك متسكع بين شوارع المدينة . تقول ان النساء مدارس الرجال ! لو كانت احداهن مدرسة , فان مئات اخريات منهم مصحات نفسية , يجبرن الشخص على العيش كمجنون ويطالبن بأشياء غير مفهومة . ولكي اخلص نفسي من مأزقي بعد ان شاهدت قائمة المرشحات الاتي يناسبنها هي , عدت باحثا عن شغفي القديم . هاتفتها لأجد ان الهاتف اغلق للابد . رضخت للأمر ولم ابحث اكثر لمعرفتي انها ووالدتي لن تكونا على وفاق , لكونها ترغب في الاستقلال , وتتفوه

باحاديث لو سمعتها امي لدخلت في موجة بكاء , وتأسفت على الحليب الذي ارضعتني اياه , وبلغت اقصى حدود الندامة , على السنين التي كرستها من اجل تربيتي , وتهمتني بهجرانها ونبذها في العراء . وهكذا تقبلت الامر ومضيت نحو الغوص في الوحل كل قرار تتخذه نيابة عني تجعلني اغط اكثر.

عالمنا الكئيب منفصل الى عدة اقسام , حفنات من هراء الرجال والنساء . افكار مختلة لكن أي منها لا يمت لي بأي صلة . اخبرني مديري ذات يوم , بوجوب الانتماء الى جماعة ما , وتبني فكرة صريحة واتباع معتقد . وكان كريما بما يكفي كي يمد ذراعيه في دعوة للانتماء الى جماعته , مشيرا الى التغير الملحوظ الذي طرا على احواله المادية في فترة بسيطة , انتقاله سريعة من انسان بسيط الى رجل ثري (اذا ما اردت الاستفادة من الحياة ونيل العيش الرغيد يتوجب عليك الانتماء) شكرته لنصيحته , وتأسفت اشد الاسف في داخلي , لأن احمق مثله هو مديري . تأملت قمصانه الملونة تيقظ في نوبات ضحك هستيري , بطنه النازل , شعره المزروع حديثا , يبدو دخيلا على صلعته . افكر ان بقاءه اصلع خيرا من الشعرات النابتات مثل نبات الصبار, توحي بمنظر اشد قبحا وغباء, اشياء متأخر تقف في العلياء . شاهدته عدة مرات يختلي بموظفة تصغره بأعوام عديدة اقله عشرة , من الصعب التكهن بعمرها , انها تختبئ خلف طبقات من الالوان , تزوجا لاحقا . الموظفة نظيمة المحاسبة تقول ان امثاله من الحمقى الذين يمتلكون المال , يبحثون عن وسيلة لإنفاقه , وان النساء خيرا من يجدن انفاقه . وهكذا هو يضرب عصفوران بحجر واحد .
حمدت الرب لعدم امتلاكي سوى راتب قليل سرعان ما انفقه , كما انني في طريق اخذ في الابتعاد عن النساء والاكتفاء بسيدة واحدة . ابحث عن شيء مختلف , مثل غوص المرء في البحث عن نفسه وتسبير غورها , مكاشفة الروح بإمكانياتها , لكن الوقت الوحيد الذي املكه ينحصر بين البيت والعمل الساعات المتروكة بينهما . اسير دون وجهة افكر لو كان لي

العقل الساذج الذي تملكه زوجتي الذي يتيح لها عيش الحياة دون افراط في التفكير, احسدها احيانا على تلك القدرة .

تزداد حدة توتري في ايام العمل . وفي ايام العطل الخيارات محدودة . المدينة تختنق بالأتربة في جميع المواسم . وان جل ما تحويه من مناظر هو ارض جرداء وغبار عكر وتلوث من شتى انواعه . انهار صغيرة متفرعة من الفرات, تنبعث منها روائح القاذورات من التصريف الذي يصب فيها . مع ذألك اتماشى مع الوضع واطلق عنان نفسي في رحلات مع الاصدقاء بعيدا عن المدينة . فسحة في الهواء الطلق , بحيرات ماء رقراق , تعكس نجوم السماء برفق فوق صفيحتها . ان الحياة الحقيقية في حضن الطبيعة . تكبر كل حين رغبتي في مغادرة المدينة , لكنها رغبة تعيش في سراديب موحشة , ومهما يجري في النهار فأني انام قرير العين , مريح جسدي من ثقل الحياة . ولم اختبر موجات ارق تذكر. حتى ان العجب يتملكني عند استيقاظي صباحا ومعرفتي ان احد الاطفال قد بقي محموم ليلا ودخل في موجات من البكاء , وان زوجتي قد بقيت ترعاه حتى انوار الصباح . انه عمل للنساء . لا اعرف حتى أي طفل قد مرض , لو كانوا تؤام لعجزت عن التفريق بينهم . لكن ذألك التخاذل يجعلني ككرة في ملعب نبراس ,تقلبني كيفما تشاء , تقدم الاتهامات على طبق لا ينضب (انك ضحية نفسك , وامك وابيك , واطفالك ضحاياك) نتيجة واضحة انا متهم بكل ما تقول دون جدال . لا اقوى على الدفاع عن نفسي , لديها مخزون ثري من المفردات والافكار, التي تجعلك حبيسا في حيز ضيق . تجعلك فريسة يسهل اقتيادها , استجواب في محاولة لتطبيق ما قرات من الكتب . انهم لا يدرسون تلك الاشياء في المدارس والكليات بل على المرء ان يبحث عن مصادر خارجية من اجل محاولة فهم العالم .

تستخلص نتيجة واضحة . انني شخص غير مبالي , تافه متملص من المسؤوليات , لا يجيد سوى حفظ ما شاهده غيره يفعلونه وتطبيقه دون وعي او ارادة . انها محقة تماما , هذا ما احاول ادراكه طوال اعوام . اختي هي كنز ثمين لن افرط به مطلقا . اسرت الي مؤخرا بحديث مثير للقلق واعربت عن مخاوفها مما يمكن ان يمضي بنا هذا الزواج , كانت تتكلم وقد تبدت على وجهها علامات القلق , وقالت انها ليست تتمنى شيء اكثر من ان تكون مخاوفها مجرد هواجس غير حقيقية . الا انني لم يساورني أي شك , واحسبها مجرد وسوسات انسان يعظم التفكير في صغائر الامور. وليس من شأني الاخذ بها . انها الحياة كما اعرفها , وبما انني اعرف اختي على افضل شكل , فاعتقد انها ترى الامور من منظور بعيد . تتحجب خلف ضباب كثيف , يجعل رؤيتها اضعف , وحكمها للأمور ليس بدقيق . او انها تقيس بموازين مختلفة وغير ملائمة للحياة التي نحياها . او انني فقط كرجل اجد نفسي عاجز عن ادراك الامور من زاوية النساء . طمأنتها ان كل الزيجات تسير على هذا النحو , وان التفاهم مفقود في اكثرها , فقط مسايرة مجردة من العاطفة . نكاد لا نتبادل سوى بضعة كلمات كما ان حياتنا خالية من المشاجرات والمشاحنات , بل انها حياة هادئة مستقرة ليس فيها ما يثير القلق . غمغمت نبراس وهي تصغي الى هذا الحوار, وقالت ان في عقلي جرثومة الرجعية , تغشي بصري عن رؤية الصورة الاوضح والاكثر عمق . شعرت بالارتياح من هذه الكلمات فهي دائما ما تتفوه بهذه النوعية من الاحاديث , انها حالتها الطبيعية كما اعتقد لا شيء يدعو للقلق , ختمت كلامها معي قائلة :

(واصل كونك احمق , فلا تعرف القيام بأي شيء عداه كما اخشى)

.

كم غريب انني لم اشعر بالإهانة , بل لطالما يطيب لي هذا الحديث , انها لا تجد أي خوف في ان تصدح فيما يخامرها من مخاوف , وان دل هذا على شيء فاحسبها تعتبرني كصديق مقرب اكثر من اخ

الفصل الثامن

لطالما اردت الهرب . اهرب وانا صغيرة كي ابعد ألم صفعة . اهرب بعيدا وتربيني الحيوانات . ربما هناك غابة خضراء على مقربة . لا اريد حلوى , لا افكر في العاب , ارجوحة , الوان , لا تهمني . اود الهرب .انها النار مستعرة في جوفي , لا رغبة لي على اخمادها . اود سكب الوقود , اود مشاهدة اللهيب وهو يرتفع اعلى من بريق الحزام . اود مشاهدة الخيبات , مرسومة على وجوه الموروثات , من العمات والخالات والجدات . كل الامهات اللاتي ولدنني من رحم الظلمة الى ظلمة الحياة . اود ان اروى حكاية عصية على النسيان . ان اعلق مثل حشرة . انسكب في من يسمع حكايتي تروى , حتى اشربه واصبح جزء منه , جزء ثابت ينفذ خلال والوعي مخلفا احساس الصدمة . هكذا يخوض عقلي كومة افكاره اللزجة ,و اعلم ان فيه سائلا يتقيح .

الايام تسير ببطء . تتدحرج الكلمات من فم أيار بنبرة منخفضة . ارى انفعالاته مستعرة في مقلتيه . نظراته الباردة تحرثني بعجلة مسننة , تخلق داخلي وهم الدماء . عينيه الالهيتين تثقبان في روحي نفق , يهم الهواء في المسير في جسدي كما صحراء . مضيت اطمر داخلي تلك المخاوف , فليس من الجيد ان ادع شيء مما يدور في نفسي يطفو على

السطح . لذألك ضغطت افكاري وتظاهرت , محتفظة بالمظهر اليومي المعتاد , تفاديا لاجتذاب الشكوك حولي , فلا افعل او اقول ما يوحي بخطوتي القادمة . وكنت ابدو شديدة الا مبالاة كأن اي مما يجري حولي لا يمت لي بأي صلة . وقد عرفت عندها حقائق اخرى , ان كل ما عشته في اعوامي القليلة , لا يبث في سوى شعور البؤس الذي كلما ظننت انه قد بلغ اقصاه , اكتشف بعدها امكانية توسعه الى ما لا نهاية . فالمشاعر ليس لها حدود معينة تلتزم بها , تكبر تبعا لحالة الشخص . ولم يضع احدهم مقياس معين للمشاعر او قانون ما , او عقوبة لمحاسبة التعساء او مساعدتهم .

ان كل ما جنيت هو خالص التجاهل الذي نبتلي به نحن النساء . ومحال ان يشك احد ان ضعيف مثلي قادر على الاتيان بكذا فعل يصرف في خانة الجنون , فهكذا افعال لا تصدر سوى عن بلهاء فاقدي الاهلية . ولما كانت نظرة الكل نحوي هي ذا , اذن لست بحاجة لتوضيح شيء لاحد .

قلقة اقضم اظافري توترا , لكنني تخليت عن الحذر . اعلنت لنفسي رغبتي الصريحة في بلوغ اقصى حدود الحماقة . نوع خاص لا تعرفه سوى النساء . ازدراء نحو العالم لتكراره العبثي . نعم قلبي يرتعش . اتذكر اصوات , مبعثرة فوضوية , ترتسم منها صور . صوت امي من القبر (كوني زوجة صالحة) يتهادى صوتها خافتا مرة اخرى (كوني مطيعة , ارضي حماتك) صوت أيار يتسلل خلسه , يقول العديد من الكلمات الخافتة , يترجمها عقلي اوامر وطلبات . صوت الاطفال يرتفع في حاجة . صوت السيدة لبيبة يقطع كل حدود الصمت (افعلي , افعلي ثم افعلي) . اتخبط في ظلمة الليل متوجهة نحو السرير . بين طياته ادرك بجسدي ان روحي ليست حية . اغمض جفني متخيلة الطيور فوق اعشاشها تحلق معانقتا عنان السماء . افكر , ليس لها ذنوب , لا نار تخافها , لا آثام تكفر

عنها , هديلها الناعم ليس عورة , جسدها اللطيف ليس عورة , لا شيء سوى فطرة الرب , كم احسدها .

لكنني اوشك ان اتحرر من تاريخ النساء وقيودهن الصدئة . اشباحهن تطاردني ليلا , هياكل وهمية عائمة . مسنات , يافعات , صغيرات , سمينات , نحيلات , بيضاوات , سمراوات , كلهن اجمع , يرتمين عند قدمي . يقدمن توسلات (لا تهربي , لا تهربي , لا تكسري حلقة العادات , لا تنشئي صدغ في الزمان الرتيب , لا تصبحي الثمرة الفاسدة من شجرة حواء الصالحة) . اصرف ذهني عنها .

نحو شاشة الهاتف امضي مبددة الساعات . اتصفح دون غاية . انتظر تلاشي الظلام , ادرك انها ستغادر , الاشباح ترتفع نحو زرقة السماء الداكنة , قبل ان يخرج الفجر انواره . بعدها ذهني المنهك يستريح . جسدي الفاني يرقد في السرير . اود ان اعلن امتناني نحو مخترع الالة الصغيرة , القطعة الالكترونية الوامضة . عوالمها الوهمية , تخلق احساس عميق بتفاهة البشر , لكن منها بارقة الامل . رسائل , محادثات , صديقة وهمية , توعد بالمعجزات . حلم الذهاب نحو ارض الغرباء . اعرف الخداع , اشم رائحته , لكنني ماضية , نحو المقصلة , اقدم جسدي قربان لكل النساء . ارتقي المنصة كملكة متوجة , اكليلها من لهب ونيران , سأرتديه محترقة لأنني حتما سأعود . افكاري الصامتة اكثر صخبا من ضوضاء الحروب . وحواري الذاتي دائم التجدد , داخل عقلي الصغير يدور . العقل الفارغ يعاني حمى النقصان الشرقية , عقل عاجز عن خلق فرق في عالم خلق للرجال . هراء , هراء , العالم الذي يضع التيجان فوق رؤوس الرجال , ويلف المآزر حول خصور النساء .

فوق السرير تمددت , مستيقظة في الظلام . ارسم خيالات المدينة , الطرق المعبدة , الاشجار خضراء عالية , اعبر حدود البلاد , استقل زورق , اما ان اموت في عرض البحر , او اصل بلاد جديدة وارض خضراء . لكنني مضطجعه اتشبع من رائحة الوسادة , ودفء السرير , مغمضة عيني صليت , صلوات خافته ....

صليت معتذرة للرب لأنني انثى . صليت لأنني قاصرة ان اشبه غيري من النساء . صليت مكفرة عن ذنوب اقترفتها , وصليت مكفرة عن ذنوب اخرى لم اقترفها ولكنني سأقترفها يوما ما . صليت وتضرعت للرب الجليل , تحت معبده سماء الليل الطويل . صليت لأنني حية اذبح كل يوم , واعود دوما كعنقاء , احمل رمادي الاسود متلاشية تارة مع الارض , وتارة اخرى متحدة مع الهواء . صليت لأنني احمل في داخلي حواء , اقنع ادم كي يزل وتحمل ذريتنا ثمن الاخطاء . قلت متحدثة مع نفسي في همس رصين , موتي , موتي . رغبت في اجتثاث بدني عن هذا العالم , فأعود نحو برد وظلمة , نحو شهقات لواحظ وهي تبتلع ريقها قبل اخر دفعه من الانقباضات العضلية , ان اقتلع

الجنين قبل ان ينزلق من الجسد , من قيد الى قيد وددت ان اكسر قيودي , ان اجهض الجنين اقول موتي , موتي ...

استكن الليل . نام الجميع . الظلام باسط جناحيه . النجوم تتلألأ على صفيحته السوداء . جهزت حقيبتي الصغيرة , ثياب لأرتديها , لا اوراق رسمية , نقود , مصوغات ذهبية , وبعض الثياب الضرورية . لم ارد ان اتثاقل , يكفيني بدني , وهو متمركز بكتلته . حضرت كل شيء تقريبا . لكن هناك امور يتوجب علي قضائها اولا , الشعر . انه شيء مصيري , انه كثيف , طويل , اشقر فاتح , لون طبيعي تماما . منعتني والدتي من قصه قبل الزواج وقالت انه يزيد من جمال النساء . بعد الزواج منعتني السيدة لبيبة وقالت مؤسف قصه . عبرت عن رغبتي تلك لأيار الذي ايد والدته . همست بين نفسي ماذا لو انني مرضت وتساقطت خصلاته حتى لمعت اماكن فارغة في بعض المناطق , هل سأكون قبيحة ؟ هل سيشيحون بوجوههم ويعصمون ارواحهم من هذا المنظر ؟ ان دوره لا يستهان به , ناعم , منكوش , مموج , قصير , طويل , وتبعا لذألك قررت وضع حد لمهزلة الشعر المصيري . حملت المقص الابيض ,انه مقص للقماش ,

ليس من المقرر استخدامه لشيء اخر . من المفترض ان مقصات الشعر مختلفة ومميزة , معدنية لامعه دون مسكة بلون معين , فقط تركيب معدني ناعم , ينساب بلطف فوق الشعر . لكنني احمل مقص بمقبض ابيض , واتوجه نحو الحمام , اغلق الباب خلفي . ضوء واهن صغير في الجدار , يجاهد كي يضيء قتامة الليل . حملت الضفيرة دون ان انظر , فتحت فم المقص اللامع , فقضمها ببطء , بصعوبة , صوت احتكاك , وخصلات تقع فوق الارض , تتبعها اخرى . تدلى شعر منساب الى الكتف , غير متساوي الاطراف . رأيت نفسي ذات خمس سنوات , اتوسد الارض في حر الظهيرة , ينبسط شعري المنكوش فوق البلاط , تنساب برودة الى جسدي , اغفو دون وعي . الان يبدو لي اكثر اقناع .

الاقراط تتدلى, ذهبية , طويلة . مددت يدي وانتزعتها بذات الوقت . عادت اذناي خفيفتان . الان شيء اخر ... خلعت الحلق الذهبي من اصبعي . طالعت بريقه , انه طوق ساخن يلتف حول رقبتي . لا اتركه بل ارميه في البالوعة الضيقة , ثم افتح صنبور الماء البارد واشاهده ينزلق , يختفي مع القاذورات في المجرور . وقبل ان اغادر اربط ما تبقى من شعر , بربطة صغيرة حمراء . رقبتي حرة , ظاهره , جاهزة للقطع . عرقي الاخضر ينبض بعنف . اتحسسه . جسدي ينتفض معه . انسحب عائدة نحو الصالة , فلم يحن الاوان بعد . سيصل السائق في الموعد , انه شخص موثوق , تؤكد الرسائل هذا الامر , لكن ما ادراني بالسائق او بمرسل الرسائل , انهما مجهولان . يقال ان حواس الانسان تنشط في هذه الظروف , تصبح ثاقبة , لكنني اضعف .

نبراس مستيقظة . تنهض لشرب كوب من الماء . تلقي اكياس الحلويات الليلية . ادعو الا تنتبه للكيس الاسود الذي القيت فيه الشعر . لكنها القمامة لما ستنتبه للقمامة ! تفكير احمق . تتوقف قرب باب الغرفة لعدة لحظات . لحظات لم اكن لانتبه لها في يوم اخر , ولم اكن لانتبه لوجودها من الاساس , لكنني تلك الليلة , الاحظ حتى الثواني

واعدها , واحسب سرعة انقضائها . تتكأ قليلا على الباب . الظلمة دامسة , محال ان تلاحظ أي شيء , فقط بقعة مضيئة من الهاتف وسط الظلام ,لكنها مدركة لحضوري . اتظاهر باللامبالاة . تبدو كمن يفكر , تنظر صوب شيء وتفكر في شيء اخر . لسنا حقا على علاقة وطيدة , لكننا نتبادل احاديث عابرة , ذألك النوع من الاحاديث التي يتبادلها الاشخاص بعلاقات سطحية لا يمتون بصلة حقيقية تجاه بعضهم البعض . نبدي اراء , نوافق , لكننا لا نخرج افكارنا الحقيقية الى السطح , بل تغرقنا فيها . غالبا ما تحاول ان تكون لطيفة , تقضي وقت اطول مع الاطفال , تضغطهم الى صدرها وتطبع قبلها فوق وجوههم . سرعان ما تعاود الدخول الى الغرفة , تغلق الباب . السيدة لبيبة نامت منذ وقت طويل , لا تحتمل الليل , سواده وكأبته . شخيرها صوت معتاد , لن يؤرق احد . تنام فوق الارض , فراش وثير , تعيد ندفه كل بضعة اعوام . لا تشعر بالأمان وهي معلقة فوق لوح محمول على اربع قوائم . لها جسد اسطواني , طبقات من الشحم تتراكم , كتفان عريضان تسندهما حشوات من الدهون , ورقبة منتفخة , بطيات من الجلد الابيض الرخي . الاطفال ينامون الى جوارها . لا استطيع نكران التفكير المستمر بمصيرهم , ربما سينتظرون عودتي , ربما لن يلاحظوا غيابي , على الارجح سيخبرهم ايار انني مت لو ان اكبرهم بادر في السؤال المتكرر والبحث المستمر , سيؤكد موتي بقصة من خياله , لكنني آنذاك ميتة , ميته بالنسبة له , ومنحلة بعيدا عن عالم الاحياء .

في الخارج ليس ثمة شيء . المساكن ميتة , مثل حضارة مندثرة منذ آلاف الاعوام . ارتديت ملابسي , الحجاب الاسود الحريري , ثم لفلفت جسدي في العباءة السوداء . احسست بالسواد وهو يضمني . شحب لوني , تتوتر الدماء في جسدي .

فتحت الباب فند عنه صرير , او ربما لا ! الصوت داخل راسي فقط , ارتد الى مسمعي صوت اخر , بكاء احد الاطفال ربما ! توقفت ,

ترددت , لكن الصمت قاتل , الصوت داخل راسي ايضا , عقلي يزداد ركاكة بدا من هذه اللحظة . مرتعشة تحت الظلمة , فزعة مثل شاة تساق الى المسلخ .

الليل العاري يذبحني , تحت ظلامه انا وحيدة . أتأمل الشارع بذهن مجنون , عقلي يبني تجسيدات مختلفة لأشياء لا تلاحظها العين . اطالع النجوم بعيون ضبابية , لي نزعة اقرب الى الموت . المنازل لها مقل قبيحة تطالعني بشؤم . استجمعت شجاعتي , اخط اول خطواتي , عاد ذهني فتركز, استيقظ ولكزني داخل معدتي التي انقبضت مضطربة . جحظت عيناي وانا اتقدم بخطوات صغيرة , قلت انا مجنونة .

وقع اقدامي خافت , الا انني سمعت قاعدة الحذاء الرياضي وهي تحتك بأديم الارض , ودقائق الغبار وهي تثور عن السطح . استشعرت خلفي زوبعة , لكنني قلت الزوبعة داخلي , تقدمي , تقدمي . سألقاها , سأبتلعها , ستختفي الزوبعة في الهواء . سارعت الخطى دون التفاتة , كشخص رمى كل شيء متوجها نحو موته .لا اعلم كيف حملتني قدماي , ام كيف تماسكت الارض دون ان تنشق , وصولا نحو السيارة حيث يقف الغريب بثبات .

يقظة امام نفسي , وجها لوجه . آثامي تتجلى عارية امام ناظري في مرآة كبيرة . المقعد الجلدي بارد , اجلس فوقه كجبل عتيق لا تهزه ريح . برد يفترس جسدي مثل قطعة لحم طرية في فم ذئب . تهتز اضلعي حسرة , لا من برد الجلد . سار تيار جارف داخل معدتي , اعتصرت امعائي منتفضة داخل جسدي , احسست بكرنفال صاخب في داخلي .

الفصل التاسع

تحت بريق السماء اللامع امعنت جميلة النظر , بعينين يشوبهما خوف وخطر .

تلألأت النجوم بين كثافة الليل , وشحب بياضها , ومالت منحنية في سناها , وهي ترنو نحو نجيب افئدة البشر . افئدة ترشح دامية , حتى بهتت من هول الاسى , وكاد ان ينطفئ ضيائها لولا نظرة خاطفة من نصف القمر المضاء , وهو يتأرجح في الافق متماسكا , شاذبا نصف الظلام , مرسلا شعاعا من الامل والاحلام . احست جميلة ان الليل يعصرها من ثقوب حتى تصبح سائلا دون ملامح دون لون , كانت من الموائع , تنزلق ببساطه في طريق المجهول .

حملقت فيها المنازل الاسمنتية على طول الطريق . قبحها الصامت رسم لها صورة محشورة بين الاسمنت والطوب . حملقت فيها سماء تلك الليلة وحفظت لها صورة معقدة , صورة شبح اسود يتخبط في الظلام . حملق فيها الغريب , ولولا نظرة الجد التي رسمتها بقوة فوق ملامحها الرقيقة لعاد ادراجه صوب الزقاق تاركا الطرد الثقيل . حملقت فيها مياه المستنقع الراكدة واعشابه الطويلة المتمايلة مع الريح .

في تلك الليلة الكون توسع بلا شك , نجوم ولدت في اعمدة الخلق , واخرى انطفئت مخلفة الظلام , و جميلة تدور في كونها الاعزل , تحمل نفسها وحيدة . حملقت في نفسها طويلا في المرآة الجانبية , تلمح ملامح الخوف , تمحيها , تمثل بدالها قسوة ووضوح .

ارتعش الظلام القائم بينهما , في صندوق الحديد . ها هي تتجه مثل سفينة فاردة اشرعتها تمخر عباب البحر في طوفان عظيم . ربما الان , ربما غدا , لكن مصيرها الغرق نحو ظلمة القاع . قطعا الطريق صامتين . الاضواء الخافتة تضيء ثم تتلاشى . الضجيج ثابت واصيل . نشأه الكون هناك تتعثر , تموضع الجماد , وتموضع الكتل اللحمية , والنجوم تنظر لا مبالية , والظلام يتجانس حالكا في سخاء . الاسفلت يتشكل , يتفتت ثم يعود تحت العجلات وهي تدور , مخلفه اثار ما بعد الطوفان تقطع طريقها الى قلبهما . تحت اقدامهما العالم برمته ينهار , تقاليده , قيوده , اوتاده الحمئة تتكسر , لا ثبات هناك للأرض , كل شيء سيعاد تشكيله . يتراءى تحت عباءة الظلام آلاف الاحلام , اخرى تذبح , ومن بعيد يصلها نجيب امها في القبر لازالت عليلة تتلوى .

فكر الغريب بعدة كلمات ليقولها لعله بقطع الصمت , لكن ذهنه تلاشى , قال بعدها كلمات خفيفة :

هل ترغبين بقنينة ماء ؟

لا

بحدة مثل نصل , اجابته دون تردد . لقد عبرت بلا شك مسافة طويلة بين الاقدام والتردد . مضيا صامتان حيث ينبغي ان يمضيا , عليه ان يلتزم الصمت , هوايته المفضلة . خلعت الحذاء الذي احسته يلتهم قدميها . شعور الحرية الوحيد الذي ستحياه , مسافة مقطوعة بين مدينتين , تساوي مسافة غير معروفة بين الارض والسماء . هو ليس طريق ممل , هو ليس مجرد مسير اخرس جامد , هو روح تعانقها وترسم خيالات , تذكرها بالماضي , ووزنه اذا ما قيس بما هو ات .

لكنه الليل , ليل الخلاص , ليل الحرية , ربما ليل اخر للممات . نتفت افكار في وعيها , انها الان باتت مطاردة , و وجه أيار يتراءى لها صورة مرسومة فوق الزجاج الامامي , تبهت وتعود . النفق ينهض فيها , الصقيع يعود لينمو, تساءلت من اين جاءها صقيع الاموات ! اين تبخر دفء العالم! حلمت الا ينتهي الطريق , فقط لو تمحى الصور .

الحياة حرب . خسرت كل معاركها , هذه معركة اخرى هي ابتدأتها دون عتاد . لكنها ستنهيها بلا شك . فقط تركت دموع صغار وكسرت كبرياء رجل , وشتت عائلة . تركت حقيقة لاهثة خلف سراب . رنا بصرها نحو السماء , احست ان بمقدورها ارتقاء سلما نحوها , ان تطلع على سر الحياة , لماذا هذا الموت ! ولدنا للفناء . من طين خلقنا وللطين سنعود , سيتكرر العالم كل قرن , سيعاود تكراره دون انتهاء , محتضنا خيبة الملايين . لكنها تبصر برد السماء , ربما هي لا مبالية بما يفعل البشر . كل شيء يمتزج , مثل صور في البوم قديم تبلى وتهتري , خالي من

العاطفة لا تهمه الترهات . لن يمحي أي حقيقة لن يغير أي تاريخ , لعنة الارض تجاه النساء . المساكن ثابتة لا تتحرك , التقاليد متوارثة لن تقطع , هي فقط تدور دون جدوى , ما يحدث يخصها وحدها , سرعان ما يبتلعها الزمان كما تبلع انوار الصبح وجه الظلام . ستمحى مثل خط خفيف من قلم رصاص . ستزول مثل اثر قدم على رمال شاطئ .

الفصل العاشر

عبرا الشارع الرئيس . غادرا الحي برمته . الغريب يحاول جاهدا انتشال عقله من تفكير حالم . يحاول ان يماثل مظهره الخارجي الصلد , ركاكة ظلمته الداخلية . ان يقتلع جزء من الحزن الذي يجثم فوقه . سرعان ما ظهرت لافتة زرقاء , المدينة تودعكم . ظهرت بعدها نقطة تفتيش . جميلة صامتة تسكنها وحشة ليل , ليل غادر لوحيد دون محبين . انها ميتة منذ الان

تشاهد السيارات التي تتقدمهم وهي تركن ويخرج ركابها نحو حاسوب للتحقق من الهويات , تساءلت ماذا لو اوقفوا سعيها ها هنا .

(لا تقلقي بشأن التفتيش , احدهم لن يجرؤ على تفتيش امرأة , سيعتقدون اننا عائلة).

حاولت ان تفلت عقلها الراسخ تحت ثقل الاحتمالات . خاطبها ذهنها بصوت خفيف ,(انهم لا يحفلون بك , لا يكترثون للسيارة الشيفروليه العالية , لا يعبئون بالغريب الذي يجلس خلف المقود , ولا فكرة لديهم عما يجول بخلده , كما انهم لا يكادون يلاحظون الشبح الابيض المتجسد في هيئة امرأة , احد لن يلاحظ انك هاربة تشقين طريقك نحو ادغال المجهول الشائكة) .

توقفت السيارة في صف طويل . قدمه تضغط على المكابح . رجال كثيرون ببدلاتهم العسكرية ورتبهم المختلفة .بعضهم يقف دون اكتراث , اخرون يغلب عليهم النعاس يوشكون على النوم وقوفا . الضابط الاعلى رتبة منشغل في حديث عبر الهاتف . اخرون يتقدمونهم محدقين في السيارات ووجوه ركابها , وعندما يخامرهم الشك حيال شيء ما , فأنهم يطلبون من الركاب الترجل والتوجه نحو الحاسوب للتأكد من معلوماتهم . الغريب ينزل زجاج النافذة , يلقي تحية توقير للشرطي . يؤمي له بالمغادرة , يعاود رفع الزجاج ويضغط دواسة البنزين وينطلق .

يغادرون المدينة النائمة التي تبدو من بعيد كوحش يحتضر منذ ملايين السنين , تنضج بداخلها نيران وتغلي عظام . ترتفع سحب دخان عظيم تبتلعها المدينة في جوفها . انها فقط سيارة مثل العديد من السيارات التي تعبر فوق الطريق ذهابا وايابا , لا شيء يميزها . الضباب الكثيف الذي يتجمع حولها هو شيء غير مرئي , والقدر الذي يثقب فيها حفرة جوفاء هو شيء ساخر غير واضح للعيان . شيء يخترق حدود العالم ويعبرها , يرشح من خلالها . تركيب يتكون في لحظة ويحكم قبضته ثم يتلاشى , وخلال جزء من الثانية ينتقل نحو كائن اخر مشيدا صرح عذاباته العتيد , ويمد اذرع عديدة .

يمضي الوقت اللحظي . تظهر العديد من الافتات الزرقاء . تومض في ليل ساكن . بعضها بأسماء المناطق وبعضها بعدد الكيلومترات . الغريب يركز على الطريق . موكب من الشاحنات يتحكم في الطريق

السريع . تسير الشاحنات كقطار من عدة عربات كبيرة , سلسلة واحدة تضايق بقية السيارات , متوازنة , محركاتها الضخمة واطاراتها الكثيرة ترجف الارض تحتها . الغريب يشد ظهره ويوتر عضلاته , يضغط دواسة الوقود , ينطلق بسرعة , سرعة كبيرة يكاد لا يلحظ أي شيء خاطف عبر النافذة , وكأن الاشياء تضمحل تحت تأثير الزمن وتصبح ماضي . يجتاز الموكب ويصبح على مسافة لا باس بها , ثم يعود لسرعته المعتادة , مئة وعشرون كيلومتر في الساعة . يشرد الاثنان كلا في دوامته

الفجر يقترب . انوار بيضاء خافتة تشق صدر السماء الرقيقة بعذوبة , كأنها تنزع ثوبها الاسود الحريري ببطء شديد , سامحتا لأنوار الصباح ان تنفلق من احشائها . الشرق الذهبي يرتفع . الغريب يفتح النوافذ . عبق الصباح يطوف داخل السيارة . عبق الخريف المخضل بالندى . المساحات الخضراء تحيط بالطريق من كلا جانبيه . يتنفسان هواء عذب مترع برطوبة خضراء . يتنهد الغريب ويطلق انفاسه وهو يشاهد وهج الشمس يحترق كلهيب ناري يشب في الافق .

قبل دخول العاصمة يكون عليهما التوقف , وقت مستقطع حتى تلاشي ساعات النهار . تنعطف السيارة قبل لافتة (بغداد ترحب بكم) يدخل في طريق ضيق . تتوغل اكثر في مساحات خضراء شاسعة . بساتين مزروعة تطوق الطريق . اشجار نخيل واقفة بأجلاء . تخترق اشعة الشمس كثافة الاشجار العالية وتداخلها , وتمر من خلالها شرائط صفراء

مضيئة , تسقط بلين ورفق فوق ارض عشبية ندية . اغنام بيضاء ترعى وتسير كقافلة يتقدمها غلام لا يتجاوز الثانية عشر من العمر . يرتدي حذاء اصفر مطاطي ودشداشة رثة , ويحمل عصا خشبيه يقتاد بها الماشية . الغنم الابيض مثل غيوم بيضاء تسير بوداعة . ممرات ترابية ضيقة محفورة بين المساحات المزروعة لتسهيل حركة المارة . لا تتوقف السيارة بل تستمر بالمسير ببطء اكثر , ثم يقطعان طريق اضيق . صوب مزرعة كبيرة , يتوقفان امام بيت صغير في منتصفها . يخبرها الغريب انهما سيتوقفان حتى يهبط الظلام , يخبرها بمخططه توافق رغم انه فقط يبلغها .

انه بيت متواضع . بناءه قديم , ينتصف الارض الخضراء . يفتح الباب الصغير الصداء , فتصدر منه اصوات قبيحة , ويخرج منه رجل تدل ملامحه وما بقي من شعره الابيض انه يتراوح في العمر بين الخمسينات والستينات . رجل بملامح قاسية , وبنية قوية , يرتدي اسمال بالية , قميص من الصعب تحديد لونه , ابيض مصفر ام اصفر قذر, ام خليط معقد بين الاثنان , لون دون مسمى بل ان كل ما تستنبطه من مظهره انه لون الحيرة والعبثية . له ازرار بيضاء صغيرة مزررة عدا اولها . وسروال رمادي فضفاض وحذاء عسكري قصير .للرجل نظرة الجنود الذين تلتصق بوجوههم نظرة جمود صارخ , رجال شاهدو كل شيء فلا يعبئون باي شيء بعد الان , كما لم يعد يخيفهم شيء . وجه بتركيب

عظمي , وفك سفلي بارز , وشارب سميك فاحم السواد تم صبغه , يخل بتوازن منظره ويجعله كملاحظة طريفة عالقة فوق وجهه .

تنحى مبتعدا عن الباب , وعانق الغريب , لم يلقي بها بالا , تصرف تماما كأنه لا يستطيع رؤيتها كأنها غير موجودة بالنسبة له , لكنها فضلت تصرفه على أي تصرف خلافه . تقدمت متلكأ في خطاها وهي تعبر عتبة الباب نحو باحة ضيقة طويلة , تحف بها الزهور على كلا الجانبين , زهور حمراء وبيضاء وزهور بلون وردي تتسلق الجدار القصير , وعشب اخضر كثيف , حتى بد طريق الباحة كجسر فوق نهر اخضر , كادت يدها ان تمسك ماءه المنساب بطلاقة . وما ان انتهت من الذهول نحو الجنائن الخضراء , حتى وجدت نفسها داخل مطبخ صغير, خزانة ألمنيوم بيضاء مصفرة , جارد لونها تقف هناك منذ اعوام عديدة , الا انها مرتبة اشد ترتيب . طباخ غازي كبير , فوقه قدر واحد , ومقلاة دائرية تشتعل تحتها نيران زرقاء . وابريق نحاسي كبير , يغلي فوق نار هادئة , دوائر من بخار تخرج من فوهته ثم تتلاشى .ا لارض يكسوها بلاط ابيض نظيف . حوض الغسيل معدني ناصع , فوقه بعض الكؤوس المقلوبة . ثلاجة صغيرة تقف في الزاوية . تسمع صوت خطوات , تدخل سيدة متوسطة العمر . تبتسم بدفء , لا تعرف جميلة ما يجدر بها قوله , وترتبك لكن السيدة تمسك بزمام الامور وترحب بها وتدلها على الحمام والغرفة التي ستستريح فيها . تشير نحو غرفة صغيرة في نهاية المنزل , لها نافذة مطلة على الحديقة الخلفية . النافذة مفتوحة , الهواء يغمر الغرفة بعبق الاشجار الندي , العشب الاخضر يفترش الارض ويمد نفسه .

تمد جسدها فوق الارض . السجادة الصوفية سميكة وتنبعث منها رائحة المنظفات . تمسح الغرفة بمقلتيها , فتلاحظ خزانة خشبية بخمسة ابواب , قديمة من خشب الزان تشغل الحيز الاكبر من الجدار , ستارة سميكة من المخمل الاحمر القاتم , فراش ممدود وبطاينة . ترتمي بعض الوسائد قرب الجدار . تريح جسدها من تخشب السيارة , تبقى

متوسدة الارض وتشعر لهيبها وهو يخرج من لبها , تكاد تغفو عندما تسمع طرق خفيف على باب الغرفة , ثم تدخل السيدة بطولها الفارع تحمل صينية الفطور , خبز , شاي , حليب , جبن , طماطم مقلية وبعض البصل الاخضر . جميلة تكتفي بشرب كوب من الشاي وتناول قضم من الخبز , ثم تتوجه نحو الحمام . تبحث عن مرآة لتشاهد الرعب المرسوم فوق وجهها , تراهن انها شاحبة كجثة توشك على التحلل . تنتهي من الحمام ثم تعود نحو الغرفة . تسمح لنفسها بألقاء نظرة عبر النافذة , وتدرك ان السياج ليس سوى سور خشبي تتسلله الاعشاب والزهور المتسلقة الكثيفة الاغصان . تغلقه وتسدل الستار.

تستيقظ على طرق الباب الخشبي . الغرفة يسكنها الظلام ويخترقها ضوء خفيف . تزيح الستارة وتراقب السماء التي تحولت الى بيضاء فاترة , مشوبة بزرقة داكنة محوطة بخيط محمر يستمر بالاضمحلال مع كل جزء من الثانية . انسكبت انوار السماء وظلمتها فوق العشب وتضوع الاثير بعبق الاريج . تدرك انها نامت كل النهار , دون ان تمر بها أي احلام .

رقدت في سكينة تحت تأثير المكان . كل شيء قد انزاح من ذهنها , لكنها ما ان استيقظت حتى سحبتها افكار الواقع . تستأذن السيدة بالدخول وتدعوها لمرافقتها للخارج . تغير ثيابها , ترتدي ثوب طويل

اسود وحجاب بني . تذهب للحمام وبعد خروجها تجد السيدة تنتظرها . يقطعان الممر الصغير قرب الغرفة باتجاه الحديقة الخلفية . يجلسان فوق حصير اخضر في منتصف الحديقة ويتكأن على الوسائد الصوفية . الغريب والرجل يجلسان على مقربة , على كرسيان من الخشب القديم . شوايات السمك قد وضعت فوق النيران . الواح الخشب تحترق .يلتمع لهيب النيران وهي تتنفس , الجمرات الحمراء تتوهج , لون ازرق يتطاير داخله الاحمر, كأفاعي حمراء تتلوى وترقص , تموت وتنهض .

دخل الظلام عنوة وابتلع كل ضوء . توهجت النيران , برتقالية حمراء . تستمر الشرارة بالتطاير والحطب بالتفرقع . وبدت اول النجوم وهي تلمع , تلتها اخريات وزينت سماء الليل بلوحة لامعة , وظهر الهلال الابيض , هلال رقيق يجمل الافق ويرفع حدة الجمال ومعاييره , ويعكس ضوؤه المنساب فوق وجهها الأهيف الذي تلاطفه عذوبة ليل الخريف .

الرجلان مشغولان بالاحاديث . صوت الرجل الكبير حاد وكلماته واضحة ترتفع ويبتلعها الخلاء الاخضر , وصوت الغريب منخفض اشبه بهمسات قصيرة تكاد لا تسمع , لا ترى سوى شفاهه وهي تتحرك , لكن حدقتاه السوداوان تنظران بعمق نحو السماء . خياله يرسم لوحة , يمد خط رفيع بين النجوم ويجمع الخطوط مشكلا هيئة معينة , يكون ذهنه ظلا مألوف . انقطع التيار الكهربائي وبات المنزل في الظلام تحت سطوة الليل . لكن احد لم يقلقها بالتساؤلات بل استرسلت السيدة حديثها عن نفسها , وبدأت في سلسلة من احاديث عابرة . نهض الغريب ورفع الشوايتان عن النيران ووضع السمك في الاواني المعدنية الكبيرة التي لها

شكل سمكة . نهضت السيدة وعادت وهي تحمل الخبز واللبن الخاثر , يتبعها الرجل وهو يحمل صينية من الخضروات والارز الابيض ومرق احمر . تناولت السيدتان عشاءهما منفردتان فوق الحصيرة , والسيدان فوق الطاولة , وبعد الانتهاء سكب الشاي في اقداح زجاجية صغيرة مدورة الشكل . استنشقت جميلة هواء نقي , خليط بين روائح الارض الرطبة وروائح الخريف , ثم نهضت قبل ان تهم بالمغادرة نحو الحمام ثم الغرفة وحملت حقيبتها ثم خرجت نحو السيارة .

يرتفع هدير المحرك وتثار موجة الغبار تحت الاطارات السوداء . يلوح الرجل وزوجته دون كلام . تنطلق السيارة في الطريق الترابي الممهد ابتداء من عتبة الدار. اضواء المركبة تتوهج بأعلى قوتها لتضيء الطريق الخالي من المصابيح , فقط قناديل السماء واضواء بعيدة خافتة تتبدد في المدى من المنازل البعيدة . تسير السيارة ببطء شديد وتخترق صمت البساتين , وتعكر صفو الطيور في اعشاشها في قلب النخيل . تشق العدم الاخضر بروية وتقطع الممرات , ما ان ينتهي ممر حتى تصبح السيارة في ممر اخر شبيها به وكانه ممر واحد يعيد تجسيد نفسه مرارا , حتى تبدو الممرات بلا نهاية , ممر خلفه ممر يليه ممر , كأنها مصممة كمتاهة .

الغريب يتدخل عندما يدرك ضياعها :

انه طريق مختلف , سندخل الطريق السريع بعد دقائق .

لكنها غارقة في دوامة الافكار الخاصة بها , تحاول طرد التفكير و تفشل . تضرب الافكار مثل مطرقة . باتت تتخيل المساحات الخضراء انها غدت الان مجرد ذكرى اكثر قربا من وهم . الان هي تبتعد عن خانة الحقيقة وبات كل شيء خيالي . المتاهة الترابية تحيط بها الجنائن الخضراء . داكنة تحت بصيرة من الليل . يلوح لناظرها الطريق السريع

ومصابيحه . تظهر لها التفاصيل اكثر وضوحا . تبطء السيارة قبل ان تدخل حيز الطريق , ثم تندمج . الان هما في المدينة .

تأثير السماء يتسلط فوق تأثير المعدن , ويتلاشى بريقها الابيض , فلا يكاد يرى سوى السواد الذي يفرد نفسه بلا انقضاء . والهلال الابيض يقف باستعلاء فوق المباني . يرتفع ضجيج السيارات وهي تزمر, وضجر الاشخاص يرتسم فوق وجوههم المتهكمة . يتعجل بعضهم في المسير وكأنه وحيد في المجرة , يركض خلف شيء وسيهلك قبل وصله . تعبر السيارة الطريق , وتتوغل داخل احياء المدينة . المنازل اصغر واجمل , الرخام يلمع والابواب المزخرفة دون اسراف والاسوار المنخفضة , لكنها تفكر انها مازالت ذاك الجماد الاخرس الذي يطالعها , تحدق بها موبخه على فعلها الهمجي , على خروجها عن فروض الطاعة المرسومة لها , لكنها تجاهلت نظراتها عبر الاسمنت , واستمرت في انهماكها في اكتشاف المدينة كطفل يغادر المنزل لأول مرة . المحال المفتوحة , المطاعم المزدحمة , الاشخاص يريحون ويجيئون . السيارة تبطء قبل ان تصعد الجسر . الماء يتعكر . الريح تعبر خلال المركبة . السيارة تستمر بالانعطاف والتوغل , اخيرا تتوقف .

الفصل الحادي عشر

استيقظت السيدة لبيبة كعادتها مذ اول الفجر .قبل ان ينزاح الظلام وتطغي فوقه اضواء الصباح الخريفية . استطاعت ان تسمع تيارات خفيفة تهب في الارجاء .

سارت حذرة في ظلام الغرفة بالكاد حاملة جسدها اللحمي . وفكرت في طريقها الى الحمام انها ربما قد اكتسبت القليل من الوزن بل في الحقيقة الكثير. وبما انها قصيرة القامة ناعمة الاطراف فقد كانت منفوخة كبالون عبء بالهواء حتى اخره وسينفجر في أي لحظة . كما انها قليلة الحركة تقضي معظم وقتها في الصالة , فتستقبل الضيوف او تطالع الهاتف الذي يظهر لها صور مشوشة وملونة . وعندما دخلت للحمام ازاحت وشاحها الاسود , وظهرت جديلتيها الرماديتين ومقدمة راسها البيضاء الناصعة , فتوضأت بترتيبها المعتاد بالماء البارد , واحست بجفاف حلقها وهي تقطع الممر الصغير, فدخلت المطبخ وارتشفت كاس ماء بارد واحست بالبرودة وهي تتكسر في جوفها . وخفق نبض في رأسها كطرق خفيف , تنبيه من نوع مبهم لم تستطيع فك لغزه . ثم عادت نحو الصالة , وادارة مفتاح الضوء الصغير واخرجت السجادة من جرار خشبي .

افترشت سجادتها المخملية الخضراء المزينة برسم للحرم المكي بلون اسود , وارتدت احرامها الابيض . وبعد انتهائها من فرض الصلاة واخرى عما في ذمتها , جلست مقلبه المسبحة بحباتها الحمراء بين اصابع يدها اليمنى , مرددة تسبيحات وتكبيرات , شاردة حالمة بين حين واخر. فتعود زاجرة نفسها مؤنبة ضميرها على ذألك السهو الغير متعمد في حضرة الرب . لكن مهما حاولت طرد ذألك الشرود المباغت دائما ما يوجد فسحة كافية لنفاذ الشياطين . تارة تقلب في نفسها اخر زيارة للطبيب الذي اخبرها ان ضغطها اخذ بالسوء وان عليها ضبط اعصابها اكثر. تارة تفكر في نبراس التي باتت الان عانس من وجهة نظرها , وحتى لو نجحت في تزويجها فأنها ستحمل في سن متأخرة . كم يؤرقها التفكير في تلك المشكلة بالذات . تحاول كبح ذهنها عن ذألك السهو المباغت الذي يحملها نحو مشاغل الحياة . تتساءل عن أي قوة تملكها شياطين الجحيم حتى تهجم في هذه اللحظات مزعزعة ايمانها اليقيني . لابد من وجود خطب ما او ضعف , تحاول العثور على موطنه وتقييمه حتى لا يغدو هناك أي مجال للزلات . عليها اولا تحديد الشرخ الذي يتيح للخطيئة التسلل . لكن احدا

لن يلاحظ التوتر الذي ينتابها وهي تبحث عن مواطن الضعف والتخلخل , محدقتا بتمعن نحو الخيوط السوداء الحريرية وهي تتلاحم وتتلاقى في رسم صغير للكعبة .

ربما يحسبها الناظر متخيلة نفسها داخل الحرم المكي المحاط بالرخام الابيض كحلم طال انتظاره . لكنه لن يبلغ الحقيقة التي تعرفها نفسها . في لحظة شرود اخرى تعود نحو سنواتها الاولى , فما عادت ذكرياتها تسعفها في رؤية وجه ابيها . انها تتذكر دشداشته البيضاء البالية معقودة حول خصره في عقدة دائرية صغيرة , وسرواله الابيض المصفر. قامته الفارعة وساقاه البارزتان بطولهما . يتسلق جذع النخيل عاري القدمان . يحمل عثاكيل التمر بكفه العظمية بعروقها الخضراء النابضة . يتسلق نخيل البستان حتى اخر واحدة ويقلم سعفها . تذكر قدور طهي عملاقة تغلي بسائل كثيف اسود . تذكر رائحة الحطب المحترق وفرقعته ودخانه الذي يندمج مع كل شيء . السائل الاسود وهو يتكثف بلزوجته . ثم سكب العسل الاسود في علب صغيره , دبقه وحلاوته فوق لسانها وسبابتها . تذكر سلال الخوص التي تصنعها امها من سعف النخل وهي محملة بتمور حمراء وصفراء وسوداء , ثم السلال وهي توضع في الشاحنة وابيها وهو يقف منتصب القامة تحت وهج شمس تموز وهي تنعكس فوق بشرته السمراء .

انها تذكر وشوشة من رؤى متقطعة بينها ثغرات . تحاول ملئها بتخيلات من صنيع عقلها يرسمها كي يسد الفراغ .؟ انها تعصر شيء آخر كمن يحاول عصر زيتونة من اجل استخلاص زيتها , انه في نهاية الاربعين ترتمي عباءته الصفراء بوقار فوق كتفيه العريضان يلف طرفها فوق يده ويخط

خطوات كبيرة . انها تحاول انتزاع السر القدسي لنبرته الذي يجعل منها مميزة وعصية على النسيان , محفورة داخلها كنقش بإزميل فوق الصخر, يبدو كأنه يلقي بكلماته حالا على مسامعها ,.كأنه يضغط تربة البستان بقدمية توا . يستيقظ مع الفجر ويتوضأ في الحوض الخارجي المبني من الاسمنت على شكل مربع مرتفع قليلا عن الارض . ويفترش سجادته فوق الارض الجرداء تحت السماء . انه لا يؤمن بالحجب , لا ينبغي ان يفصله حجاب عن محبوبه الأوحد ... انه يحمل معوله ويضربه عميقا في التربة , ويضع قدمه فوق طرفه الحديدي ويضغط , ساحبا طاقته من الداخل مفكرا بشيء اعمق مما يحفر, واضعا طرف الدشداشة في فمه مستحضرا ذكريات شتى , الحفر , خنادق , معول اخر يضرب في الارض من اجل قبر , الشمس ولهيبها والحر والخوذة كلها حاضرة نابضة . أي صوت يسمعه يذكره بهدير المدافع وهي تتراجع بعد قذف كتلة معدنية ساخنة تطير وتسقط وتشتت اشلاء لحمية . انه بيدق محروق حي لكن ميت , استطاع النجاة بأعجوبة لكنه فقد ابن لم يتجاوز التاسعة عشر لم يعثر على جثته قط , قيل ان هدير الطائرة المميت اوقف استيعابه وجعله ذاهلا امام سطوتها وهي تدفع ما في جوفها ثم بم , بم ...اشلاء اخرى , ربما تلك هي ذكريات الولد انتقلت نحو ذهن ابيه . انه يستمر بالحفر تراقب حاجباه المعقودان والعرق الساقط من جبينه , وبشرته الذهبية وعضلاته المشدودة والمتأهبة لأي حركة فجائية كجندي في المعركة . لم يكن ينطق بالكثير مثله مثل اقرانه الذين اعتادوا الصمت في المنازل والثرثرة مجتمعين في القهوة , نافخين دخان الأراجيل الكريه , شاربين اكواب الشاي المر والداكن . هناك يتوقف الزمن فسرعان ما تزوجت وغادرت المنزل ولم تذهب الى اليه سوى مرة واحدة كل عام حتى تكالبت الاعوام الى وقت موته , موت امها , قبراهما الممدودان وسط اعداد لا حصر لها من القبور في وادي الاموات . كل شيء يبدو بعيد في ذرى الاعوام التي باتت غبار تنفضه عن نفسها . انه تدفق كثيف ومستمر وعشوائي لذاكرتها . تفعله بين حين واخر حتى لا تنسى . كأنها تعيد ترتيب اشلائها

المنسية من بين ركام السنين كي تعرف من هي وكيف اصبحت ما هي عليه الان . خط قصير فقط . لكنها مليئة بالرضا وتفيض ببركة الحياة التي اكرمتها برفيق جيد يحزنها فراقها , وابن وابنة لا يزالان في مقتبل العمر. واحفاد ذكور هم مصدر سعادتها الابدي . تقول ان كل شيء تم تدوينه ولا منأى من القدر انه يخط نفسه ويثب فوقنا . يتخيرنا لمصيرنا المحتوم الذي طبعت كلماته في اللوح المحفوظ حيث كل اقدار البشر .

ان السنوات القادمة تبدو كغيمة سوداء تطمس كل ما بقي من ذكريات لوهن ذهنها وعجزه . خوفها ان لا يعد بإمكانها تذكر شيء, ان يفرغ كتابها فيغدو خاليا , مجرد صفحات بيضاء فتكون راقدة بانتظار مقدم الموت . انها لا تتبصر فقط تقارن بين العديد من اقرانها اللاتي عانين من ذات الامر .

المستقبل القريب يأتي راكضا باسطا ذراعيه نحوها . تتنهد مرتابة وتحضر فقد كانت غائبة عن الحاضر . تلف الاحرام وتطوي فوقه السجاد . تضع كفها فوق الارض وترتكز عليها من اجل النهوض . ترتعش ركبتاها وهما تحملان كل تلك الكيلوغرامات من الشحوم المتراكمة فوق هيكلها الضئيل داخل ثوب سميك فضفاض اسود . تختفي تفاصيل جسدها فتظهر كتلة واحدة مستديرة فوقها رأس صغير. تعيد السجادة المطوية الى درج خشبي . تخرج رأسها من النافذة لترى ان ضياء الصباح الضبابي عبر مقلتيها قد خرج في غفلتها الصامتة من تحت السماء وبدأت الشمس ترتفع في افقها .

في الصباح بعد الرنة الاخيرة . استيقظ ايار من مهاده وحيد دون الجسد الغريب الذي اعتاد رؤيته يشغل حيزا خاص به . وخطر له ان جميلة ربما نائمة في الغرفة الاخرى مع الاطفال . فكر وهو يمط ساقاه بتكاسل ماضيا نحو الحمام حاملا المنشفة القرمزية حول رقبته , مرتديا خفه المطاطي الابيض , متمهلا في اعماله الصباحية المعتادة , مغيرا ثيابه ممشطا شعره . ثم حديث ودي مع السيدة لبيبة وقبلة يطبعها بلطف فوق كفها , لم يسألها عن جميلة , انه يملك شعور يقيني بثبات الاشياء في يومه , كلاهما يملك تلك الميزة .

سار صباحه بشكل عادي حتى العودة الى المنزل . عند عودته كان المنزل في حالة من الارتباك . افكار الشك تثير زوبعة في الوجوه . تساءل عن السبب , قالت نبراس وقد خرجت كلماتها مرتبكة :

جميلة مختفية , ليست في المنزل .

اجاب ساخرا : تعنين نائمة الى الان , حقا , يا لها من كسولة .

لا , لا , اعني انها ليست في المنزل . ليست هنا .

هراء , لابد انها نائمة .

شرع باحثا في المنزل حتى فتش الغرف كل واحدة اكثر من مرة .بحث في كل شبر . بحث فوق السطح , بحث تحت السلم ,ب حث كمن يبحث عن غرض ضائع , لا عن انسان بجسد .

ماذا عن الهاتف ؟ حاولنا , الرقم غير معرف , حاولنا مرارا .

ماذا تعنين ! هل تبخرت , هل طارت , هل اختفت , تلاشت مثل سحابة دخان ! غير معقول . سأتصل بأخويها ربما غادرت ضجرة .

لم تغادر قط وحيدة , انت تأخذها وعند العودة تذهب بنفسك لجلبها . لكن عليك الاتصال على كل حال .

السيدة لبيبة ضاعت في دوامة من الاحتمالات السوداوية , وعاد لذاكرتها الكثير من الحكايات القديمة والتي كانت تحسبها اقرب الى سراب . القصص التي ترددت على مسامعها منذ الطفولة , عن نساء وفتيات , تغادر صوب العاصمة الكبيرة حيث يصبح البحث عنهن اشبه بالآبرة في كومة القش . يغادرن الى الابد . القصص المعتادة تلقى على مسامع الفتيات مع النضوج , تحذير حقيقي من الانصياع نحو الملذات او السقوط في شباك الرجال اللعوبين , الذين يرمون الطعم ثم يشدونه حتى تلقف الشباك سمكة صغيرة طرية وسهلة المضغ .

الصمت كان حاضرا وبقوة لفقدان الكلمات كل معانيها . اتصل ايار بكل الاقرباء مفضيا بالحقيقة على مضض , وهو يسئل سؤال مثير للعجب , سرعان ما تتبعه آلاف التساؤلات . وحضر الاخوان بطولهما الفارع وتفاصيلهما القاسية , اللذان لم يلتقيا بأختهما منذ ست اشهر كاملة , وارتبك البيت بحضورهما القاتم . يفكران بالفضيحة التي ستلطخ العائلتان , اهل الزوج واهل الزوجة , ليتها ماتت قبل ان تلبسنا هذا العار . الفضيحة تأخذ لحظات لترتسم وتلطخ الاسم اعوام طويلة , وستتردد الاقاويل والحكايات وتتناقل اجيال بعد اخرى , سيصبح حديث الأسرة اشد جلاء من نار على علم .مهما اجتهدت الاسرة في الكتمان فأنها لن تنجح .اي فكرة من الممكن ان تلمع في ذهن انسان يسمع هروبها , لديها حبيب هربت لتكون معه , هربت ربما لتمارس الرذيلة , هربت خارج حدود الوطن بحثا عن بداية جديدة , كل الاحتمالات واردة .

فوق اعلى السرير , فوق في منتص الجدار الابيض , هناك علقت الصورة , مؤطرة باطار خشبي مزخرف . مربعة , زجاجها لامع , علقت فوقه ذرات من الغبار , لكنها لازالت واضحة الالوان , صارخة المعنى , ايار ببدلته الزرقاء وجميلة العروس بفستان منفوخ مثل كيس بلاستيكي , مزخرف , مطرز بأشياء لامعة تكاد تعمي العين لشدة بريقها , وابتسامة فاترة , مصطنعة اشبه بابتسامة الموتى الذين تسوى وجوههم بالمكياج ويلبسونهم اجمل ملابسهم ويرسمون فوق شفاههم ابتسامة جامدة ثم تلتقط الصورة للذكرى , هكذا بدت .

هراء , هراء , قال في نفسه . لابد انه فكر ان ما يحدث هو مجرد مزحة ثقيلة , مقلب ساذج , او كابوس سرعان ما يزول , وبعدها يفتح عينيه ليجدها نائمة بجانبها من السرير . هراء اعادها مغمض مقلتيه , متمتم , هذا حلم , هذا حلم , لكنه فتح جفناه وهو واقف امام الصورة , كل شيء في مكانه واقف , منتصب , جامد , ميت مقزز بكل المفردات . انقض كحيوان مفترس , نزع الصورة بكلتا يديه , كأنها شيء ثقيل يأبى جسده حمله . انهال ضربا بها فوق حافة السرير المدببة بخشب سميك , محطما الزجاج , والغلاف الخلفي ثم الصورة الورقية . مزقها قطع , صغيرة , اصغر ما استطاعت اصابعه تقطيعه ثم حمل القطع الممزقة وكانه يحمل اتجاهها غضب او ثأر قديم ,.وضعها طواعية في سلة مهملات صغيرة واشعل معها ورق اخر خفيف . شاهد نيران صغيرة تشب من الورق تعلو قليلا ثم تخمد .

هبط الليل , وكم كان ثقيل , اثقل من ان يهبط فوق الارض في ذألك المساء . يطبق بصفائحه السوداء كل الهواء ويضغطه . واثقل من ان ننام فيه بسلام , منهزمين من وقع الايام . جلس تحت السواد العميق . كيف حدق في السواد وميزه , فقد كانت السماء مذهلة , في كبدها يلوح الهلال , والنجوم قد اشتعلت بنور الاجرام , زينه لا يضاهيها على الارض الق او مثيل . لكنه كان يجلس لا لشيء سوى التحديق نحو سماء العدم , العدم في ذاته , والسواد في جزء مبعثر من السماء تتخلله لمعة الكواكب . لا شيء كامل , لم يكن يحدق سوى في الماضي وقد انزاح منه الستار وانكشف , وانبجست من روحه ثقوب هوائية لأشياء غير مرئية , اشياء تعوم منسجمة مع الهواء , خيالات الماضي السوداء , تستيقظ من احزاننا الدفينة وتتغذى كوحش جائع يقتات على كل خيبة نحصدها , يئز سائلا مخاطيا من روحنا يجعله اقوى ليسبر غورنا .

الفصل الثاني عشر

كانت الغرفة بالغة الصغر . تحتوي سرير خشبي واحد , جديد . عارضته الخشبية مطلية بلون ابيض ومزخرفة بزهور حمراء . شراشفه الارجوانية من المخمل السميك جديدة , ولازالت تحتفظ برائحة الكيس البلاستيكي الذي اخرجت منه . كرسي خشبي وطاولة مدورة الشكل لا تسع سوى صينية صغيرة , ونافذة واحدة صغيرة , مرتفعة كثيرا عن الارض . لو كانت سترغب في القاء نظرة سيتوجب عليها الصعود فوق الكرسي . وخزانة خشبية بيضاء ذات ثلاث ابواب . وحمام منزو الى احد زوايا الغرفة , بابه لا يتجاوز سعة شخص واحد للمرور , بمرشة ماء صدئة , ومرآة مربعة الشكل معلقة الى الجدار بمسامير حديدية ذات لون فضي تدخل خلال اطار بلاستيكي احمر يحوط المرآة .

وللغرفة رائحة رطوبة تبدو دخيلة وغريبة في بداية الامر للقاطنين الجدد , ثم سرعان ما يألفها الانف كجزء متجذر في الغرفة . كانت الايام الاولى في منتصف الخريف ايام صافية , تلتها ايام متغيرة المناخ . نسمات باردة ليلا , دافئة صباحا , احيانا ريح متوسطة الشدة تستمر بالهبوب طوال ليال .

في الخارج الكلبان يتثاءبان ويمطان جسديهما بتكاسل . الغريب يمضي معظم وقته في الزقاق . حارس في ضوء النهار , مراقبا بعينيه , لكنه يبقى محتفظا بصمته , لا يتكلم الا لو اضطره الامر . في النهار الزقاق يخيم فوقه هدوء نسبي يقطعه عبور سيارة بين فينة واخرى . والفندق كذألك , اغلب ساكنيه لا تند عنهم ادنى حركة سوى تقلب الجسد يمين ويسار في الفراش , عدا العاملة العجوز حكيمة المسؤولة عن التنظيف والتي يروح جسدها الهزيل وعظامها القوية تتحرك صعودا ونزولا وهي

تقوم بحملة تنظيف صباحية , من اجل التخلص من ضوضاء الامسيات , والسيدة الاخرى نهاد التي تقوم بتحضير الطعام . وكانت العجوز حكيمة تغادر في المساء , اما نهاد فكانت من قاطني النزل منذ اكثر من عشرة اعوام , ولكن لو اطلع احدهم على هيئتها لحسبها ضيف جديد على وشك المغادرة حالا , فقد كانت تحتفظ بنظرة فارغة , لا يمكن تفسيرها , او كشخص خرج لتوه من صدمة ما بعد الحرب .

تدب الحياة في الفندق عند المساء . انهم خفافيش ليلية . همسات ضحكات , حفيف الاثواب الحريرية وهي تلف الاجساد الطرية , الزينة المبهرجة وهي تلمع وجوه النسوة , اصوات الكعب المرتفع وهو يقطع درجات السلم وئيدا . ويفوح الجو بشذى عطور مختلفة , نعومة نسائية خالصة , حتى لتبدو النساء كجواري من قصر الف ليلة وليلة . وعطور ذكورية قوية من الوفود , تختلط مع روائح البناء القديم وعفونة مترسخة مع ورق الجدران الذي ظهر في انوار الليل اكثر قبحا من انوار النهار . فوق السلم ينحدر ضوء منفلت من اضواء الطابق الاعلى , ضوء احمر قاني يتوقف عند اول درجات السلم , كأنه يعرف حدوده ومداه , تليه بقعة سوداء خالية من الضوء قرب مكتب العمة نافلة مديرة هذا الفندق . صخب الحفل يمتد حتى ربع الليل الاخير , زوبعة الاصوات تثير فيها الحيرة , اذناها الصغيرتان ترتفع حساسيتهما , لكنها تأبى ان يشارك جسدها في الرذيلة , ليس لها هنا أي جذور, قوة نفور تكبر نحو المكان .

في الصباح عبرت الاشعة الذهبية النافذة بخطوط مائلة . انتشرت حزمة الضوء في بقعة صغيرة تاركا بقية الغرفة في الظلام .

هو ذات الضوء والشمس نفسها هناك تألقت . خلال النافذة حزم توهجت . وخيط رفيع كان جريء بما يكفي كي ينكسر بعذوبة فوق السرير, ويضع لمسته الصفراء فوق جفنها المغلق . ولم يكن بقوة كافية كي يوقظها ببسالته , فقد كان صخب ليل البارحة ثقيل , كما ان المهدئات التي توضع مع الطعام كانت ذات تأثير اكبر كي تجعلها تغط في نوم عميق . قررت العمة نافلة ايقاف الحبوب المنومة في الايام اللاحقة كي تعرفها على واقعها الجديد وتجبرها على قبوله .

في الليلة الاولى جربت الصراخ . اكتشفت عندها ضعف حبالها الصوتية , فقد كان صوتها يتلاشى بين جدران الغرفة مخلفا سكون . استمرت في الصراخ ايام اخرى رغم عجز صوتها عن الخروج فقد كان صراخها عديم الجدوى تماما .وخيل لها انها مسجونه في صندوق اسمنتي صغير حتى اصبحت تمر بنوبات صعوبة في التنفس , كأنما كانت الغرفة علبة مفرغة من الهواء لا منفذ لدخول الاوكسجين , انفاسها محبوسة فقط هواء الزفير والشهيق يعاد تدويره في حلقة مغلقة ومعزولة في مدارات ارتدادية متحررة من القوانين الفيزيائية .

انتقلت بعدها الى اسلوب اخر , فقد اضربت عن الطعام . تأخذ ناهد بجسدها الانبوبي الطويل صينية الطعام كما هي دون ان تمس , فقط علبة الماء كانت تنقصها كمية قليلة , بضع رشفات كافية لسد العطش . بعد عدة ايام من الاضراب والضعف , اكتشفت ان الاشياء حولها تعوم , السرير الخشبي بوزنه الثقيل يطوف و يرتفع حتى يلامس السقف , الخزانة الخشبية تنقلب رأسا على عقب , النافذة الصغيرة تصبح اكثر ضيق , هي تطير نائمة , ترفع ذراعاها , اناملها الرفيعة تلامس قشور السقف البيضاء , شفافة هزيلة . ثم تطور الامر لاحقا اذ اصبح

البناء يدور , الاشياء تتراقص متذبذبة , شيء يشبه فقدان لجميع قدرات العقل , عاودت بعدها تناول الطعام .

ينقضي النهار الساكن . وترتفع الاصوات بعد المغيب و تحجب البنايات الصامدة افول الشمس واختفاءها تحت ظلمة الليل .

لم يخلو فكرها من زخم الافكار , اجمعت بعد طول تفكير الى فكرة اخرى , هروب اخر , عليها ان تتخذ لنفسها سبيل . علت وجهها نظرة جنونية , كقطة ابرزت مخالبها وكانت على اتم استعداد للدفاع عن نفسها .

في الليل تبقى يقظة تحصي اصوات الخطوات التي تقطع الممر . تجر الكرسي اسفل النافذة , تشاهد منتصبة القامة من خلف الزجاج . الغريب امام منزله , يختفي وجهه في هالة بيضاء من نور القمر , ينصب فوقه بسخاء كشلال ابيض ناعم . تضيع ملامحه الثابتة بين توهج الضياء , وتنسكب في جسده طبقات من الظلام , جسد اسود جامد , تمثال متحجر , تكومت عليه اعوام من الترسبات حتى اصبح من الصعب تمييزه , لكنه ينهض بجسده ويشتت *صورته القائمة مع نشوء الليل , ويتمايل ظله بإسهاب فوق جدران الزقاق* مختلف الابعاد . ظل طويل متحرك , يأخذ في الابتعاد ببطء , يتساوى ثم يختفي هو وظله في بقعة جرداء عارية من الضوء , جزء مقتطع من العدم , يزدوج مع جدار طويل . تنساب في جسده ريح عابرة , تحركه , تحزنه , تذكره بغربته , فيعاود المسير , وتعود سلسلة الضلالات المنعكسة بقعة تلو الاخرى في مشهد معاد , اعداد لا تحصى من المرات , رسم كارتوني بالأبيض والاسود , هي تمسك بظلاله ثم تحررها فهو مثلها اسير .

يهسهس مطر خفيف فوق الاسفلت . وقع الاحذية الجلدية يتزايد . يتنفس الليل بهدوء . يمط نفسه العدم . تتبدد الاجساد في الظلمة . ظلال الوافدين تبدو شاحبة . الشوارع مقفرة . الزقاق يغوص في فراغ في نهاية الليل . تعود نحو السرير , تكاد تنفذ منها الآمال , وترهبها الاحلام . عن أي سبيل تبحث , وحشها النائم بدأ في الاستيقاظ , وانسانها القديم قد حضر .

هي تفكر دون افكار . تسبح في عتمة نفسها . عتمة فارغة . سلسلة متواصلة من اللحظات , صور متشابكة , ذكريات فالتة من بين طبقات كثيفة من نسيج الدماغ . تبحث فيها عن شيء تجهله , عن صور عشوائية تساعدها في بناء فكرة متماسكة , لكنها ليست من صانعات الافكار الخلاقة , بل كانت حياتها اسهل او اتفه . انسان منقاد , احدهم ينوب عنه في اتخاذ قراراته الشخصية وتحديد مصيره . لكنها ستنتظر روح السماء حتى تتجلى لها وتكاشفها بالخبايا الماثلة بين الاشكال والصور التي تسكنها , لعلها تفضي بشيء ذا قيمة . وهي تتشرنق تحت كثافة اشياء معتمة لا تقترب من ان تدعى افكار . تكدس نفسها فوق نفسها , تبني منها طبقات عديدة , مثل طبقات دهان سميك تطلى واحدة تلو اخرى . جميلة مدفونة في نقطة ابعد من ان تصلها هي . سطحها انسان صامت يقاتل من اجل اخر خيوط النجاة . تنتظر حلول الا شيء , وقت دون ميعاد . تمسك خيوط رفيعة منفلتة من حدود شمس بيضاء سرمدية , وليل حريري يمتد حتى يغلف الارض والسماء ويشتت انوار النهار , ليل بلا انتهاء .

انها تنتظر شيء غير محسوس . تعد بطرفة جفنها شيء لا يعد , حدث ربما يقع وربما لا . هي تحلم وتحلم , وتضيع بين الاحلام , وتعود مستيقظة داخل الحلم نفسه . تشاهد ذات القصص تعاد مرارا دون انتهاء . تخربش بطبشور ابيض فوق لوح اسود . تعلق دقائق بيضاء بين انامِلها , تدور باحثة في الصف , دون نوافذ دون ابواب , فقط كوة ينبعث منها ضوء , تسير باتجاهها تنحني فوق يديها وتحبو كطفل خلال الكوة . تفتح جفنيها لتشاهد الصالة , ترتدي ثوب اسود جنائزي , وجهها كذألك لا يظهر منه شيء فقط ثقبان للنظر . ثوبها الاسود طويل لا تعلم اين نهايته فقط تشاهده يمتد . التابوت في المنتصف , النساء يتحولن الى قطط سوداء جائعة , يلتهمن قطع لحم دامية . تقترب من الخشب المستطيل , تبصر جثة مشوهة , لحم مقطوع , ودود اسود يحفر انفاق عميقة بين اللحم والاحشاء السوداء العفنة , جثة دون راس . تنفصل , تبتعد , تتراجع , تغوص في رمال , انها الان في المقبرة . في سيارة كبيرة تسير . الركاب غرباء لا تعرف احد منهم , وجوههم دون ملامح حقيقية . تلمح قبور بلا شواهد , بلا اسماء بلا تواريـخ , انها تحصي القبور , , واحد , خمسة , عشرون , مائة , الى ما لا نهاية ... تستيقظ اخيرا وتدرك انه حلم . لا زال الليل في بدايته بالكاد قد انتصف , يمضي الخريف , ويتقدم الشتاء .

الفصل الثالث عشر

يتعين عليك ان تمسكي جماح نفسك يا امرأة , تبدين مثل ثور هائج , حري بأحدهم سجنك في حضيرة .

تتدخل الاء في محاولة للتخفيف من حدة الامر :

عبثا تحاولين لن تروض ابد هذه القطة .

توافق العمة نافلة وقد اغتاظت واحمر وجهها :

سيرغب الباشا في اتخاذ قرار بشائنها , عليه القاء نظرة .

بلا شك سيرغب .

سأهاتفه عما قليل , لن يتحمل عقلي وجودها القلق داخل الفندق , لكنني اتأسف على جسدها اليافع كان يمكننا الاستفادة منه .

انها مسكونه بروح الشيطان .

لا لا انت مخطئة انها مسكونة بجن وحشي .

تكورت جميلة في زاوية قرب السرير . وضعت رأسها في حجرها , وضمت اليها ذراعيها , جنين يرفض رؤية العالم ويوشك على مغادرته .

مطت العمة نافلة قدميها المكتنزتان بالشحم . لمع بياضهما الناصع تحت التنورة السوداء . خرجت امام البناية . اعادت خصلات

صغيرة من الشعر خلف اذنيها . غمرت بشرتها بأشعة الشمس . نادت بصوت مرتفع :

الاء احضري الكنزة البنية .

اسرعت الاء وهي تحمل الكنزة . ارتدتها العمة نافلة واحكمت اغلاق الازرار البيضاء , ثم سارت على مهل نحو الغريب , وسحب كرسي , وجلست تحت نور شمس الشتاء .

اسكب لك كوب شاي ؟

ستكون متفضل .

سكب الغريب الشاي الساخن من الابريق . جلسا يرتشفان , يراقبان هدوء الشارع . سيارات مسرعة تخطف بين حين وأخر, كاظم غادر للنوم , سهر ليالي الشتاء مرهق فهي طويلة وتجلب له الملل . الغريب ينتظر العمة نافلة كي تنطق ما يحمل وجهها من كلمات لكنه يبدا الحديث :

ما الامر ؟ لا تبدين على ما يرام .

انها جميلة ترفض التماشي مع التيار , لا يبدو لي انها ستغير رايها .

بماذا وعتها ؟ تخرجينها من البلاد ؟

ربما فعلت , لكن هل حقا صدقت , ثم انهن جميعا يستسلمن بسهولة , يهربن لهذه الحياة , لم اتوقع ان تكون بهذا العند .

ماذا ستفعلين ؟

سأبلغ الباشا , انه حر بما يفعل .

انه يحاول الا يتدخل , لكن امه تتراءى له وهي مبتسمة ثم تتلاشى الابتسامة وتحزن . سيبتلع الشيطان جميلة , سيمضغها بين انيابه . يا له من سجن محصن ذألك الذي القت نفسها فيه . سيقنع نفسه ان ما

يحدث ليس من شأنه . ستطارده لعنة امه , أي خواطر تسكن ذهنه , أي مشاعر اختلجت في روحه . في ظلمته الدفينة دارت رحى معارك قديمة . لم ينجح في تخليص نفسه من انقساماته الداخلية , بين ان يبقى على الضفة مراقبا البحر وهو يموج ويبتلع جميلة بين امواجه , وبين ان يتدخل ليس فقط من اجل جميلة بل من اجل نفسه , ان يحرر روحه من سجنه . الان بات مثقل بالأفكار , قلبه يتوسل ان يتدخل , روحه تنشد شيء من الرحمة , هو مذنب ايضا في نظر نفسه , مشارك بشكل او باخر بهذا الخراب . امه مستيقظة , امتد يومه طويل وثقيل . ثار على نفسه اكثر , تمزقه روحه وهو يسمع صوت امه تناجيه .

ثمة لحظة تدبر تلقاها ما ان ينكشف لها الضوء الواقع خلف جفنيها المرتخيين عند استيقاظها اثر سقوط بقايا من شعاع كليل .لحظة تسبقها كانت حرة التوغل تنتقل بطلاقة ما بين عوالم النوم المتعددة . فما ان تغادر احدها عبر غشاء شفاف من رمال السحر التي فورا تنثال طامره عالم قد اضمحل , ماضيتا نحو خلق عالم اخر من وحي الخيال الجامح .

وتحت تأثير افكار ورغبات , ومنغمسة في اشياء محال ان يصبح أي منها حقيقة , كما ان رأسها آنذاك تكون خفيفة لا تثقلها المخاوف , مسترسلة بلا انصياع لأي من القوانين المفروضة من الواقع . ممحيتا الفوارق والاختلافات ما بين الممكن والمستحيل . وها هي لحظة تليها مستيقظة غير مدركة بعد لوجودها في هذا المكان البعيد عن كل ما هو معروف لديها . فتأخذ وقتها في تأمل الاشياء حولها , فتركز نظرها نحو النافذة الضيقة والستار المنزاح , والضوء الذي يتشتت بأعمدة رفيعة مثل خيوط تمسك بكل ما هو موجود داخل حيزها , حتى انها تقبض بأغلالها الصفراء الدافئة على كل ما هو واقع امامها في نصف كامل من الارض محيطتا اياه بنورها . ثم تنتقل بنظرها نحو الخزانة الخشبية الواقفة فوق مساند خشبية عريضة وسميكة , والمقابض الذهبية والنقوش البنية

بزخرفات وريقات الشجر الساقطة . وهي تطالع الخزانة التي تخدعها بليونة تحملها على وضع قدماها فوق الارض والتوجه تلقائيا باتجاهها واضعتا اناملها بلطف فوق الخشب الاملس للتأكد من حقيقة تلك الشكوك التي تكسر صلابة الخشب , والتي تختفي حالا تحت وطأة اليقين بطبيعة المادة الصلبة للخشب المتين متانة الجذع و الجذور الثابتة في ظلمة الارض .

ثم تتوجه نحو الحمام الذي لا يدخله سوى ضوء واهن من بقايا انوار الغرفة , وهو غير كافي لأدراك وجهها بوضوح في المرآة . والماء البارد الذي يلمس بشرتها الصافية دون شوائب ويعيدها نحو مفترق طرق اخر كان قد ارتسم لها وهي حانية حول الحوض متمتمه بالأغاني عندما ارتد لها كل الضجيج , حتى لشعرت انه انقلاب كوني اذونا بنهاية الحياة , التحام الارض بالسماء حتى ليصبحا كيان واحد غير قابل للفصل .

وبعد تركها الحمام مع تلك الذكرى , فأن بدنها لم يتح له ان يكون بعيدا كل هذه المسافة عن البيت الصغير الذي جزئها الى قطع صغيرة , وحشدها في كل الاشياء الظاهرة والمخفية , جزء في كل شيء يندمج مع كل الاشياء. في نسيج الثياب التي غسلتها مرات ومرات , وفي معدن الاواني التي قلبتها مرارا و تكرارا , وفوق السرير الذي اعتاد حمل جسدها طوال اعوام , والخزانة التي لا تزال محتفظة بثيابها غير مدركه لحقيقة غيابها , ورائحتها الناتجة عن مزج العطور مع رائحة البدن. وهي رائحة تخصها وحدها دونا عن البشر, كما ان لكل فرد فينا رائحته التي لا تنتمي لاحد سواه.

والوسادة القطنية التي حفظت شكل رأسها ووضعه اثناء النوم , وعدد مرات استيقاظها وتقلباتها . وجزء كبير من تفاصيلها وزمرة دمائها وعاداتها وافكارها ستنتقل تباعا عبر جيناتها ويتوارثها الاحفاد . كما ان قدماها قد تذكرتا وهما تقطعان الامتار الضيقة باتجاه النافذة , ان اقصى

ما قطعته هو مسيرها نحو القبور في مدة اقصاها اربعون دقيقة لا تستوجب من قدماها سوى الترجل من السيارة الى القبر الذي يكون على مقربة . قبر ايوب الراسخ تحت التراب والديدان وسماعة طويلة لترتيل القران . وقبر لواحظ التي طلبت ان تدفن بجوار امها بعيدا عن ايوب , لن تحتمل لقياه في الجانب الاخر .

كما ان ذهنها بالتحديد لم يستوعب التغييرات التي اقدمت هي على احداثها , وهو لم يستكشف بعد ان كان وضعه الحالي دائم ام لا , فلم يتاح له وقت كافي لتدقيق المعطيات وتمحيصها , واذا كان الذهن عاجزا عن تفكيك الاشياء حولنا الى اجزاء صغيرة ومترابطة لمحاولة فهمها واستيعابها واتخاذ قرار معين بشأنها وتحديد مشاعره ازائها فانه آنذاك يصبح عاجز . وان انسان بعقل عاجز عن استيضاح حقيقة الاشياء وطبيعتها هو انسان يتخبط في ظلالة . ربما هي تختبر حالة من التوهان داخل حلقة مغلقة ولكنها أخذة في التوسع . حالة من حالات الجنون الحديث التي باتت تلازم البشر , شبيهة في ضياع المرء داخل هاتفه حتى لينسج لنفسه عالم مستقل مليء بالأوهام لا يمت بصلة واحدة الى حقيقته . لكن السؤال الذي يدور في الحلقة التي في جوفها وهي تقف فوق الكرسي وتطالع من النافذة , هل فعلا انساقت محمولة من مخاوفها ام راكضة خلف لهفاتها ! الخوف من الموت , واللهفة للقاء الموت ضدان لكنهما يتحدان بليونة وينموان بطلاقة داخل باطنها . تود ان تقطع طريقها نحو الموت هاربة من ذاك الموت . ان يموت الانسان وهو حي , ان يتنفس فلا ينبض فؤاده الروحي وليس العضلي , ان يتلاشى من حوله احساس الحياة , انه حي لكنه يكاد لا يلحظ . ان لا يكون هناك تباين ما

بينه وبين الجماد فكلاهما قد وجد لتحقيق غاية ما , او لأداء غرض معين . شيء موجود ولكنه غير مرئي , غير قادر على اثبات مكانه .

ثمة تلكأ في الكلمات التي تدور في حلقها يجعلها غير قادرة على نطقها , وثمة زعزعة في كيانها يجعلها مشككة في أهليتها للحياة . كان الغريب مستمر في مسيره المتقطع , يخط خطوتان او ثلاثة ثم يتوقف غارقا في صمت . في عقله تدور رؤى لا حصر لها , وينبثق عدد لا حصر له من الاحتمالات , لما يمكن ان يكون عليه شكل الحياة لو كان القدر اكثر رأفة به.

كان يرسم عدد من المسارات لكن ليس ثمة بينها مسار واحد يتضمن امه وهي حية , ففي كل مرة يحاول ابتعاث الحياة فيها يجد انها سريعا تموت بآلف طريقة. ولا يزال قاتلها واحد بجسد كطود ثابت , يجرب مختلف انواع القتل ما بين الطعن بالسكين , والرصاص الساخن , ويديه المجردتين . ليس هناك مهرب من موتها , ليس هناك طريق يؤدي الى نهاية مختلفة , كما ان الموت قد بث فيها حياة في لحظاتها الاخيرة وهي تبتسم بفتور, محدقة بضناها الوحيد وتطالعه بنظرة ثاقبة كفيلة ان تبعث في صورتها الحياة ايان استحضارها داخل وعيه .

لم يكن هناك من وجود للأشياء المادية حوله فلا ترى عينيه البيوت او الزقاق , ولا يبصر الهياكل المعدنية المتحركة التي تقطع الشارع

بين حين واخر , بل ان عقله يستنبط اشياء غير موجودة داخل اطار الرؤية . وان التغير الوحيد الذي يطرا على محياه يكون عندما يلمح شبحها خلف النافذة . تتضح امامه دون ما يحجبها من المثول امام عينيه من الابواب والجدران , دون الحاجة الى التواجد داخل البناء بشكل فعلي .

وكان حدسه يتنبأ له بلمحات لما هو آت , لما يمكن ان تتحول اليه مجرى الامور دون سابق انذار . وكان يخبره انه لو تجرأ ليرسم انحراف فانه آنذاك لا يفعل شيئا سوى تحقيق ارادة القدر, فهو ليس بصاحب ارادة بل يمتثل لتحقيق رغبة اقوى منه . ان عذابه يتزايد , و ينشأ من التفكير في صغائر الامور وكبيرها بذات الفحص والتدقيق , وبالأخص مصير جميلة من بين جميع الامور التي جرب مرارا صرف ضميره عنها كاتما صوته الذي يقطع فيه . ولما يبلغ به الامر مبلغه الا يصبح بمقدوره تجاهل الصوت , فأنه يميم خطاه خارج الزقاق حيث تحملاه قدماه غير سامع لنباح الكلبان متجاهلا كل ما يحوم حوله , موجها فكره باتجاه صرف نظره عن التفكير وبالنتيجة ان تفكيره يصبح اكبر .

غابت شمس الاصيل الشتائية . انطفأت انوارها الحمراء المخملية . افرج الليل السقيم عن اول طياته . زرقة حالكة يشوبها بعض من البياض الشاحب . ارتفع من المسجد القريب صوت المأذنة . صاح المنادي بصوت الصلاة . ايقظ في نفسه شعور , لما يتبدى له هذا الليل

الطويل كاشفا عن ظلاله ! لم ارتفع السراب في كبد السماء ! لما امه الميتة تناديه ! تؤنبه , تهدده , ان يطول الفراق ما بعد الحياة . لما الظلمة الحالكة تكاشفه عن الصور .

بين الفينة والاخرى القى نظرات خاطفة على ضوء النافذة . النور المضاء . تبدت صورتها باهتة . خيل له ان امه تشاهده . انها مضطربة في مضجعها الاخير , ستلعنه اذا ما احنث بالوعد الذي قطعه وهو يبكيها بنحيب , الا يصبح كوالده , الا يفترس النساء , سيساعد كل الضعيفات , قد تحرمه من لقياها في الجانب الاخر . يفترقان في العالمان ! لا يمكن لقلبه ان يحتمل التفكير في هذه اللعنة . ايقظ شفقة تجاه نفسه , غريب ووحيد دون وجهة , لن يندفع , لن يظهر شيء من رغباته الدخيلة , سيبقى محتفظ برباطه جأشه , سينتهز فرصته , انه على مقربة من شيء ما , المجهول لا يكشف عن نفسه , القدر الغامض يرسم مصيره .

انتصفت عقارب الليل . الضيوف يتوافدون , البناية مشعة بالأنوار .

الغريب يقترح على كاظم "

لو رغبت بالمغادرة سأنوب عنك , نمت كثيرا , سأبقى يقظ حتى الصباح في كل الاحوال .

انت واثق ؟

نعم , بلا شك .

انت رحمة , سأذهب , لو انهكت لا تتردد في ايقاظي .

حسنا لا تقلق .

ادارت العمة نافلة مقبض الباب , الغرفة تغط في ظلام . ضغطت مفتاح الضوء , السرير خالي , انها تحتفظ بنفسها في ذات المكان , مثل تمثال , شعرها القصير حرير ذهبي .

انت بخير؟

يسأل الغريب .

تتدخل العمة نافلة :

لا تقلق انها مخادعة لا تثير شفقتك .

يتقدم الباشا , كيف لي ان ابصر جمالها الباهر الذي سمعت عنه ؟

تتقدم العمة نافلة بتردد . تنهض جميلة , تسحب الطاولة الصغيرة تلقي بها في جسد العمة . العمة نافلة تسقط , جسدها الثقيل يصدر صوت ارتطام , الغريب يقدم لها المساعدة , لم تصبها الطاولة لكنها تقهقرت خائفة .

انها عديمة الجدوى كما اخبرتك .

الباشا يصر :

دعينا لا نتسرع , ونمهلها عدة ايام ربما اسبوعان , عسى ان يتبدل رايها .

تغادر العمة نافلة يتقدمها الباشا . الغريب يقترب من جميلة , جميلة في وضعية الدفاع :

سأساعدك ,.يوم الاحد صباحا , بعد ستة ايام , عديها وانتظري .

تنظر بثبات , نحو عيناه الواسعتان , لونهما اسود كلجة ليل , حاجبان كثيفان مقوسان كهلال , ربما سيساعدها , وربما هذا فخ اخر . لكنه قرارها بلا شك و من غيره لتثق به انه خلاصها .

الفصل الرابع عشر

تتوسع حدقتي العينين , وهما مثبتتان على الجدار , كأنهما تحدقان في الخلاء. عينين ذاهلتين ثقبهما الاسى منشئ ثقب عميق للدود المجهري الذي اطاح بأعصابها وقضم من روحها حتى يبست في المكان .اصبحت مثل دمية خشبية غير مسنودة ارتمت ساقطة نحو جاذبية الارض . اللعاب يسيل من زاوية فمها وقد ظهر التواء حاد في قسم كامل من الوجه . مشلولة في الصالة تنساب منها خيوط الحياة .

يهرب الوقت اسرع من قطار فائق السرعة . تستغرق عدة دقائق في الصالة المضاءة بوهج الشمس الواهن من الباب المفتوح . يتذبذب فوقها ضوء المصباح الكهربائي بينما يرسل امتدادات ضعيفة من اضواء تسقط ببهاء فوق جسدها . رغم ضعف الحزم الضوئية الواضح , الا انها تركزت

بشدتها فوق الجسد الملقى تحتها , جسد يابس ونفس مرتعشة وكأنها توشك على ان تلاقي حتفها , كأنها ترسم صورة مثالية , دقيقة , لسرعة عجز الجسد البشري وتقويض قواه الواهنة , لوحة مرسومة بإتقان من سيد الاقدار مع تداخلات بصرية ممتازة تبرز جمالية الصورة واتقانها .

نبراس تركض نحوها وتحرك الجسد , متسائلة عما عساها فاعلة , مستشعره دفئ الجسد . لا زال الابهر يضخ الدماء . السائل القاتم يسير بطيء داخل الانابيب الضيقة , والتي ازدادت ضيق منتفضة من احتمالها ما لا يطاق . متثاقلة, وشيء من الهم يعيق حركة المسير باتجاه الراس . ترفض ان تمر عبر المضايق المنحنية . عجز ثوري يخلق فجوة تأبى الامتثال لجهاز الدوران , وتربك الاعصاب محدثة حالة من شلل جسدي . نبراس تطلق صرخة وتهرع لاهثة الى الجيران , والرب وحده يعلم كم جاهدت باحثة عن الاتزان الا ان السيل قد بلغ الزبى . حافية القدمين , عارية الرأس , صفراء البشرة تبحث عن منجد . تأمن الاطفال لدى الجيران وتتوجه نحو المستشفى وفي خضم ضوضائها تسرع الاتصال بايار الذي يتجاهل رنين الهاتف , ثم ترسل رسالة تشرح فيها بعض مما جرى .

أيار مشوش , داخل عقله الصور غير مرئية . المستقبل مجهول , والمخرج يبدو مستحيل من هكذا ورطة لرجل مثله . من الظلمة ينهض شبح امرأة تتحرك في ممرات وتتخذ انعطافات غامضة . الوهم الشيطاني ينفذ من ضعفه ويسبر غوره . انه ضعيف مثل ورقة يابسة تسقط وتحملها اول موجه من رياح الشتاء الباردة , ترفعها خارج حدود الغلاف الارضي . ثقيل الخطى مثقل الجراح , كل شيء امام عينيه يتمدد , حتى الضوء وهو يسقط يبدو اكثر سطوعا ويصبح اكثر حساسيه تجاهه , حتى يكاد يجرح قزحيتيه , فيملئهما ضوء خفيف مثل انوار الغبش الواهنة .

العالم كما يعرفه يتداعى فوقه , قطعة تلو الاخرى . عليه ان ينهض من تحت الركام فهناك ثلاث صغار دون ام . عليه ان يتماسك , في داخله شيء يتمخض , الكائن الجنيني يتطور في كيسه . عليه ان ينازع نفسه

وذاته ويتحرر من صراعاته . عليه ان يشق نفسه الى نصفين فاسح الطريق بين الصقيع والحمم , كي يولد من جديد واهبا نفسه لهيئة اخرى . لكنه غير مستعد بعد . وعليه ان يتريث قبل ان يخرج هذا المولود , ويفكر قبل ان يتخذ الخطوة التالية في الحياة . هو الانسان المسالم المترعرع في كنف الاسرة الدافئ , الاب العطوف , الام الحانية , والاخت المحبة , هل سينكسر عند اول الطريق هل سيبدد ذاته الجليلة ام سيضيف لها ؟.

العالم الجائع للعذابات يترقبه , من بعيد من بين العباب الاسود الكريه يراقبه بعين وحيدة , تتلصص وهي مثبتة فوقه بإمعان , ترقبه من بين الدخان . ظلام العدم الكثيف هناك يتمخض مترقبا ما ستكشف عنه قريحته . الشيطان يقف بسياطه , مشتاق لعذاب البشرية مرسلا لعناته , يبحث عن الكائن المحبوس داخل الجسد البشري , وحش ام شيء اخر . يميل , ينحدر , تحت قوة الجذب والطرد , وقانون القوة والقوة المضادة , عن ماذا سينكشف ؟.

ان محاولة النور شق طريقه من بين القلوب الكسيرة هي محاولة جسورة جديرة بالثناء . وكذا محاولة جعل النور ينبثق من بين اجنحة الظلام المأساوي مخترقا كل الاحتمالات , هازما كل الصراعات التي نخوضها من اجل النجاة . نجاة الروح . ان نبقى نابضين داخل غلافنا المادي وصوتنا الخافت الذي يحثنا على الاستمرارية بينما كل الاصوات

تنطق بالرثاء لموتنا الدائم , وافعالنا الساذجة واخفاقاتنا المتكررة . الا ان الاهم هو اعترافنا اننا عاديين ونقاوم ونثير الثورات , ولن تخمد نيراننا الضارية منذ الولادة وحتى الممات . اننا حاضرين باقل ما هو محدد وموجود , ناطقين , ولو امتلكنا من الحلم ما يكفي لتوقفنا للحظات متأملين المنظر من خارج اطار الصورة . ربما ستخنقنا لحظات , تخرج من ارواحنا كلمات مبعثرة , ونحن نقف مندهشين كيف ان كل شيء بالغ التفاهة , ليس بذا قيمة لا يستحق ان نستنزف ذواتنا من اجله , وان معظم ما حاربنا من اجله دون جدوى , وما ان نخسر شيء سيأتي شيء اخر مثل اوراق الشجر عندما تحملها الريح فتنهض من جديد في فصل الربيع . نحن الاشجار المتجذرة بالأرض الدافئة , وان كل شيء حولنا اكثر شبها بالحلم .

انتصف النهار , لاحت شمس ذهبية ساطعة . الساعة تخطت الثانية عشر والنصف . القى ايار نظرة من النافذة واستنشق الهواء وهو مشبع بالرطوبة والانفاس والكأبة . ضاعت ساعاته لا يعلم اين . عظامه تقرقع , وراسه تصدع . افكاره تتخبط في فراغها المعتم . مزق كل الورق الذي امسكته يداه , خشونته بين انامله , تخدشه حتى النخاع . الاقلام تبدو جرداء حبرها شفاف لا يكاد يرتوي من كلمة . لكن ربما هو يبالغ , بحثا عن شيء مبهم يجول لاهثا في عقله . لم يعد يستطيع الانتظار اكثر انه محاصر بين جدران البناء . يتوق جسده للمسير تحت نور السماء , ان تلامس خيوط الشمس بشرته , ان تداعب ريح الخريف العابرة خصلات شعره , وان تستنشق حواسه عبير الاشجار ويتشبع بها انفه حتى يتخلص من كل رائحة سواها . اسرع مغادرا المبنى الصغير , مستشعرا خطواته

والجسد و تيار هادر يضم جسده مخترقا الاسمال . انه حي , كائن يبعث من جديد ود لو يضم نفسه بين ذراعيه متخلصا من كونه وحيد .

اترعت رياح الخريف جسمه وعقله , واحس بروحه وهي تنزلق . تراخى في مشيته وفي داخله استثارة خفية من هواء الخريف . كينونته تغلق امالا اهمدتها السنين المنصرمة , وكدستها خيبات متوالية حتى اقصيت الى الطرف البعيد .

وبينما كانت الريح تئز خفيفا والشمس يبهت نورها واشعتها الذهبية قد نثرت بذورها , بات كل شيء امامه مثل لوحة محاطة بخط ذهبي . الاشخاص بدو جامدين ,اشكالهم ممحية فقط تركيب غريب .

جلس فوق الرصيف مستسلما لبرودة الجسد وقد سرى خلاله تيار بارد اخترق اعضائه وجمد دماءه , وصلب عضلاته حتى بات دون ارادة . ناظرا حوله في الارجاء فكر لبرهة , ثم سرعان ما انتابه غثيان اثقل معدته .

الميوعة اللزجة احكمت المكان وبدا الكون اقرب للذوبان والتحول الى سائل فوار , سائل اسود يلف الارض بظلامه . تساءل لما يبدو له كل شيء خاوي , هو وذاته المحتضرة وأنينه المذبوح ... يا للعار , في اذنه صوت يصرخ , رجل كلله عار عظيم , لطخته زوجته , الزوجة التي حملت له ثلاث اطفال . تملكته رغبة التقيؤ , ان يخرج كل شيء من احشاءه , ان يتقيأ تلك الاعوام , ان يطمس الذكريات وحاملها حتى يعود خاليا كرضيع بين يد قابلة قبيحة تطالع وجهه و تقرا طالعه المشؤم , ان يلفظ تلك الفظاعات , لكنه نهض , نهض نافضا كل تراب الرصيف مبعدا عن ذهنه

تلك الافكار , نهض شاق طريقه نحو المستشفى بعد ان قرأ الرسالة التي بعثتها له نبراس , عليه ان يتماسك , ليس هذا بوقت مناسب للانكسار.

اوقف سيارة اجرة صفراء وتوجه صوب مقصده . ترجل عند البوابة , وعبر من باب صغير مخصص للمراجعين . سيارات الاسعاف البيضاء تصطف امام البوابة الداخلية . عبر خلالها بقدمين مرتجفان , لا فكرة لديه عما جرى . سيارة اسعاف تقف عند مدخل الطوارئ , اضوائها الحمراء تلاحقه كعيون الشر . تقدم نحو الداخل , طفايات الحريق الحمراء ترسم له صور رعب خالص . نمى رعبه وهو يسير بين الممرات , اضواء زرقاء , اضواء بيضاء , اقترب اكثر من ردهة النساء.

باتت الجدران تنحل , تنفصل لبنة , لبنة , تذوب وتصبح مادة جيلاتينية باردة , الطفايات الحمراء المعلقة تذوب وتتداخل , المادة الباردة تصعد الى جسده وتغزوه , ركبتاه تضعفان اكثر, توهن عظامه وهو يتقدم , يتنفس , يشهق , يفتح الباب وينزلق من يد الممرضة فيتحرك بصرير خفيف .

تحمله قدماه نحو الردهة , فيلاحظ بقع الدماء فوق الرخام الرمادي , قطن مبقع , سلال المهملات , حقن طبية وقناني الاوكسجين , واسرة بيضاء , معقمات , سعال خشن , وبينما يتقدم يقول حلم حلم ..ز يغمض عينيه ويتوسل الرب ان يكون حلم , سيفتح عينيه ليجدها نائمة قربه , سيستنشق عطر الانوثة الذي يفوح به جسدها اليافع , سيعترف بدورها الصغير , ام بدوره الضئيل في عالمها الواسع ؟ , لكنه يفتحهما ويجد نبراس في بكاء صامت وامه ممددة كما جثة , تغرورق عينا , لكنه يتماسك .

هل ستموت ؟

على الارجح لا , لكنها ستكون مقعدة عاجزة عن أي عمل ارادي , شيء يشبه جثة حية . لكنها ستتحدث .

مشلولة ؟

تتدخل السيدة لبيبة وقد ازاحت قناع الاوكسجين , وبدا انها تتنفس بصعوبة بالغة , فشلت في رفع رأسها واشارت نحو ايار لكي يقترب منها اكثر:

لا ترهق روحك , لا تثقل قلبك .

تنطق السيدة لبيبة ببطء وتتوقف في محاولة في استجماع قواها.

حقا ما تقولين ؟ وانت طريحة الفراش ؟

انها مشيئة الرب , ثم انه العمر , الموت يقترب احس بدنوه , اسمع وقع اقدامه .

ماذا عن الفضيحة , عن الكلام , عن كل الهراء الذي يدور .

صفيحتك خالية لا يعلوها غبار , اطفالك بخير , عمرك صغير يافع , امامك العمر بأكمله الفضيحة لعائلتها والعار يوصمها اينما كانت , ليغفر لها الرب .

سقط باكيا قرب قدميها الممددتان فوق السرير , فهي السيدة الستينية تعرف تماما جحيم الارض للنساء , ماذا عن هاربة لا اهل ولا احباب .

ايار يحس بالكرب , لكنها محقة انه شاب , يافع , العالم امامه . نقي مثل طفل , بديع الوجه مثل زهرة من ازهار الربيع , بشوش الروح , مشرق المحيا , له اصالة كونه رجل بأخلاق حميدة جديرة بالاحترام , انه ذو حظ سيء لا اكثر , سيقاوم رياح الخريف , ستحرص والدته على ذألك

ولو طرفت بعينها ستنبت قوته و سيعلم انه محبوب مبجل من السماء , اختاره الرب لاختبار , هكذا نشأت السيدة لبيبة ان تقاوم لا استسلام .

ايار يعكس سيره نحو المنزل تاركا والدته ونبراس في المستشفى , الاطفال باتوا تحت رعاية احد القريبات . سماء المغيب ملتهبة , بلهيب حارق . حمرة الشمس القرمزية قبيل ان تنطفئ وصفرة ريح مغبرة , وبدأ ان السماء تنفض عنها الاتربة وتوشح الاوراق بصفرة مفرطة . وزئرت الرياح زئير طويل مثل صرخة اسد محتضر . وتناثرت الاوراق والنفايات في قلب العاصفة . قرص الشمس الاصفر يذوب في الافق بليونة . ايار عاد نحو المنزل غير ناظرا نحو القناديل التي ارتفعت بعد انجلاء العاصفة . اتجه نحو المنزل الخالي , بيت متهاوي , اميال غير محسوبة تفصل سكانه عن بعضهم , والجدران القائمة ليست بجدران , بل هي عالم متعدد الأكوان فكل منهم كان يملك عالمه , شيء اكثر صلابة , واكثر موت من مجرد جماد , ففي جوفه تسكن الضفادع وهي تنق صارخة ليلا في الظلام كاشفتا عن بعد اخر يتضح من خلف الطلاء , صراخ خلفه صراخ .

توجه بجسده نحو الغرفة وبدا لنفسه انه يحاور الجدار والسرير والخزانة وكل قطعة اثاث كانت حاضرة خلال كل الاعوام .

(هناك دخلت الزوبعة , وتحولت الى ثور هائج ابحث عن نقطة حمراء اسدد غضبي فيها . تساءلت عندها عن السبب ؟ابحث بين خبايا الاعوام التي امضيناها معا , خمس اعوام وثلاث اطفال , قلت بحق الرب كيف ؟ وزوجة احسبها غريبة داخل شرنقتها البيضاء مترامية فوق غصن

ندي من شجرة سوداء , حاولت قطع خطوة لكنني ارتد الى الخلف , ارفع يدي املا في بلوغ الشرنقة اجدني اصبحت ابعد بخطوة الى الوراء , مغلف بعدة طبقات داخلها تقبع الحقيقة , كلما تتقشر واحدة الفى اخرى خلفها , وخلفها كلها تكمن الحقيقة . ابحث عن اثر , عن رسالة , عن تبرير , لست القي بالا لما قيل ولما سيقال , لكنني اود ان اضمد جراحي , ان الصقها كي احمل نفسي على الاستمرار , الان ادرك انها غلطة لا تغتفر ان تستمر بالتجاهل املا ان تستيقظ في صبيحة يوما ما وتجد ان كل شيء قد تغير . في الليل استبد الضعف بي , وانهزم كبريائي , متقهقرا ذرفت دموع حارقا لكوني رجل ابله غير قادرا على ابصار الخطأ , لكوني متحجر القلب اشحت بوجهي عن امرأة وثقت بي وحملت اولادي , لكوني ازدواجي في داخلي راي وافعالي راي اخر , متناسيا ان تحت ذألك الجسد روح تحتضر, والان هي تتخبط في الظلام في مدينة غريبة بين غرباء , منقسم بين شعوران الخيبة والخيبة , احدهما من نفسي والاخر من الحياة , وكلاهما يسحقني تحت ثقله وشعور اخر يمزقني , عصيا فعلا على الشرح , شعور جهنمي يلقمني في جوفه دفعة واحدة .)

سأمضي باحثا عنها مهما انتهى اليه الامر.

الفصل الخامس عشر

صباح جميل . غيوم متفرقة تنتشر في السماء . والشمس قد ارتفعت في يوم شتائي تهب فيه رياح تأتي من جهة الشمال .

الشوارع يابسة امتصت الارض رذاذ مطر البارحة . الغريب مستيقظ منذ الخامسة , عندما كانت السماء في تماوجها الطبيعي بين الابيض والاسود .

اعاد ترتيب افكاره مرارا , فأخرج صندوق خشبي صغير , وبادر بإخراج مسدس مع مخزون الرصاص , وسحب صورة مخبئة بين مجموعة من الاوراق , الاوراق الرسمية غير اصولية ليست بذا قيمة , لكنه اخذ وقته في تأمل الصورة , انها ملتقطة في بيت جداه في الريف , امه تجلس فوق الكرسي , وهو ذو العامان في حجرها . بهت خضار الاشجار العالية في الصورة , وتذكر جده وهو يتهادى بين الزرع حاملا عصاه .

سحب الصورة ووضعها في الحقيبة التي اعدها من البارحة , وحمل الصورة المعلقة فوق الجدار ووضعها ايضا . رتب كل شيء , الملابس التي يحتاجها , وحزمة الاوراق التعريفية المزورة القى بها في السلة وقام بإخراجها وحرقها . ليس عليه ان يقلق فعلا فهو مجهول بالنسبة لهم , لا يعرفون حتى اسمه الحقيقي .

في الخارج كانت الرياح تزداد في هبوبها واللون الابيض يبدا بالارتفاع التدريجي , فخرج قليلا وتوقف امام الباب مراقبا الزقاق الخالي والانوار المطفأة في الفندق . سيقوم بدوره على اتم وجه , سيخرجها من الحي ويبتعد . ستضيع في ضوضاء المدينة , بالفعل بدأ خروج الطلاب , وهدير المحركات في الشوارع , ودخان العوادم يرتفع , فهو يوم الاحد ذروة الاسبوع . نهاد مصابة بالحمى منذ يومان وقد احضر لها الغريب دواء يجعلها غير قادرة على النهوض طوال اليوم . والسيدة العجوز في اجازة , مرتحلة نحو مدينة اخرى . والعمة نافلة اكسل من ان تراقب البناية وتعتني بالمكان بل ستكتفي بالنوم , ولن تتذكر ان كانت قد اغلقت الابواب قبل ان تنام ام لا , لن يخطر لأحد ما سيحدث كما لا يعرف احد ان الغريب يملك نسخة من المفاتيح . كاظم لا شأن له بالأمر فمنزله بعيدا على اية حال , وهو حارس الليل ولا عمل له في النهار, المتهم الوحيد هو الغريب لكنه لن يعود , سيتبخر دون اثر , لن يصدق احد

وجوده انه شبح , ستتحمل العمة نافلة اللوم لإهمالها لكنها غير مبالية كما ان الباشا له شكوكه وله طرقه الخاصة التي يحصل فيها على مراده , ولأنه فطن فسيلتزم خطته المعهودة غير ابها بالغريب .

يتوجه نحو المطبخ ويحظر ابريق الشاي . ثم يقلي البيض , يخرج الخبز من الثلاجة , يتناول فطوره , يعود يجلس فوق الكرسي , يطالع ساعته الفضية , ويترقب الوقت في حالة انتظار , يستلم مكالمة ويتأهب للانطلاق .

عند السابعة ينهض , ويشعر بطفح دماءه , لكنه معتاد على تلك المشاعر. الريح الباردة تخبطه بين اضلاعه وهو يغادر المنزل ويودعه الى الابد . يضع حقيبته في السيارة , انه غير متعجل بل متزن , هادئ , يعاود التأكد من كل شيء, خزان الوقود ممتلئ , العجلات سليمة , حقيبته جاهزة , هاتفه وهاتف اخر صغير , انه حذر مع ذألك . يستنشق الهواء ويفحصه , ويميز الرطوبة ويعتقد انها ربما ستمطر . يسكن لعدة لحظات ثم يرن هاتفه , ينهي المكالمة ويتقدم نحو الفندق , يدير المفتاح ويدخل , فتنبعث من البناء رائحة ثقيلة , منفرة . يتقدم نحو الغرفة ويفتح بابها المغلق , ويتراجع , يطرق على الباب عدة طرقات ثم ينتظر الاجابة , يعاود طرق الباب طرق خفيف وينتظر مجددا تلقي الاجابة , يسمع صوت خفيف فيدرك انها قادمة , يخرج , يغادر الفندق ويجلس في السيارة ليعاود انتظاره .

الفصل السادس عشر

غفوت عند الفجر بعد ان غادر الوفود الغرباء . كنت قد قضيت ليلي مستيقظة في حالة تأهب تام . لان ما يجول في عقلي هو افكار سوداوية , فما يحدث في هذا الفندق هو ما يحدث في كثير من الاماكن الشبيه به غضا للنظر عن مسمياته . فالنساء تبيع سلعتها الوحيدة لتعتش من قوتها .

يحزنني هذا الامر, لكن على الارجح معظم تلك النساء هن هاربات مثلي لم يجدن مخرج اخر , لكنني لن اشترك في خضم هذا الفعل , فمن بين العديد من المساوئ التي دارت حولي في منزل ابواي او زوجي , الا ان احد لم ينجرف نحو الرذيلة , كما انني لم اتعلم قط ان استخدم جسدي على تلك الشاكلة الرهيبة , وان جل ما اعرفه ان اجسادنا مقدسة ولا ينبغي لنا ندنسها , ان نجعلها سلعة تباع وتشترى ساعات معدودة وتصبح كدمية للغرباء .

كل ما استنتجه ان ما يحدث هنا ليس شأني, لست بواعظة لأقدم النصائح . و رغم انني بت امكث منذ الخريف وها هو الشتاء قد حل , فلم اتعرف على احد سوى الشريرة المفلطحة التي تدير المنزل , والعجوز الكريهة التي تقدم الطعام , والسيدة الثالثة التي تبدو محترمة اذا ما قيست بالأخريات , ولا اعرف كيف لا زالت تعيش هنا ,.كما انني لا اجد نفسي اهلا لتقديم النصائح والخبرات فما انا سوى امرأة هاربة تبحث عن ملجا من الصخب الذي يدور حولها . كما انني لا املك الذكاء والفطنة الازمين لنصح احدهم .

ومهما يكن فان ليل البارحة كان شديد الصخب , واعرف من تلك الفوضى ان من يملك المكان ويحدد اقدار ساكنيه قد حل ضيفا منذ المساء , وقد غادر مع مرافقيه قبيل الفجر , ركبوا سيارتهم السوداء ورحلوا وهمد كل شيء بعد رحيلهم . آنذاك استطعت ان اغفو وانا جالسة , وكان النعاس قد اخذ مأخذه مني منذ ساعات , وشرعت اغفو قليلا واستيقظ على صوت الموسيقى الصاخبة التي تنطلق من الاعلى , او على اصوات الاقدام وهي تصعد وتنزل عبر درجات السلم , او اصوات اخرى من الغرف .

وما بين تلك الغفوات الكثيرة , كنت اسرح في احلام او اطغاث سخيفة , او ربما هي رسائل من بعد اخر تحملني على تقبل ما هو قادم , وان من بين الاسباب العديدة التي تجعلني في حالة من الشتات , هو الموعد الذي انتظره , الذي حدده الغريب فقد كنت اعد الليالي حتى الليلة الماضية , بانتظار هروب اخر .

ربما سأغادر هذه البؤرة وربما سيمضي اليوم كسابقه , انا رهينة الوقت . ربما سيفتح الباب ليكشف عن وجه السيدة ناهد , تحمل صينية تحوي كيس من الخبز الذي لايزال دافئ , والذي ابتاعته هي بنفسها من الفرن القريب , وابريق الشاي وبعض البيض المسلوق والجبن الطازج . احيانا تشاطرني الفطور فهي تنام طوال الليل غير سامعه للأصوات تقول انها معتادة .غير مسموح لها بقول الكثير وان كل تقوله هي احاديث عن الطقس , والاخبار واشياء عامة , وملاحظات غير مرتبطة ببعضها البعض , تبدو كشخص مشتت هي الاخرى . ربما ستغادر واتناول الفطور وحيدة , وحينها سأرتشف الشاي ببطء حتى يبرد , واعيد سكب اخر وانا افكر في الاطفال , وبالنظرة المرسومة فوق وجه السيدة لبيبة وهي في هذه المحنة .

لطالما ضايقني شعورها بالمعرفة المطلقة في كل الاشياء وجميعها على اختلافها , وادعائها بمعرفة باطن الشخص من خارجه . لم انجح قط في معرفة ما يدور داخل أي شخص حتى زوجي . انظر نحو وجهه وتلك النظرة التي تعلوه , اهي نظرة شرود فقط ؟ ام تفكير في اشياء اخرى ؟ مثلا المأزق الذي كنا فيه هل ادركه ؟ ام انه احساسي انا فقط ! , كما اني لو سألته لما اخذت أي نتيجة , كما سيعبر عن انزعاجه في تدخلي غير المريح في افكاره , بالطبع لن يسمح احد ان نلج افكاره , فما يدور في رأس المرء هو شيء يخصه وحده . وربما سيطرق الباب ويأتي الغريب وينفذ وعده , كل شيء جائز .

هل يمكن للحالم ان يستمر بالتفكير اثناء الحلم ؟ هل يمكن ان يصبح الحلم امتدادا مستمر لأفكارنا الحقيقية التي تشغلنا في اليقظة ؟ كنت افكر بالوقت طوال الايام المنصرمة . افكر انني في حالة انتظار كي يقتل الوقت نفسه وتتوقف سلسلة الازمان المستمرة . اكاد لا اطيق الانتظار كي اشاهده يتقطع أوصالا . حلقات الزمن تنفك وتتبعثر اجزاءه , فهو ليس سوى ماكنه , آلة عملاقة تم بنائها اولا , ثم بدأ بعدها عد الزمن . انه شيء استطيع تخيله بعد قراءة كل تلك الكتب الخيالية التي توالت على جلبها نبراس . استطيع بنائها داخل عقلي , تروسها الفضية تدور بسلاسة , وقودها هو مأساة البشر فهي تتغذى على حطامنا . تطحن الفصول وتحدد امتدادها . لو فنينا اجمع ستتوقف عن الحركة. فما جدوى الوقت دون البشر! نحن نحدد قيمته كل الحيوانات لا تعبا به وكذا الكواكب والافلاك , نحن فقط نعطيه قيمته , نجري ونجري ونعد الاعوام ونحتفل , نموت ونولد فنسجل التواريخ , تقوم الحروب وتذوى البلدان فنعود لتسجيل التواريخ , ونحدد كل ساعة بساعة , والثواني يا له من هراء .

استيقظ على طرق خفيف على الباب . اتريث قبل ان احدد الطارق , احاول التركيز بعد استيقاظي , يعاود احدهم طرق الباب . ثم اسمع وقع اقدام تبتعد عن الباب , اتوجه نحو النافذة , اصعد فوق الكرسي واشاهد ضوء الصباح يسقط فوق السيارة , والغريب يتقدم نحوها ثم يركب . انه بالفعل في انتظاري ...

قلبي يعود للارتجاف . ادخل نحو الحمام , ثم اغير ملابسي , و اضع حجابي , حقيبتي , أتأكد من كل شيء , ثم امسك مقبض الباب , مقبض معدني بارد , انه مفتوح , اعبر نحو الرواق , اخط خطوتان فوق السجادة , ادرك انني حافية , فأعود نحو الغرفة , اخرج جوارب من الحقيبة وارتديها , ثم ابحث عن الحذاء الرياضي , اجده تحت السرير, ارتديه واحكم رباطه .

اخرج رأسي لأتأكد ان لا احد في الممر وان صوت قرقعتي لم يوقظ احد. يعود بي الزمن وانا اراقب قدما ابي من فتحة الباب قبل ان اعود للعب , مسافة صغيرة بين الصالة والغرفة , مسافة صامتة ومظلمة .

اجمع شتاتي واحس بارتعاش جسدي , اتوجه ببطء نحو الباب . المح اضواء الشمس من تحته , خط رفيع بين العالم الخارجي والعالم الذي بداخلي .

اسمع اصوات ارتدادية بين الجدران , امسك الجدار , مزخرف متموج , امتص جسدي تموجاته . خرجت , الضوء الساطع , السيارة , يساورني الشك نحو كل شيء حتى الهواء , والرجل الذي يجلس مجددا خلف المقود , لم يزعج نفسه بالاستدارة نحوي بل اكتفى بجلسته . الشك يتصاعد وانا اجلس فوق المقعد , نحو اسمي وشكلي وطبيعتي , نحو كوني امرأة , ففي المقام الاول انا في هذا المأزق لهذا السبب تحديدا . يطلب مني الغريب ان اتمدد واضع فوقي الغطاء الذي اجده فوق الكرسي . احسست بأني جثة تسير محمولة في نعش . تقوضت حركتي , وتحجرت مثل كتلة صلبة , اصبحت جزء من الهيكل المعدني المتحرك , فشعرت بالعجلات وهي تدور وانا ادور معها , المحرك وهو يحرقني مع وقوده واخرج كدخان عبر العادم واتشتت عبر الهواء . احسست بالموت وهو يسير معي كظلال . اصوات شتى تصدح من الشوارع , اصوات بلا جسد , بلا مكان تنبعث من فلك كاذب عديم الوزن واللون , فقط اشياء متخلخلة , نظام يحتضر يمضي نحو الانحلال , أنداك خامرني شك اقوى , حول ماهية الحقيقة ؟

الفصل السابع عشر

تحركت السيارة . قطعا الزقاق الخالي ثم انعطفا نحو شارع جانبي . قطعا الشارع الجانبي ثم اخر طويل ثم الشارع الرئيسي للحي . دخلت السيارة في حدود الشارع الرئيسي , وسارت بسرعة متوسطة لا تتجاوز الاربعين كيلومتر في الساعة , وكان الازدحام في اوجه في وقت توافد الموظفين نحو العمل والتلاميذ نحو المدارس . واضطرا للتوقف مطولا خضوعا للازدحام .

وارتفعت صفارات شرطة المرور بزيهم الابيض وهم يحاولوا لاهثين تنظيم مسير السيارات حتى يتسنى للطلاب عبور الشارع , حتى اضطر احدهم على النزول الى منتصف الشارع والوقوف امام السيارات .
استغرقت السيارة ساعة كاملة كي تصبح على مسافة مناسبة من الحي , فعبرا جسرا قصير شديد الازدحام , والتقطا انفاسا مترعة بماء دجلة , واعتدلت بجلوسها بعد ان عبرا الحي وقطعا مسافة مناسبة واصبحا في جزء اخر من العاصمة .

ظهرت لها المنازل البعيدة وهي ترتمي بقرب ضفاف النهر , وبعض الزوارق الصغيرة التي تعبره , والبنايات الحكومية العالية الماثلة على مقربة منه . وبعد هينة من نزول الجسر توقفت السيارة . صفت مع حافة الرصيف في منطقة بكثافة عالية من المحال والبنايات السكنية والمدارس . وقبل ان تترجل من السيارة في وداع اخير, اخرج الغريب

هاتف صغير اسود اللون بأزرار صغيرة , واخبرها انه يحتوي على شريحة اتصال في حال اضطرها الامر في النهاية الى الاتصال في شخص ما , وابلغها انها تستطيع رفضه ان شاءت , لكنها قبلته خجلة مترددة . اخذته وقامت بوضعه في الجيب الداخلي للسترة الخفيفة التي ترتديها .

استدارت , صعدت الرصيف قرب ظل شجرة عالية كثيفة , وشاهدت السيارة وهي تتحرك ثم تبتعد تدريجيا حتى تزدوج مع مثيلاتها , قطع حديد لامع , حتى تضيع فلا يعد بمقدورها تميزها من بين السيارات .

ظل الالوبيزا العالية ينشئ حولها هالة من ضيء . وهواء بارد يرتد من بين الاغصان . تحمل حقيبتها وتشاهد صخب المدينة . ملايين من البشر هنا , من السهولة ان تضيع بينهم .

الشوارع كثيرة وواسعة , تساءل نفسها الان اين ستمضي بعد ان غادرت الفندق ؟ فات وقت التراجع , ان خيرا لن يثمر من عودتها صوب المنزل. اخويها يحملان ما يكفي من الحماقة والغضب كي يذبحانها دون ان يرتجف لهما جفن عين . ومع ذألك لو كان لديها من شك انها ستدفن قرب امها لعادت ادراجها , لكنها تملك اليقين الكامل على انهم سيدفنونها في بقعة بعيدة وسط الصحراء دون شاهد وسينالهم الرضا في غسل العار . كما انها لا تحمل في نفسها أي رغبة على العودة حتى لو علمت ان اياد سيقبلها وسيحمل مسؤولية حمايتها من وحشية اخويها . انه اضعف من ان يوفر حماية لاحد , ستمضي حيث تحملها قدماها .

سارت على الرصيف تنفست هواء الحرية , عبرت من بين الاشجار المنتفضة من برد الشتاء. تخطف النساء من قربها , سافرات الرأس , بثياب انيقة وحقائب فاخرة , اخريات يتسكعن بملابس رسمية , اخريات يتجهن صوب البنايات الحكومية . تأملت بإمعان الاشكال الانيقة وحسدتهن كلهن على امتلاك هذه الحياة.

كيف يمكن لشخص مثلها ان يملك ما يملكن ؟ وان تعيش مثلهن ؟ كيف كان يمكن لها ان تكسر قيودها ؟ فات اوان تلك الاسئلة بالنسبة لها , فلم تكن ثمة خيارات كثيرة مطروحة فقط ممر واحد عبرته مجبرة وهو الذي ادلى بها الى هذا المأل .

لازال يذكرها البرد وهو يلاحم ظهرها بلسع الحزام . استمرت تراقب المارة بعيون ساذجة , بالذات النساء , ايقظن في نفسها رغبة صغيرة نحو الحياة . سارت بينهن , شمت عطورهن واصبحت في تماس مع ثيابهن , اوشكت ان تتلبس احداهن , ان تتقمص شخصها , شكلها وتعيش مكانها , حتى تختفي جميلة وهويتها , وكل شيء يخصها ينتهي من الوجود كأنها لم تكن يوما في الحياة .

الان باتت تعرف كيف يعيش المرء بعيدا عن قيوده . لا عجب ان زوجها يتسكع في الخارج طويلا . تحسرت على ما يفوت المرء كونه امرأة في مدن مجنونة , الان انها تسير بين الازدحام بين المارة وتشعر انها واحد من بينهم , لها استقلالها الخاص لها كل الخيارات التي من الممكن ان تتاح لأنسان .

فكرت في التبضع من المحال لكنها لم تملك الشجاعة . سارت بروية في ضجيج الصباح .اضطرت في نهاية الامر للدخول نحو احد المحال الصغيرة وابتاعت بعض الحلويات وعبوة مياه وعبوة عصير برتقال . قامت بإعطاء المال للبائع وامتنعت عن اخذ الباقي , واسرعت للخروج من المتجر. راقبت بريق الزجاج اللامع للمحال التجارية , المطاعم المزدحمة

, العربات الواقفة من اجل تفريغ البضائع , المدارس مغلقة الابواب من خلف اسوارها تصدح الضوضاء, ضجيج السيارات , مشاجرات مجموعة من الشباب , البنايات في طور الانشاء , ومواد البناء التي ترفع عبر رافعات عملاقة .

الاصوات تطن وتطن دون انقطاع وهي ماضية في المسير دون وجهة , وفي نهاية الشارع الذي غرقت بين حشوده , كشف لها المتنزه الاخضر عن وجوده . حاملة حقيبتها وكيسها الصغير توجهت نحوه . لم يكن شديد الاكتظاظ . جلست فوق احد المصطبات الخشبية التي تواجه الشارع وتسقط فوقها الاشعة بسخاء . بعض العشاق منهمكون في قصصهم وقصائدهم . اخرجت الحلويات وتناولتها وشربت العصير واستمرت في الانهماك في التطلعات . لم تفكر في مصير الليل انه اكثر وحشة . ماذا عن العمة هل ستتركها لمصيرها ؟ الن تحقق انتقامها ؟ ولو انها سيدة شديدة الانشغال ولن تكترث بجميلة فهل سيقبل الباشا بالهزيمة ؟ ان تفلت طريدته ؟

غادرت المتنزه وتوقفت بمحاذات الشارع مع الاشخاص المتجمهرين , الذين كانوا في انتظار الباص . ركبت معهم ولم تكن تعرف اين يتوجه . جلست بجانب سيدة حامل , فدق في عقلها ناقوس الخطر . ماذا لو كانت تحمل انثى ! انها فكرة تولد القلق مجرد المرور فيها . بعد عدة دقائق ترجلت من الباص . كانت في مكان اخر مختلف , شارع قذر , دزينة من الدكاكين الضيقة على طول الشارع من كلا جانبيه , شلال من البشر المرهقون يسارعون الخطى , سيارات متوقفة بمحاذات الرصيف تاركة فسحة صغيرة لمسير السيارات والاشخاص .

يحتك نسيج اقمشة المشاة اثناء المرور مع المعدن . عيون الرجال باتت تطاردها , تكاد تلتهما كلقمة في جوف احدهم , عيونهم تثير الاشمئزاز , لكنها تسير خفيفة ومنفصلة في آن واحد , في مرحلة تطور سريع , عليها ان تستوعب كما هائل من المعلومات , وتحفظ صور, وتخلق استيعابا للزمن الذي اطردت على تجاهله , فقد حلت الظهيرة وهي لاتزال متسكعة , وقريبا سيحل المغيب فنهار الشتاء قصير.

لم تفلح في خلق فكرة بل استمرت فقط في الهيام . استطاعت ان تلتقط وجهها في مرآة احد المحال , رغم الجمال الواضح الا انها بدت اكبر من عمرها , تكبر اسرع , ماذا لو عاشت بضعة سنين اخرى مع زوجها , ستبدو على الارجح في الخمسين , مترهلة , اما لخمسة اطفال على الاقل , اكثر شبها بالسيدة لبيبة ولن تستطيع ان تتعرف على جميلة في أي مكان , حتى لو بحثت في كل جزء من الارض . ستتحول الى شخص اخر , يمارس عادات متوارثة نحو ابناءه , ويجبرهم على العيش كما يريد . ما جدوى التقاليد ان لم يكن من شأنها فائدة البشرية وانما ابقاء الفرد حبيسها ؟

انكمش وجهها وتجمدت ملامحها وهي تفكر في هذه الاشياء , ثم تذكرت ملاحظات امها , انه من الشؤم النظر في مرآة مكسورة , انه فال سيء . لكنها قصت خيوط المسرح , واصبحت طليقة .

في الظهيرة اصبح البرد اقل , واذا ما سارت بين الحشود, فأنها تستطيع ان تجلب لجسدها الدفء . كما انها بقيت مشغولة في قراءة لافتات ملونة معلقة فوق المحال , وطالعت وجوه عديدة , ولاحظة نشاطات مختلفة يقوم بها شتى الاشخاص . فقاعة من افكار وذكريات انفجرت في عقلها وهي تطالع كل تلك السيدات , ذكريات مختلفة ومتداخلة ,

تنظيف المطبخ , غسل الصحون , غسل الثياب , بكلتا يديها رغم وجود غسالة الثياب الكهربائية . تدعك الملابس ثم تجففها ثم تنشرها فوق حبل الغسيل , فوق السطح , ترتقي درجات السلم ثلاث مرات على الاقل كل يوم . كانت ستجني امراض المفاصل على اية حال وتصلب العظام . تلميع حذاء ايار ووضعها في رف الاحذية , سخرية نبراس , انه مشلول ما دام عاجزا عن مسح حذاءه , صور , صور , مسرح من الذكريات المتدفقة دون ترتيب او معنى .

متجاهلة الدخان الذي يرتفع في الهواء , المطاعم الصغيرة , الاشجار , المشردين وقد انتشروا في الطرقات , اطفال بثياب رثة ووجوه مليئة بالندوب , ونساء بعباءات سوداء ونقاب اسود , اخرون يبيعون الكلينكس , اخرون يحملون ماسحات زجاج صغيرة وزجاجة ماء قذر يرشونها فوق السيارات مقابل مبالغ زهيدة , دوريات الشرطة تنتشر في بعض الطرقات , رجال من اعمار مختلفة وبدلات عسكرية يحملون بنادق او يتثبطون مسدساتهم .

بعد ساعات يكون قد انهكها المسير وانتهت في حي اخر كبير , سوبرماركت كبير للبقالة والمواد الغذائية بعض المتاجر الصغيرة , وطابور من السيارات في كلا الاتجاهات . من السهولة ان نضيع في ضوضاء المدن ونرتدي اقنعة متشابهة , نتذوق شتى انواع الطعام دون طعم , حتى يبدو الطعام كله بنفس الطعم . متاجر كثيرة تعرض نفس الازياء اشياء رائجة الكل يرتديها , لا يهم اذا اعجبتنا ام لا فهي رائجة ولابد ان نرتديها .

هبط ظلام الليل , الزرقة الحالكة واول النجوم . طيات الليل الاولى تبزخ للعراء . حملت معها اصوات الاذان .

خف بعدها وقع المارة لكن ازداد ازدحام السيارات , عجلاتها الساخنة تزدري الاسفلت , حديدها يحتك . راقبتها عيون الرجال المتطفلة , يحدجونها بفضول . الرجال المخمورون يتسكعون بين الازقة , يترنحون ويسقطون فوق الرصيف وينشدون اغاني حزينة . ابواب المنازل مغلقة لن تستقبل غرباء الليل . النساء الهاربات تبلعها الشوارع , تلتهمها الذئاب البشرية . الرجال الجامحين يتطلعون نحو جسدها بنهم تئن بنفسها بعيد , تطلق ساقاها مع الريح , البرد يشتد صريره , انيابه تقطعها .

على بعد امتار في نهاية الشارع تقع القهوة القديمة , امامها كشك الشاي وكراسي خشبية وبعض الرجال . يرن هاتف احدهم , انه نعيم , رجل عظيم الجثة تتدلى بطنه السمين , وسروالة السميك بلون اخضر داكن وحذاء ضخم , بوت اسود جلدي , وسترة خفيفة تتدلى حتى ركبتاه . فوق راسه قبعه . انه يتوقف عن ارتشاف الشاي , يجري مكالمة قصيرة ويغلق الهاتف , يحك انفه ويعود للامبالاة . جميلة تكمل التوغل داخل الحي وتسير بين الازقة , بعد دقائق يظهر لها شبح اسود يلوح من نهاية الزقاق الذي تسير فيه , ثم يتبين لها الشكل الشبحي وهو يقترب , سيدة عجوز نحيلة , بثياب سوداء رثة , بدأت تقترب نحوها اكثر , قالت باسمة كاشفة عن طقم من اسنان صغيرة بيضاء :

تبحثين عن احد ؟

لم تجيب , لم تكتفي العجوز بالصمت :

ادلك على فندق !

توقفت مشيحه بصرها نحو الزقاق كمن يفكر عن شيء ما .ثم اكملت :

في الحقيقة ليس فندق فعلا مجرد بيت قديم . اننا نؤجر الغرف , الليلة بعشرة الاف . تستطيعين الحصول على تخفيض لو مددتي فترة

اقامتك الى اكثر من ثلاثة ايام . نقدم الطعام كذألك , لا ضوضاء , ها ! هيا , اتبعيني لو اعجبك الامر .

استدارت منطلقة وكأنها على يقين من ان الشابة ستتبعها . اخذت عدة لحظات كي تجمع افكارها ثم سارت خلف العجوز . انه حي ميت لا شيء فيه يدل على الحياة , بيوت قديمة و واسعة , ضوء ضئيل يحاول ان ينير الشوارع , جدران منخفضة , اشجار تعلو الجدران , لكن هناك اضواء خافتة تنبعث من نوافذ بعض المنازل , اذن هناك ناجون ...

اشخاص يسيرون بين الازقة , الريح تعصف لكن ثمة شيء حول المكان , كيان اكثر حدة من البشر , شيء اكثر ثباتيه من المساكن , خيالات مندسة , قطط صغيرة سوداء تجول في المكان , كلاب مشردة تحوم بين الازقة غير ناظرة للبشرة كأن وجودهم غير ملحوظ , شيء اقل شأنا منها , مستمرين بالاضمحلال , يصبحون شيء صغير , مايكروسكوبي بالغ الصغر , ذرات دون وزن , كتلتها المادية لا تنتمي للمكان .

وصلتا نهاية الحي , ثم انعطفتا نحو زقاق اخر يغوص في الظلام , وتوجهتا نحو المنتصف , البيت الثالث بالتحديد .

بيت واسع قديم , حديقة كبيرة , وباحة امامية تسع سيارتان , اشجار الحمضيات , ازهار متسلقة . فتحت العجوز البوابة التي لم تكن مغلقة بالأساس ثم دخلتا . مطبخ كبير في المقدمة كل شيء فيه قديم , الخزانة الخشبية , الطاولة , الكراسي , الستائر , كان لدى احدهم ذوق خاص في انتقاء كل قطعة , اربع غرف في الطابق الارضي , وحمامين , اربع غرف في الطابق الثاني وحمام وسطح كبير . الارملة العجوز مالكة المكان لا تعيش هنا بل في منزل اخر وحي اخر لدى احد ابنائها . السيدة العجوز هي التي تدير المكان منذ خمسة عشر عاما . تدل جميلة على الغرفة , سرير واحد من الخشب بلون ابيض , السجاد الكاشان بلون احمر قاني , الستائر من المخمل الثقيل , ونافذة تطل على الحديقة , وخزانة حديدية صغيرة , طاولة وكرسي من الخشب . كل شيء مرتب ونظيف , منشفة

مرتبة فوق الوسادة . تضع الحقيبة فوق السرير وتخرج ورقة مالية من فئة الخمسة والعشرون , تقدمها للعجوز , تحملها بين كفيها وتطالعها بنهم , تخرج محفظة صغيرة من القماش , تفتح سحابها الصغير وتحشر الورق المالية في جيب صغير وتخرج ورقة من فئة العشرة الاف وتقدمها نحوها , تمتنع جميلة عن اخذ الورقة لكن العجوز تصر, حسمت اجر الليلة وحساب العشاء , ثم خرجت .

تأملت جميلة في الغرفة وطالعت كل جزء فيها ثم اخرجت الهاتف بغاية معرفة الوقت , انها الثامنة وخمسة عشر دقيقة . خرجت بعد ذألك للحمام المنزو تحت السلم , وحين رجوعها الى الغرفة كانت العجوز قد احضرت صينية العشاء , كبة سراي بحجم كبير محشوة بلحم الغنم والبصل , مغموسة في حساء العدس الاصفر الساخن , سلطة الخس والطماطم , شرائح الليمون والخضروات والخبز , وترمس شاي حراري , وضعتها فوق الطاولة , جلست لتتناول عشاءها , وفي غضون ذألك انطفا التيار الكهربائي .

قالت العجوز بحنق : ليلعنهم الرب .

اضاء المصباح الكهربائي الشاحن بضوء واهن . اشعلت العجوز شمعة بيضاء طويلة فوق الصينية , اخرجت علبة السجائر وخطفت اناملها واحدة , وبينما اشعلت طرفها الابيض قالت :

لا تمانعين , اليس كذألك ؟

قالتها وهي تسحب اول نفس والطرف يتوهج بحمار , وهي تحدق بالسقف شاردة تفكر في شيء ستقوله لاحقا , وتنطق شيء لا تفكر فيه مطلقا كمن يتذكر قصة في خياله يحاول اجتذاب طرفها الرفيعة ثم يقوم بسحب الباقي.

لا امانع مطلقا , انا معتادة على الدخان ؟

تدخنين ؟

لا , امي اعتادت الدخان .

بينما كانت جميلة تتأنى في تناول الطعام , كانت العجوز قد مسكت طرف حكايتها .

قالت انها من احد الارياف , اصبحت زوجة ثالثة في عامها الخامسة عشر , لرجل ذو املاك , له ابناء اكبر من سنها , كانت نساءه تحرث الارض , ترعى المواشي , تقوم بأعمال المنزل . تزوجها بعد ان ارهق العمل زوجتاه الاثنتان من الاعمال والولادات المتكررة , ستة لكل منهما , وكان عمل الرجال الوحيد هو الانغماس في الملذات , ان يكونوا رجال فقط . حملت بعد ثمانية اشهر , وحدث ان حصدت نزيف شديد في شهرها التاسع حين اقتراب موعد الولادة , وامتنعت القابلة عن توليدها , ولذألك كان لزاما على الزوج التوجه نحو المدينة , آنذاك جلست في الشاحنة المفتوحة , شاحنة بيضاء يستخدمها الزوج لنقل المواشي لبيعها . رافقتها الزوجة الكبرى واعتنت بها , وكانت تلك المرة الاولى التي تغادر الريف , حتى انها نسيت الأمها في خضم الشوارع , وقررت انها في يوم ما ستعيش في المدينة بعيدا عن هواء الريف . ومع اشتداد النزف اثناء الرحلة فأن فور وصولهم الى المستشفى كان الجنين قد مات ,والدماء كانت اشد , وعليه فقد تم استئصال الرحم وانهاء رحلتها القصيرة . تحولت بعد ذألك الى آلة خدمة حقيقية , تقوم بشتى انواع الاعمال , مع تعمق الاحساس بكونها

قاصرة على ان تكون كباقي النساء , عجزها في الولادة خلق لها عجز اخر , اصبحت غير قادرة على رؤية نفسها كامرأة حقيقية مادامت غير قادرة على الانجاب . وبعد انقضاء عشرون عاما في الريف انتقلت نحو المدينة بعد وفاة الزوج , رافقها احد الابناء الكبار لزوجها كي تعيش مع قريبتهم الارملة التي اوكلت لها بإدارة البيت , وها هي ذا تديره منذ خمسة عشر عام .

بعد مضي ساعة كاملة كانت العجوز قد انهت سرد قصتها غير ابهة مطلقا حول قصة جميلة , لا يهمها الامر بتاتا , وهمت ان تغادر حاملة الصينية لكنها قبل ذألك اخبرتها ان في البيت نزلاء اخرون , كلهم رجال , يأتون من الجنوب من اجل العمل تاركين عائلاتهم كادحين من اجل لقمة العيش . عاملا تحميل , عامل مطعم , و سائق شاحنة , يشغلون الطابق الثاني , ومن الافضل لكلتيهما الا يعرفوا بوجودها, ان خيرا لن تجني اذا ما عرف رجال وحيدون بوجودها , بالطبع لازال الوقت مبكر على عودت معظمهم عدا واحد فهو على ابواب العودة حتما .

كان ينظر بنزق , فوق وجهه علامات الغضب , ينتمي لصنف الرجال الذين يرتبك الفرد في تحديد مزاجهم , انهم حانقون على الدوام ولا وقت مناسب لأجراء حديث ودي مع احدهم . يجر حذائه بتكاسل ويمط قدميه بتثاقل وهو يقطع الزقاق , ويدفع الباب المفتوح , ثم يدخل نحو البيت , ويدنو من المطبخ , يمد رأسه :

ألديك ما يؤكل ؟

كبة سراي .

جيد , سأغير ملابسي واستحم .

صعد درجات السلم , رمي المعطف فوق السرير , تمدد قليلا مغمض عينيه , ثم عدل جلسته , عد النقود , خبائها في حقيبته , وضع مقدار من المال جانبا و ثم دخل ليستحم . الان بات وجهه اكثر استرخاء , وجه منفوخ جاحظ العينين , جسد بدين , و راس اصلع . وضع المنشفة حول رقبته , نزل ليسد جوعه . جلس حول الطاولة , لاحظ كما يلاحظ كل يوم خشب الطاولة المتأكل , حوافها المتقشرة , و لونها الداكن .

وضعت امامه الصحون , كبة سراي في حساء العدس , بصل اخضر , خمسة ارغفة خبز , صحن للخضروات , خيار , طماطم , شرائح الليمون . التهم الطعام على عجل , ابتلعه دون مضغ , يريد ان يحشو معدته بأي مما يؤكل , لو انها قدمت له الخبز و الشاي , لأكل بذات الطريقة , لكن الليلة انعمت علية العجوز بوليمة , لكن لكل شيء ثمن , بالأخص للعجوز , انها تملك جوع للمال الذي تجمعه دون ان تنفقه .

بعد انتهائه السريع , اخرج مبلغ من المال , حساب الاسبوع بأكمله , عدته بدقة ووضعته في جيب الثوب الذي ترتديه , ثوب اسود طويل , جوارب سوداء سميكة , شال ابيض يلف شعرها بأحكام . اخرج نعيم

علبة سجائر فاخرة , قدمها اليه احد الزبائن , بعد تفريغ حمولته من الاسمنت , تشاركا السجائر الرفيعة كرفيقي حرب , اخيرا افضى بما في جعبته :

الباشا يبحث عن امرأة , في العشرينات , شوهدت اخر مرة تحوم حول المكان . وضع قيمة مالية لمن يدلي بمكانها .

قالت وهي تنفخ سحب الدخان متلذذة :

ليلعنه الرب , باشا على نفسه , زنديق ليحترق مع ماله الحرام .

نهض نحو النوم , وضع يده فوق الدرابزين الخشبي للسلم , لاحظ الحذاء الرياضي النسائي , توقف لبرهة ليفكر ثم اكمل ارتقاء الدرجات . جسده المنهك بالكاد يحمله , انه يفكر بالكثير , ابنه المريض بالفايروس الكبدي , ابنته في عام التخرج , ابنه الاصغر في الثالث الابتدائي , ابنة عمه التي تزوجها منذ اربعة وعشرون عام , لازال يحمله لها الشوق , لازالت تتأجج في قلبه النيران عندما تخطر بباله , انه بحاجة المال , الرب يعلم حاجته , لكنه لا يبالي بالمال الذي يعرضه الباشا , يخاف العقاب الالهي , بالفعل لديه العديد من الامتحانات الربانية التي يحاول خوضها , يفكر بالدراجة التي سيكون عليه ابتياعها اثناء طريق العودة لابنه الصغير, وعده بها منذ العام المنصرم , اضطجع في فراشه ونام مليء جفنيه .

الفصل الثامن عشر

رقدت مضطجعة على جنبها . عانقت الحقيبة كما تعانق الام رضيعها , تمسكت بها كأنها اخر ما فضي لها من الحياة . اخذت قسط من نوم عميق وحلمت بعدد هائل من الاحلام , استيقظت دون ان تذكر منها شيء . حاولت عصر ذهنها من اجل اخراج شيء من بقايا الاحلام , لكن دون جدوى .

كانت الغرفة تغط في الظلام. التيار الكهربائي لايزال مقطوع , المنزل برمته يسبح في بركة من ظلام دائم . استسلمت لأفكار منسية كان عليها تركها دون ندس , لكنها عبثت في تلك الذكريات . تذكرت خصلات الشعر , تساءلت هل يا ترى عثر عليها احدهم , و همست يا للحماقة لما يبحث احدهم في سلة النفايات , ما الذي سيهمه في سلة قمامة , لكن مؤكد انهم

بحثوا في الخزانة عن المفقودات , مبلغ من المال , وبعض الصيغة الذهبية , حلقان ابتاعتهما لها لواحظ عند زواجها , قلادة وسوار ورثتهما بعد موتها , لا شيء اكثر, لم تمس الصيغة التي ابتاعها لها ايار, تركت كل شيء له .

نهضت معتدلة في جلوسها فوق السرير, وضعت الوشاح فوق كتفيها , رتبت شعرها فأعادت اسدال الخصلات الى الخلف . وضعت قدميها فوق الارض وسارت ببطء مسترشدة بضوء خافت يفلت من خلف الستارة .

اسدلت الستار , وفتحت النافذة . ضوء القمر ينهمل كضوء قنديل ابيض يلقي برونقه فوق الحي . الريح تعصف ,و الهواء البارد يقرص الجلد .

القت بنظرها صوب السماء . اتكأت على اطار النافذة , مدت جذعها نحو الامام في تأمل كامل نحو الحياة . اسرت الى نفسها ببعض الكلمات , أي امل يرتجى من الحياة ! انها فقط الصدف والعادات , البشر وكل نظرياتهم مجرد خطوط وهمية وكلمات , ما ان تخضع للواقع تعجز عن الصمود ولو لدقيقة .

تصغيرها للذات اصبح اكبر , انها تزدري نفسها , ولادتها , جوهرها بذاته . نفور كريه تجاه منطق الاشياء . اصبح لديها رؤية اوضح , لم تهرب طلبا لأي شيء , ليس ثمة حرية في أي مكان , فقط تخبطات هنا وهناك في كل البلاد , كانت تندرج تحت مسميات مختلفة واخيرا تم كدسها وتوحيدها تحت مسمى واحد , الحرية . هي في رحلة لاكتشاف الذات املا في الولوج اخيرا نحو خندق الحقيقة , لعلها الان استخلصت حقيقة صارخة , ان العالم ليس بعادل , القدر يتعامل مع الافراد من منطلق الا منطقية , احدهم يولد محظوظ , اسمه , شكله , قبوله , عائلته , وكل شيء اخر . شخص اخر يبقى غارقا في مستنقعات التعاسة مهما بذل من جهد من اجل الارتقاء بحياته سيكون مصيره الفشل , لان قدره قد وسمه بذألك.

اشخاص كثر يقضون حياتهم راكضين نحو السراب طمعا في الحصول على شيء لا يعرفونه , لكنهم سيميزونه حالما يجدونه . انها تفكر بطريقة تجريدية عميقة حتى سيطر على وجهها الانثوي نظرة صادمة , وهي تحدق متأثرة صوب سماء العدم , النظرة التي ترتسم على وجوه الفلاسفة وقد كشف لهم وجه الحياة , نظرة اشمئزاز مطلقة ورغبة عارمة على التقيؤ , بعد ان تجلى امامهم قبح الواقع , وان الحقائق مجرد اراء ووجهات نظر تتغير من وقت لأخر, وتخضع للرفض والقبول اعتمادا على العصر التي يحتويها . كما ان الشيء الوحيد الذي يتسم بالثبات هو حقارة البشر, انها حقيقة خالصة لا يتجادل فيها اثنان , شيء مشترك في جميع الاديان والثقافات .

تتجمع على طرف شفاهها اطياف من كلمات لا تنطق , بل تأخذ شكل نوتات عائمة تصدح من اوتار الة موسيقية . تستطيع بعينيها الثاقبتين ان ترى الرسوم وهي تحلق امامها وترتفع , حتى تتداخل مع كثافة السماء الاخيرة .

كثيرا من الكلمات تلاشت على هذا المنوال , نوشك ان نتفوه بها لكن بدل ذألك نختنق وتفلت من طرف شفاهنا مفردات غير منطوقة . فكرت كم من الجيد لها ان تأخذ وقت للتفكير مع نفسها بين حين وآخر, استنتجت ان الانسان لو امتلك ذهن صاف لأتيح له التأني في القرارات التي غالبا ما يتخذها على عجالة . ومن الجيد ان يتاح لنا وقت كاف للتفكير بموضوعية بالمشكلات التي تواجهنا دون ان نرتبك فتصبح اكثر تعقيد .

كم كانت تتوتر من اجل اشياء شديدة التفاهة خذ مثلا , حساء العدس الذي تعده للسيدة لبيبة , كم ارهقها الاخفاق المتكرر في جعله كما ترغب , كثيف , خفيف , ناعم , مالح , اشياء بالغة التفاهة من شأنها ان ترسلها في كأبة , فغالبا ان الحساء لن ينال رضا الحماة وعليه سيكون عليها الانصات الى محاضرة , عن كيف يجب ان تكون الزوجة متفانية تجاه كل شيء . كم تمنت آنذاك ان تكون قادرة على تقديم الرد الذي يدور في خلدها , لكن لن تجني سوى المزيد من التعقيدات ازاء تقديم الرد المناسب , عبثا تفكر في تلك الاشياء .

نضج شعورها بالشفقة تجاه نفسها مجددا فقد سبق وان تطور لديها هذا الاحساس , وافضت الى حقيقة اخرى مفادها انها ضحية براثن هذا العالم الشرير , لكن بحق الرب أي سقيم قد وضع تلك النظريات المريضة

للمرأة , وجعلها كقوانين , واوجب التمسك بها , صبر الزوجات على شرور ازواجهن هو جهاد سيكافئن ازاءه , هراء لن يجنين سوى امراض الضغط والسكر, و تلف الاعصاب واخيرا الى سكتة قلبية مفاجئة . سيتزوج بعدها الارمل وسيلقي بشروره نحو امرأة اخرى , وسيكون امامها خياران , اما ترويضه كما تروض الحيوانات او ان تكون ضحية , وبالطبع فان الخيار الثالث ليس بشيء شائع , ان يتفاهم الازواج ويعيشون حياة مشتركة يسود فيها الحب والاطمئنان ويتعاملان كشريكن في المؤسسة الزوجية , لان المجتمع برمته قد طور نظريته القائلة ان المؤسسة الزوجية تقع بأكملها على عاتق الزوجات , وان الرجل ليس سوى مساهم صغير, وان نصيبه الاكبر هو ان يحظى بالراحة . يا للعجب ! اين تعلمت التفكير في هذه الاستقلالية , كان يجب ان يتم تثقيفها وتعريفها بحقوقها كبشر , ان احد لن يزعج نفسه بالخروج عن القطيع , ولذا يتحتم عليها ان تسير كشاة تذبح , ان تخوض عدد غير منتهي من الامتحانات كي تكون جديرة بالفردوس الاعلى .

كانت تنظر بشكل حالم , تبدو اقرب الى طيف زائل , او كنسيم هواء ناعم , لم تكن ترغب بشيء سوى بفسحة , عطلة , ان تكف لبعض الوقت عن كونها هي , ان تتجرد من جنسها الذي اعياها بثقله وتتصرف كإنسان لا كآلة , لكن حيث ولدت احكمت قيودها واستمرت قضبان سجنها بالتضخم حتى اصبحت بلا نهاية , وارعبها فكرة ان وضعها حيث هو دائم , ستستمر في كفاحها حتى اخر نفس تلفظه .

كان لحفيف اشجار الحديقة وحركة الريح التي داعبت اغصانها على مرأى من القمر , الاثر العظيم في النفس , فلو كان لها ان تختار موتها , لاختارت ان تكون تلك الصورة للطبيعة وعبيرها متحدة مع ألق السماء , هي اخر شيء يحفظه ذهنها قبل ان يمحى وجوده . باتت التجارب تثريها وتجعلها اكثر تقبلا للواقع واكثر معرفها بنفسها .

ثبتت نظرها نحو النجوم , قبضت على جزء ثابت . قالت ان في السماء ركن مهجور , خيل لها انها توشك ان ترقى نحوها , في سلم وهمي ممدود من طرف عينها حتى طرف السماء . خيل لها ان كل ما رأت من الدنيا مجرد لحظة اذا ما قيست بهذا الجمال , تناسق النجوم , الافق اللامع , حزن القمر , هالته البيضاء , تباعد الاكوان , سحر المجرة , بريق نجم الشمال , الاسود المنثور بين خلايا النور , وكل شيء اخر ماثل امامها في هذه اللوحة . تساءلت ماذا لو سمح للعاصين اذا ان يقدموا تفسيرات لأفعالهم التي تبدو للأخرين غير مقبولة ! ماذا لو غفر للخاطئين هفواتهم ! تستطيع ان تتخيل نفسها في تلك اللحظة محاطة بالأطفال , انها تجيد العناية بهم , تجعلهم يلمسون عطفها , تستطيع معانقة احدهم حتى الصباح , تستطيع فعل العديد من الاشياء لهم التي لا يجيد القيام بها احد غيرها ففي النهاية هي امهم .

في الساعة الرابعة والنصف صباحا كانت لا تزال تقف على وضعها .

في بداية الشارع الذي ينعطف نحو الشارع العام , الشارع الذي يسير بمحاذاة النهر , تقدمت عجلة سوداء عالية , ثم اكملت انعطافها نحو الزقاق وصولا نحو المنتصف . توقفت وهدأ ضجيج محركها . ترجل منها ثلاث رجال ضخام البنية , يتثبطون مسدساتهم , كانت تند عنهم همسات خفيفة في محاولة لتحديد البيت المنشود , انتهوا الى اتباع احدهم , نحيل الجسم طويل القامة , تقدم باتجاه البيت والقى نظرة في الهاتف ثم عاود النظر نحو البيت :

انه هو بلا شك , هيا فلننجز .

تقدموا بخطوات كبيرة لكن صامتة . رجال اشداء متمرسون في عملهم , قاموا بفعل ما يوشكون على فعله مرارا , سيأخذون لحظات في اخضاعها . المنزل الابيض الذي استحال لونه الى الاصفر وتقشرت طبقات من طلائه , وظهر الطوب الاصفر في اماكن عدة ظاهرة للعيان , وظهرت شروخ طولية في الطابق الاعلى والسياج , انه البيت المنشود بلا شك فلديهم صورة للباب والتفاصيل اجمع , العجوز النائمة , نعيم السائق , العمال الذين عادو في الساعة التاسعة والنصف مساء وسرعان ما ذهبوا للنوم .

تهتز الاغصان الخضراء للأشجار وتتراقص في حركة متماثلة , والازهار تتسلق الجدار وتنحدر نحو الخارج .

اقتادوها قبل ان يبزغ الفجر , يندفعون بهدوء بين ظلام المنزل , اضواء القمر الخافتة تتسلل تلقي بظلالها . الخواء يبتلع الاشياء ويحلها . اغصان الشجر باتت مولولة لمصيرها الميمم صوب الفناء . اقتادوها حينما كانت الارض مفروشة فضة بيضاء منهاله من قناديل السماء , فأنسل الضوء الواهن عبر اهدابها السوداء وبدا ان الخوف يتطلع متأرجحا عبر الجفون , والتقط عقلها مرتابا رغوة عالقة بين دقائق الهواء لأصوات غريبة ومألوفة , بكاء اطفال , مواء قطة , نباح كلب , صرير اسنان تصطك , اصوات المأذنة ترتفع بالأذان , انصتت لوقع الخطى وهي تتقدم باتجاه الغرفة , بعد دقائق كانت تسير رغم عنها منقادة من كلا ساعديها الفارغتين وقد طوقتها اذرع الرجال .

حمل الرجل النحيل الحقيبة وتقدمهم في المسير, بعد ان وصلوا نحو السيارة القى بالحقيبة ثم اجلسوها في الكرسي الوسطي . كان السائق يجلس في حالة تأهب , ركب الرجال الثلاثة صامتين . سارت العجلة مندفعة قاطعتا الصمت الغريب الذي خيم على الحي .

كان عليها آنذاك ان توسع مداركها نحو الموت , ان تمعن النظر في حقيقته , لكنها قاصرة عن ادراكه , يذكرها بأيوب المسجى والقبر والرمال

والاشباح , ويبعث فيها الهواجس التي ترتفع مع حدود الليل وتتجانس معه ,و يرتفع معه كل شيء, الجسد والروح والاحلام تغدو شيء مجرد . تندمج روحها مع السدم خالقتا نجوم جديدة , النواة التي تضيء , ستصب احلامها في ذهن اخر ستسكن اشباحها جسد اخر , تفكر كيف مات ايوب ؟ هل مات حقا ام هرب ليعيش فصلا جديد ؟ هل شعر بروحه وهي تسلب ؟ كيف ماتت لواحظ ؟ كم ودت ان تسرق سكينتها التي البسها اياها الموت , لكنها تتقهقر فلا يوجد سكينة في هكذا موت , عشرون عاما من الاحتضار كانت جديرة ان يلبسها الموت ابهى حلله . يا له من وقت مناسب لاستحضار ذكرياتها وهي مرتحلة نحو المجهول , لكنها تعود مجددا لتجس الموت , انه اعقد من ان يدركه عقل البشر , لكننا نأخذه على كل حال , نتقبله بحربته السوداء وثوبه الاسود وشيء من دجى الليل قد توشح به رداء وشيء من الحياة يضمها الموت بين مفاهيمه .

الجزء التاسع عشر

في يوم الاحد .

توقفت عجلة حكومية سوداء امام بناء قديم منزو بعيدا عن المنازل . يبدو كبيت كبير بغرف عديدة من ثلاث طوابق , ترجل النقيب بملابس مدنية , ما ان دلف نحو المنزل حتى نهض العسكري الجالس فوق كرسي

خشبي في الباحة , وقدم تحيته , لكن النقيب مشدود الاعصاب محمر الوجه , يتابع المسير نحو الداخل .

سيدي .

ينهض الضابط الاقل رتبة ويقدم تحيته , يطلب النقيب ان يعود الى عمله , ويسحب كرسيه نحو الطاولة الطولية من الخشب الزان , فوقها تضيء ثلاث شاشات كبيرة , كاميرات مراقبة , وحاسوب يظهر خريطة .

ما الاخبار هل نراقب العصفور ؟

كل شيء على ما يرام , العصفور مراقب , نتبعه في كل خطوة , توزع الرجال في معظم الاحياء .

جيد , ماذا عن آرام ؟

انه يتبع العصفور في كل خطوة , كظله .

يتساءل النقيب وقد لاح على وجهه الكرب , وقد وضع يديه خلف راسه ومال الى الوراء محدقا بأضواء السقف :

لدينا اخفاقان لا نريد ان نسجل الثالث .

معك كل الحق .

امام الباب الرئيسي تتوقف عجلة اخرى حكومية , ويترجل منها العميد يتبعه مرافقيه . يسمع النقيب وقع اقدام تقترب ويشاهد القادم عبر الكامرة . ينهض النقيب والضابط الاصغر يقدمان التحية . العميد حسان , له وجه وسيم لا يمت بصلة تذكر الى عمره الذي تجاوز منتصف الخمسينيات بل تعطيه هيئة شاب في الثلاثين في اوج تألقه الشبابي , وجسد رياضي اعتاد على تدريبه حتى ظهرت البدلة العسكرية شديدة البهاء وهو يرتديها , خلفه مرافقيه بملابس مدنية .

يقول العميد بنبرة واضحة :

اين وصلنا !

يتراجع الى الكرسي الجلدي الوثير , واضعا ساق فوق اخرى متطلعا نحو النقيب منتظرا ان يلقي ما في جعبته طالبا منه ان يجلس قبالته حتى يتيح له النقاش بشكل اكثر تعمقا .

يقول النقيب بعد ان جلس قبالته فوق كرسي جلدي اخر :

سيدي , العصفور قد حلق , آرام يتبعه كظل ملاصق , نضع عليه الكثير من الآمال , لم تستخدم الهاتف للاتصال بأي احد , لكننا نرصد تحركاتها على اية حال عن طريق شريحة الجي بي اس , لكن يبقى العمل الاصعب كما تعلم .

ينهض العميد ويتقدم باتجاه الشاشات ثم يستدير ناظرا نحو الارض واضعا كلتا يديه خلفه يفكر بصياغة الكلمات :

لو لم يقم احد بأجراء المكالمة سيكون علينا آنذاك ان نجريها بأنفسنا , لن اجازف بضياع الفرصة , لكنني على اية حال احمل أمالا كذألك , فقد وضع الباشا مبلغ معقول ازاء أي معلومة حولها .

خطى العميد بضع خطوات في الحيز الضيق للغرفة ذهابا وايابا وهو لايزال في استغراق كامل بالأفكار, ثم اردف قائلا بعد ان صوب نظرته نحو عيني النقيب :

بحلول منتصف الليل , اذا لم يدلي احد بمعلومة سيكون على احد رجالك اجرائها , وتذكر ان معرفة مخبرك بها يجب ان تبقى في اطارها الموضوعي , انت ضابط مكلف بمهمة عليك قضائها مستغلا أي وسيلة تجدها , وان ما نحن بصدده اكثر اهمية من شخص واحد بل منظومة كاملة نعمل على تفكيكها منذ خمس سنوات وفي كل مرة مردنا الفشل , اخفاق ذريع .

سيدي , انا مدرك لهذا الامر لكني اتمسك بالحد الانساني فما دمنا سنستخدمها كطعم سيكون لزاما علينا تقديم الحماية . لو بقيت على قيد الحياة يتوجب اخراجها من البلاد .

يقترب العميد اكثر , يتابع التحديق نحو عيني النقيب السوداوين يضع يده فوق كتفه :

علينا ان نطيح بالباشا مهما كان الثمن , واذا لم نوقع به فعلى الاقل نحرر اكبر قدر من المخطوفين بطرق شتى , خمسة عشر طفلا تتراوح اعمارهم بين الرابعة والعاشرة , وعشرون فتاة شابة خلال فترة اقل من شهران , فلو حررنا المخطوفين ووصلنا الى مكانه سيعرف انه مراقب وسيخفف من وتيرة عمله .

يستدير العميد مودعا :

ابقني على اطلاع , ابعث لي بكل التطورات خلال اللحظة .

يغادر العميد . النقيب يعود للجلوس امام الشاشة , عينيه المسجورتين يسكنهما غضب متأجج , لم يعد بوسعه المكوث اكثر بين الجدران , تناول سترته الرصاصية وغادر الغرفة , استخدم هاتفه لأجراء مكالمة , ثم غادر المنزل يرافقه اثنان من الرجال بملابس مدنية .

في حلول منتصف الليل كانت السيارة الحمراء المرسيدس تقف على مقربة من الزقاق وكان النقيب قد اخذه التعب البدني والذهني . كان يجلس قرب السائق , خلفه ضابطان اقل رتبة , كان احد الضباط يحمل جهاز الحاسوب الاسود فوق حجره , تسطع شاشته بخريطة وسط الخريطة تومض نقطة حمراء , قال الضابط الاقل سنا :

لما عصفور ؟

اجابه رفيقه :

انت تعرف العصافير رقيقه ما ان تمسك بأحدها براحتك وتضم فوقه اصابعك فانه سرعان ما يهلك .

نعم انت محق انها عصفور, ماذا عن الوقت , تبقى دقيقتان فقط سيكون علينا التصرف .

النقيب يصيبه الكرب اكثر متلفتا يمين ويسار , يتنهد , يطلب الهاتف الاسود برقم غير مسجل باسم أي شخص . يقدمه له الضابط الشاب , بعد قليل يتقدم من الزقاق الآخر شكل اسود , يتقدم اكثر ويصبح على تماس مع السيارة , يميل راسه نحو النافذة يحي النقيب :

سيدي انها ماكثة في الفندق كما ان احد لم يتصل بعد . ابلغنا نعيم لكنه بدا غير مهتم البتة , واخبرنا العجوز, رفضت الموضوع برمته ولم نأخذ منها سوى السباب والشتائم . يتناول النقيب الهاتف ويضعه بين يد آرام :

هيا , اجري الاتصال .

يبتعد آرام عن السيارة يتحرك تحت السماء . انه فطن سريع الحركة . يعود بعد دقائق يعيد الهاتف للنقيب , ثم ينصرف . تتحرك السيارة لتبتعد اكثر, وتتوقف في نقطة تتيح لهم معرفة كل من يوشك ان يدخل الى الشارع , آرام يتوجه نحو سيارته التي تقف في طرف الشارع الاخر.

عند الرابعة والنصف صباحا .

سارت العجلة ببطء وبخط مستقيم ثم انعطفت نحو الزقاق , توقفت في المنتصف . اعتدل النقيب في جلوسه , ازداد ارتفاع ضغطه وتصاعد توتره , ازداد في جوفه اضطراب النيران فأما ان تهلك الان وكل شيء يتبدد سدى , واما تذهب نحو حفرة الجحيم , كلاهما يضعانها في مواجهة مع الموت الذي يضرب بسياطه ابتداء من اللحظة .

نهض واضعا يده فوق سلاحه , واقترب من الزقاق وانتظر مراقبا من بعيد . نزول الرجال وحيرتهم الاولى ثم تقدم اولهم نحو المنزل المنشود ولحظة تأملهم الاولى للتأكد من انه هو , ثم اكتساحهم الباب بثبات وكأنهم ايضا من قاطني هذا المكان . ارتفع لهث انفاسه خلال الدقائق المعدودة التي استغرقها الرجال داخل المنزل , ثم خروج اولهم يتبعه الرجلان وهم يقتادونها من كلتا يديها . آنذاك اسرع بالعودة نحو السيارة وشاهد السيارة وهي تقطع الزقاق مغادرة , وتم التأكد من الحقيبة التي حملها الرجل الاول ووضعها في السيارة , وليس بإمكانهم اتباعها بعد الان لأن المسألة اصبحت , اكثر من مراقبة العصفور, لأن العصفور بات في القفص , وان سجانيه سيتخلصون منه فور أن يدخلهم الشك انهم مراقبون . بعد دقائق ارتفع هدير السيارة وضغطت دواسة الوقود وغادرت السيارتان الحي برمته نحو النقطة الحمراء الوامضة , لكن دون اثارة الشكوك والبقاء على مسافة كبيرة بعيدا عن العصفور.

الفصل العشرون

استيقظت بجمجمة ثقيلة وجسد مخدر داخل حيز لا شكل له , مثل اخدود عميق مظلم في جذع شجرة .كان هناك امتداد كثيف للظلام . قدماي حافيتان فوق الارض . منخراي يتشبعان برائحة الرطوبة المتلبسة مع التراب , الرائحة التي تنبعث من الارض بعد رشق السماء . تهت في دوامة السواد . خلتني ميتة لوهلة , صارعت من اجل تحريك جسدي ثم الجلوس ,و وضعت يدي فوق صدري وشعرت بالنبض ,

ينتفض ويوشك على الانفجار , تيقنت انني لا ازال حية اتنفس , ربما اخر الانفاس .

نهضت مرتعشة اتلمس الجدار , جدار اسمنتي . اسمع وقع خطوات فوق السقف , درت , تخبطت في المكان وانا اتلمس كالعمياء , ماذا لو كنت انا عمياء ؟ ماذا لو عجزت مقلتاي عن التقاط الضوء؟ استمررت في تلمس الجدار الى ان وصلت نحو مادة باردة صلبة , معدن ثقيل , سبيكة غير قابلة للتزحزح دون حتى ثقب صغير, مصبوب كجبل جلدي ماثل منذ الازل , أنه الباب . اعاود الجلوس , معدتي تعتصر من الجوع , اشرع في اغلاق جفناي وفتحهما فلا اجد سوى ظلام , يا له من ذعر اذا ما فقد المبصرون قدرتهم على رؤية الاشياء . اتمدد , اكاد اغفو اقترب من حافة النوم , جسدي يتوق لذألك ممقتا كل الظلام الذي يطوف حوله .

افكر انني ظل واحد ممتد . انا كلي ظلي . انا ظل من عدة طبقات , عظامي ولحمي واعضائي ظل , لا شيء مني حقيقة . اغفو اسمع صرير الباب , لابد انه حلم , جسدي ميت عاجز عن الاتيان بأي حركة .

استيقظ من السبات . اجدني في غرفة اخرى , لست وحدي لكن هناك الكثير , اطفال صغار من اعمار مختلفة , ربما عشرون طفلا او اكثر بقليل , شابات يافعات من عمري واصغر واكبر بقليل . خمسة عشر واحدة , عددتهن . ترتسم فوق وجوههم علامات العجز الكامل . يداي توشكان على التجمد من البرد , قدماي العاريتان فوق الاسمنت البارد اصبحتا حجارة منفصلتان عن جسدي , دمائي كأنها تخثرت , كتلة من سائل جامد لزج يسير متعثر بين الاروقة الضيقة , الاروقة التي تكونت فوق اغلفتها الرقيقة طبقة خفيفة من جليد غير مرئي لكنني اشعره , الصقيع وهو يتكسر كقطع الزجاج في .

ما معني من الفناء هو الاصرار اللعين للعضلة الملساء التي استمرت بضخ الدماء , تضخ وتضخ دون توقف وتقاوم دون اسباب.

نتطلع كلنا اجمع بذهول صامت نحو المصباح الصغير وقد تكونت فوقه طبقة سوداء من فضلات الحشرات . يلتمع ضوئه بوهن , يصب نوره كماء شلال . عيناي لم يعتادا على نوره الا بعد عدة لحظات .

افكر مجددا بالجنين ورهبته بعدما يخرج من الظلمة الدافئة الى نور الحياة . نشاهد نوره وهو يضعف الظلام . قربن اجسادهن مني , انضممت للحم البشري المتكدس في المجهول , في الصندوق الذي فصل لاستيعابنا . تسريل ألي الدفء العجيب . نظرت مثل نظرتهم محدقة صوب السقف .

الكونكريت الجامد يطعن قلبي بقتامته الصلدة , كيف له ان يكون بهذا الصمت ! كيف تسنده الجدران ! لما لا يهتز في حركة توافقية مع الاجساد المرتعشة , من العار ان تبقى الارض صلدة متماسكة وهي تحمل فوقها هذا العبء. حملان خائفة تنتظر حربة الصياد وهو يجرها داخل اروقة هذا النفق. اقول نفق وكلي يقين من ذألك , من الفتحة الصغيرة التي تلوح قرب السقف ويندفع منها تيار هوائي بارد , ويدخل منها ضوء ضعيف من ضوء النهار , ضوء نمسكه كلا بعقله , ونتخيله شمس على صغره .

اسمع وقع الخطى فوقنا , نساء واطفال محشورون في حفرة في باطن الارض , وجبات صغيرة توزع لنا لكي نبقى احياء , وحمام ضيق في الزاوية ,

والاطفال مثل الدمى لا يشبهون الاطفال , لا تصدر منهم أي حركات . والضوء الاوحد المتدلي من منتصف السقف نراقبه كقمر وسط بقعة سوداء صامتة , نسرق منه نور خافت قادر على ان ينير لنا الاحلام , ضوء ابيض ساقط فوق وجوه بنية , لازال فيها طراوة , مثل طراوة فريسة .

لا اعرف كم مضى من الايام , لم اكن من المهتمين بالوقت قط ,ليس لي التفكير بهذه الأشياء , لكنني اذكر شيء اخر , بدلة سوداء , ساعة فضية لامعة , وهج مصباح , ضحكة رجل بأسنان ناصعة البياض وصغيرة , شيطان قد اتخذ هيئة ادمية , ظلامه الداخلي خيم على كل شيء , وقف امامه الجلادون , ثم ذهب .

انه الليل مجددا , اشعره وانا اسحب داخل ممر , غرفة , سوائل تعفير , معقمات , ادوات طبية , مشرط , ملقط , شاش , مخدر, اكياس السوائل الوريدية , صناديق لحفظ الاعضاء , انه الليل ... اشعره يعري جسدي تحت قبضته .. ترنح جسدي مستسلما ... السوائل الباردة تسير , ممددة مجددا فوق سرير طبي , يد تنشئ في جسدي شق آخر .....

احس بالألم بين عظامي , يحز اللحم . لهيب يجري في جسدي . اتنفس اخر انفاس . يتضبب الذهن . شوشرة قرب اذني . تمكنت من التقاط صوت , شاحنة , رافعة , معدن كبير ,عجلات تدور, صافرات سيارات الشرطة من بعيد , صور تنبعث وتتشتت , ترتمي بين السماء , اطفال , ظل رجل يتخبط , امرأة تنتحب , اشرد ... الخدر يعاود الصعود من قدماي, ليس هناك سماء بل عقلي يبتدع الصور, يوهمني بحقيقة الاشياء , احس بالبرد , رفرفة اجنحة , انقضى الامر , لطالما كنت وحيدة , سأموت وحيدة , استهلكت وحدي واقدمت على اختيار موتي , لن ازعج احدهم بخط لوحة نعيي , لن يقف رجل للعزاء , تم محو اسمي من خارطة الاسماء . ترتفع طبقة ناعمة من ضباب ابيض متحرك . تتجمع غيوم طفيفة . لست وحدي الان , انه معي , اعظم الملائكة وسيد الاقدار, احسه , الموت معي, في دمي , في عظامي , في عيني , في شراييني , في ذاكرتي , في وعيي , وفي الا وعي الذي لا ادركه , انه عريق , يقدم لي يده , يجبل بكل اخلاص قبلته , لن يكون علي الانتظار , الامتثال , التماشي مع التيار , خلع روحي من بدني دون اوجاع , اتبخر مع العراء اصعد متأرجحة بين العدم وسواه , انفصلت روابطي المادية .... اخيرا انا اغادر مستنقعي البشري .

الجزء الحادي والعشرون

رن الهاتف في اللحظة الاولى لاستيقاظه . تطلع نحوه , الضابط , امتنع عن الرد , حاول التركيز , بعد دقائق تم استلام رسالة من الضابط , يحثه على المجيء .

في حوالي التاسعة صباحا كان يقف امام المركز متردد قليلا قبل ان يضع قدمه فوق الرصيف. يطالع الصبات الكونكريت الواقفة امامه . خط قدمه ودلف من فتحة بين الصبات . كشف له البناء عن قباحته , ازرق متسخ , اطنان من الاتربة العالقة فوق طلائه , متكدسة عبر سنين . رسوم لقبضة يد , لعلم , مخطوطات تخص القانون واتباعه , بصاق عالق عند الحافات , طبقات طينية تلتصق مع الحواف ايضا , بوابة صدئة غير قادر على استيضاح لونها . داخل البناية غرف عديدة تم بناءها دون غرض واضح فقط غرف عديدة , بعضها مكاتب , بعضها منام للجنود , مطبخ , استراحة للمنتسبين , زنازين صغيرة لا تصلح لحبس الحيوانات , ارشيف لحفظ الملفات , اكوام مضغوطة فوق بعضها بينها طبقات من الغبار والبقع . استعلم منه الملازم , اسمه وسبب تواجده , طلب منه الانتظار لحين اعلام الضابط المعنى بالأمر. بعد دقائق عاد الملازم وادخله نحو الضابط .

كان وجهه حليق وبشرته سمراء مشدودة , شعره اسود كثيف لا تتخلله شعرة رمادية واحدة , له حاجبان كثيفان يمتدان الى ان يتصلان بخط واحد وعينين واسعتين , كان سريع الغضب , يقضي معظم ايامه في المركز , تقريبا كان يعيش في المكتب ويذهب قليلا الى المنزل , وحين عودته سيتجنب ضباطه وموظفيه ان يثيروا حنقه .

يدخل ايار , يرحب به الضابط ويدعوه للجلوس ثم يبدا فورا الحديث دون مقدمات :

دعني اكون واضحا استاذ ايار , في الحالات التي تشبه وضع زوجتك لا يبلغ الاهل عن هذا مطلقا بل يستلمون زمام الامور بنفسهم , يبحثون ويبحثون , احيانا يعثرون عليهن وينهون الامر بالرصاص , احيانا اخرى لا يتم العثور على أي اثر , كما يقولون فص ملح وذاب . انه امر بالغ الحساسية فهو مربوط بالعار والشرف .وعندما قدمت بلاغك اثار الامر استغرابي حقا , لم نعثر على أي كامرة في الجوار توثق الهروب او وقته او كيفيته , لذألك هذا صعب . ثم هناك قضية الهاتف الذي لم يتم العثور عليه قط انه طريق مسدود تماما . ولكننا قدمنا بلاغنا الى جميع المدن , وتم اعطاء مواصفات الزوجة وصورتها وكل التفاصيل , ونحن نعرف ان معظم الهاربات لا يرغبن ان يتم ايجادهن قط , لكن على اية حال تم استلام برقية من العاصمة , تم العثور على جثة بذات المواصفات , انها محفوظة في بناية الطب العدلي عليك ان تذهب للتأكد بنفسك , احذر جنابك انه موضوع ليس بسهل , ممكن ان تكون هي وممكن الا تكون , لكن في كل الاحوال عليك الذهاب .

بات مداهم من الافكار والاحتمالات . في الليل نهضت الوساوس , اعاد ترتيب اعوامه منذ البداية ايقن من اول لحظة انها عادية , لا ترقى الى فتاة احلامه , لا تشاركه أي شيء , مجرد غريبين , ربما كان عليه التراجع آنذاك , لكن ما الضير لو كان الانسان عادي ! وهل هو شخص مختلف ! ثم انها لم تغادر المنزل قط ولم تكمل تعليمها , لم تتح لها الفرصة لاكتشاف الحياة .

حاول طرد سحابة الافكار التي تطوف حول رأسه , تساءل بعجب , لما يعجز عن مقتها ؟ لما يتبدى له هذا الشعور , شيء كوعاء فارغ , انه مسكون بالخواء , لا حب لا كره فقط شفقة . اعاد ذهنه نحو القاضي الذي وقع عقد الزواج , خمس دقائق فقط لا غيرها , بعدها اصبحت له , مثل قطعة في منزل تم اقتناءها , مثل سرير مثل ستارة مثل آلة مثل أي قطعة جماد داخل المنزل .

في الصباح الباكر من اليوم التالي كان قد غادر المنزل نحو الكراج الكبير وحجز مقعده قرب السائق . انطلقت السيارة الصغيرة داخل شوارع المدينة المتربة . امامه ساعة ونصف للطريق الفاصل بين المدينتين , وربع ساعة لاستراحة الفطور قبل دخول العاصمة , وساعتان كاملتان او اكثر وسط اختناقات المدينة .

ما ان اصبحوا خارج المدينة حتى غشيه النعاس . استيقظ عندما توقف ضجيج المحرك . في الاستراحة , ترجل الركاب الثلاث , اخذ عدة دقائق لاستيعاب انه نام طوال الطريق .نزل و تناول البيض مع اللحم وشرب الشاي فأمامه يوم حافل , ثم خرج للانتظار قرب السيارة . بعد دقائق عاد الركاب يتبعهم السائق , ثم اكملوا الانطلاق . يصرف بصره عن خزانات الوقود التي تسير امامهم , ويحضر بداله مشهد تمثيلي يتخلله , قبر , جثة , موت , لابد ان يدفنها . بعد نصف ساعة كان قد وصل وركب سيارة اجرة صغيرة . استغرق ساعة ونصف اخرى , وقد بعثت الافكار خيوط من الجنون في عقله , وكربته الذكريات حتى بات مخنوق بين ما قد يجد هناك .

توقفت العجلة امام المجمع الطبي العملاق , مئات من البشر, مجاميع من طلاب المعاهد والكليات الطبية . تقدم غير متعجل في خطواته وقد قام بالاستفسار عن مبنى الطب العدلي عدة مرات قبل ان يلفي نفسه يقف بثبات امام بوابته , وعناصر الامن الذين تنتصب قاماتهم امامها . قدم اورقه مستفسرا , ثم البناية البيضاء النظيفة الى حد لا يصدق , النوافذ اللامعة , الارضية الرخامية الرصاصية . القشعريرة تسري في كل جزء من جسده وهو يركب المصعد اللامع , ويضغط زر الطابق الثالث .

وبينما خطت حذائه الممشى باتجاه مكتب الاستعلامات , ثم يقدم الكتاب الرسمي الذي سلمه له الضابط , حتى مليء بعاطفة جياشة , ابتعثت في نفسه حزن عميق , حتى بات يحسب نفسه يطفو فوق الطبقة الارضية بينما يتقدمه الممرض بملابس بيضاء .

يقطعان الممر الابيض ثم ينعطفان باتجاه اليمين حيث ممر اخر , ويتوجهان الى غرفة كبيرة في يمين الممر, يسحب الممرض الفتحة المعدنية , ثم يسحب اللوح المعدني فينزلق وفوقه جثة , تصلب فمه وعضلاته , سمر في مكانه وغدا كجزء من البلاط , مشلولا ليس فقط جسده بل حتى الحواس , تأمل الوجه , الشعر , دون وعي , تراجع , تمهل عدة دقائق قبل ان يعطي قراره , اختلجت مشاعره وترقرقت مقلتاه , لكنه نطق واثقا :

ليست هي .

غادر البناء , شاعرا بالعطش الشديد , كصائم في موسم الغيظ . ابتاع عبوة مياه بلاستيكية , سكب معظمها في جوفه , وغسل وجهه بالقليل الباقي , وببلل شعره , انه ساخن كقطعة حديد , جبينه ينزل العرق غير حافل بريح الشتاء . يسير دون هدى بين شوارع المدينة . السائرون يختلون بأنفسهم بعيدا عن فزعه الاخذ في التلاشي . اشارات كثيرة حوله تنبثق , انها الحياة تخاطبه , عاشقان يسيران مشبوكي الايدي , سيدات مسنات يدفعن عربات التسوق , طلاب يحملون سجلاتهم يثرثرون

باحاديث دون معنى لكنهم بلا شك احياء , شابات يلقين نظرة اعجاب فوق محياه اللطيف . يشعر بأن شيء اخر فيه ينمو , تلك الحياة تنتقل نحوه تاركة بذورها . يعيد تجميع نفسه , يقرر المكوث في العاصمة والانطلاق عند الفجر , يحجز غرفة في فندق , ينام قليلا وينهض لاستكشاف المدينة , يترك الفندق قبل الفجر ويكون قد ركب الباص الصغير .

سار الحارس قبل الغبش . رن هاتفه قبل نصف ساعة , جاءه امر صارم وفوري , بالتوجه مباشرة لحرق النفايات . ركب الرافعة الحمراء القديمة , حرك الذراع الالية , حفر حفرة عميقة بين الاكوام , غرف بالذراع اكوام من النفايات , كدسها ثم وضع بينها جثة , اعاد وضع اكوام اخرى , ترجل من شاحنته , سكب الوقود , قدح ولاعته الذهبية , اشعل طرف السيجارة , ثم ورقة صغيرة وقام برميها فوق النفايات . بدأت المحرقة , تأججت امام عينيه , ارتفع اللهيب , انتشر الدخان في اجواء المدينة , وانبعثت روائح وسحب سوداء , سعل الشاب الثلاثيني الجالس في مؤخرة الباص الصغير العائد نحو مدينته , اخرج ايار الكلينكس من جيب سترته وقام بوضعه فوق انفه وفمه , محدقا من النافذة الى الاكوام الاخذة بالاضمحلال , والدخان المتصاعد والرائحة الكريهة وسيارات الشرطة بأضوائها وصفاراتها الصارخة قرب معمل البلاستك . لكنه غارق في احلامه يبني تطلعاته نحو المستقبل , يفكر في بيع البيت وترك الحي بل المدينة كلها . سيتزوج زواج تقليدي آخر تنظمه له احدى قريباته بعده بعدة اشهر , قبل ان تموت والدته وهي نائمة فوق السرير الحديدي الذي كرهته , وحدها تعلم كم ابغضت ان تكون محمولة فوق قوائمه الاربعة كنعش محمول فوق الاكتاف , هي تلك الفكرة بالذات جعلتها تكرهه اكثر وهي مشلولة فوقه , متمنية كل يوم ان يكون اخر يوم تحييه, ولن يعرف احد بموتها حتى الصباح .

الفصل الثاني والعشرون

جاء الفجر الكئيب محمولا على اجنحة الموت العتيد . محض ضياع ذألك الاحساس الذي دب وسار فيه , وهو ينتظر وينتظر ايام وايام في سيارته , لا يفصله سوى بضعة امتار عن معمل البلاستك ببوابته الحمراء واسواره العالية , مثل سجن لأعتى الجناة .

انبجست في عقله ثغرة ابدية أخذت بالتوسع حتى شملته كله . بات شيء مفتوح تتخلله المشاعر والافكار , محمولة فوق الغيوم المنتظرة والريح العابرة . قرع قبول رن في اذنيه , اخيرا استلم النقيب امر الاقتحام , ومضى يقتحم البناء العالي يرافقه آرام , آرام الغريب , عام ونصف كان قد مضى قبل ان يصل الى تلك النقطة , متخفيا كشخص غريب دون اسم دون تاريخ , مراقبا من بعيد , متحينا الفرص كي يسدد ضربته , ممسكا باي خيط تطوح بطريدته , ولم يصدق حدسه آنذاك وهو يطالع جميلة بذألك البهاء الذي يحيط بها , وبدت له شديدة الرقة لا تقوى على خوض غمار أي مغامرة . لكنها مضت تقدم له هذه الخدمة على جهالة , تتجه حيث يريد وكما يريد , يسير مفكرا انه سيحظى بانتصاره , سرعان ما انقض رجاله على المكان ولم يفلت شيء من قبضتهم , وجد المخطوفين

وعثروا على تسجيلات توثق الباشا بنفسه وتدينه , وغرف لاستأصل الاعضاء البشرية . لكن أي من تلك الامور لم يكن بالكافي , انه احساس الذنب الذي رافقه وهو يقتحم حجرات النفق واحدة تلو الاخرى . يعد الشابات ويطالع وجوههن عسى ان يعثر على عصفوره ويحرر ضميره .

مضى .متسائلا بين الوجوه . اخبرته احد المخطوفات ان اخر من تم جلبه الى هنا هو شابة في مقتبل العشرين , وقد اقتيدت سريعا نحو غرفة الجراحة , لكن هناك لم يعثر على شيء سوى ادوات جراحية نظيفة وسرير خالي لا شيء بشري .

اين يتم التخلص من الجثث ؟

سال آرام احد الحراس الذين تم القبض عليهم .

هناك . (رافعا يده مشيرا نحو المحرقة .)

ركض آرام مخترقا صفوف السيارات والعناصر الامنية , لكن الأوان قد فات بالفعل . الحارس يقف مسحورا بالنيران المتصاعدة , لا شيء ليفعله سوى التحديق بالدخان المتعالي . حاصدا عظيم الخيبة , الان بات له شبحان ليطارداه في الاحلام , كلاهما لامرأة , سيتجليان له طويلا حتى القبر, وسيزداد فيه احساس الذنب , انه مشارك بالجريمة منذ ان قبل توصيل الطرد , وانه قد اخفق تماما في تقديم أي شكل من العون .

راح يراقب بصمت. اتقدت عينيه السوداويتين بالشرر وعكست النيران الثائرة , انهما ذكيتين لماحتين وكذا عقله الفطن , وحدسه الذي لا يخيب . منذ ان اصطحابها من ظلام الزقاق همس احدهم في اذنه , (انها هالكة), لكنه بقي يغالب نفسه , ناكرا حدسه القوي , لقد عرف دوما نهايتها الآجلة , استلهمها من وجهها الرقيق الحالم ,وجه لميت مقبل على الرحيل .

انه الفناء القريب مرتسم فوق عينيها الحزينتين , يكتب تاريخه فوق جبينها الضيق . لكنه ضل يقاوم , حتما لن يرفض بصيرته الحاذقة بعد الان , اثبتت انها ثابتة غير قابلة للنكران ولو بذل كل سعيه من اجل ضمان عدم تحقيقها , فأنه سيعجل بحدوثها لا اكثر.

انزاح عن بصره كل ذألك العنف , وملاء الفراغ الذي بات صامتا امامه رماد اسود مرتحلا نحو الا مكان . اشلاء ناعمة ترتفع مع طبقات الهواء . بات غارقا في شعور غريزي عميق , ازاء المعاناة التي توجب عليها خوضها حتى اخر لحظات الموت . خامره شعور آخر وهو يرتفع بنظره نحو السماء , انهما هناك تقفان جنبا الى جنب كلتاهما اشباحه المعذبة ....

كان من العسير بل من غير الممكن العثور على بقايا جثة او فتات ادمي , لا شيء مطلقا , مجرد كومة ذائبة متداخلة من مواد شتى , ما ان تبرد حتى تستحيل الى كتلة صلبة سوداء , لا يمكن لاحد ان يعرف على أي حال كانت قبل تشكلها على تلك الهيئة . كان من الممكن ان تدفن في قبرو تتحلل وتتحول الى مواد عضوية , من الممكن ان يتم استخراجها مع النفط ويتم تعبئتها في خزان الوقود , ومن بين كل بقاع الارض ستعود نحو تلك الخربة , البقعة التي يتوفر فيها كل اسباب نفور العالم . الان لن يكون عليها ان تقلق حيال ذألك الامر . هو ذا قد انهى مهمته وامسك بالأدلة الكافية لاتهام الباشا الذي غادر كل البلاد . طوحت تلك الفكرة براسه بدأ يشعر بالبرد تخضلت مقلتيه بالدموع عندما هبط المساء كاشفا عن ظلامه , حاملا رمادا اسود تذروه الرياح .